سلسلة منشورات مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع بالرياض

(١٤٦)

الإبداع العلمي

تأليف

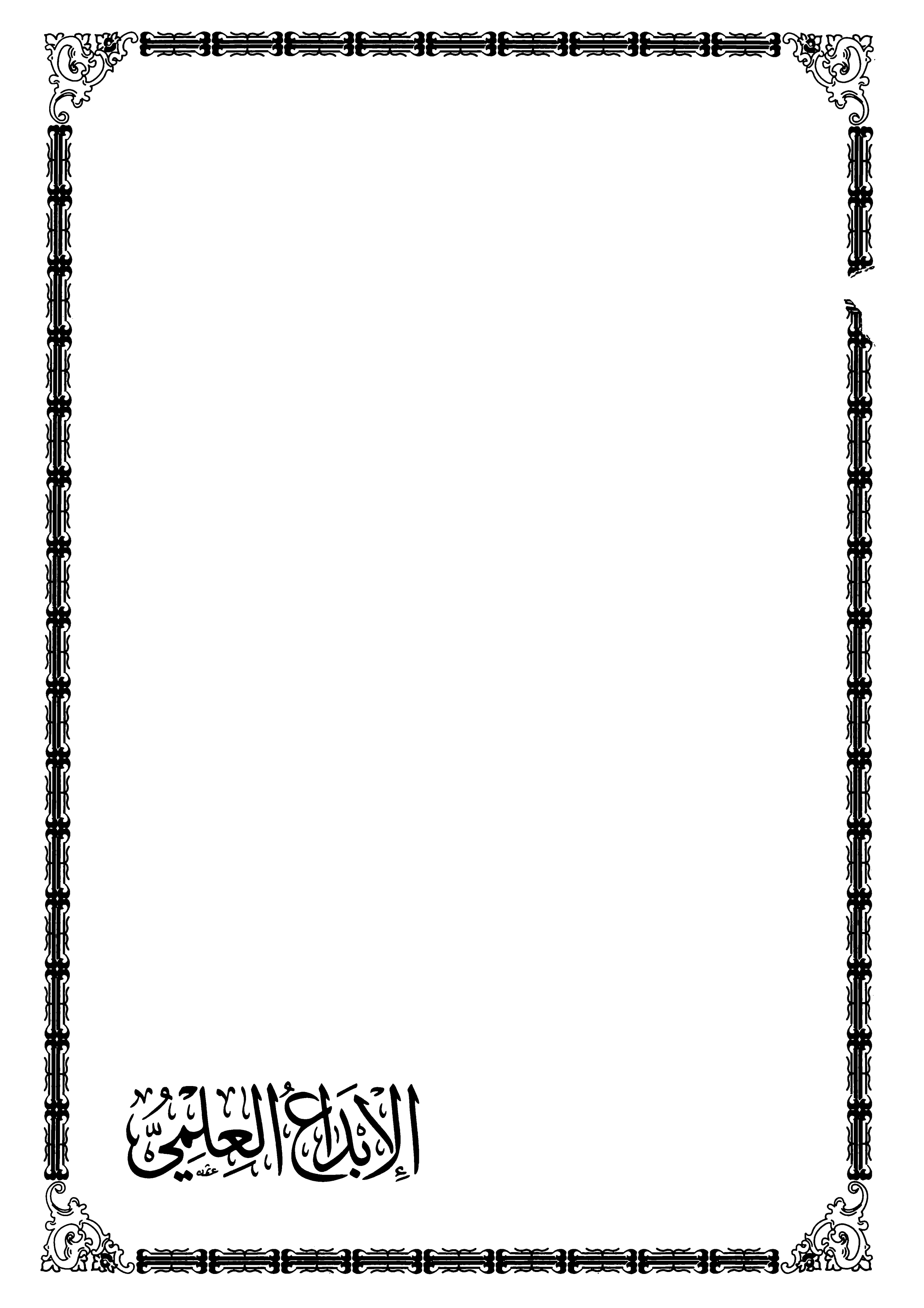
د. أحمد بن علي بن أحمد القرني

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

دراسة تأصيلية تكشف أسس التفوق في العلم
ومقوماته ووسائل تحصيله



للنشر والتوزيع بالرياض


الإبداع العلمي

ح مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، ١٤٣٥هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القرني، أحمد بن علي
الإبداع العلمي. / أحمد بن علي القرني.- الرياض، ١٤٣٥هـ
٢٧٢ص؛ ١٧×٢٤سم.- (سلسلة منشورات مكتبة دار المنهاج؛ ١٤٦)
ردمك: ٩٧٨ - ٦٠٣ - ٨٠٣٤ - ٧٧ - ٤
١ - الإبداع ٢ - العبقرية ٣ - النبوغ أ. العنوان ب. السلسلة
ديوي ١٥٣,٣٥ ١١٧٣/ ١٤٣٥

الطبعة الأولى
١٤٣٥هـ

مكتبة دار المنهاج
للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية . الرياض
المركز الرئيسي - الدائري الشرقي - مخرج ١٥ - جنوب أسواق المجد
ت: ٤٤٥٦٢٢٩ - فاكس: ٤٩٦٢٠١٤ - ص.ب: ٥١٩٢٩ - الرياض ١١٥٥٣
الفروع - طريق خالد بن الوليد (إنكاس سابقاً) ت: ٢٣٢٢٠٩٥
مكة المكرمة - الجميزة - الطريق النازل للحرم - ت ٠٢/٥٧٦١٣٧٧
المدينة النبوية - أمام الجامعة الإسلامية من جهة الجنوب - ت: ٠٤/٨٤٦٧٩٩٩
حساب الدار في موقع تويتر: @Alminhajj



الإبداع العلمي

تأليف

د. أحمد بن علي بن أحمد القرني

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

دراسة تأصيلية تكشف أسس التفوق في العلم ومقوماته ووسائل تحصيله



فَاتِحَة

أُبَارِكُ في النَّاسِ أَهْلَ (الطُّمُوحِ) وَمَنْ يَسْتَلِذُّ رُكُوبَ الخَطَرْ

وَمَنْ لَا يُحِبُّ صُعُودَ الجِبَالِ يَعِشْ أَبَدَ الدَّهْرِ بَيْنَ الحُفَرْ

إِذَا مَا طَمِحْتُ إِلَى غَايَةٍ رَكِبْتُ المُنَى وَنَسِيتُ الحَذَرْ

وَمَنْ لَمْ يُعَانِقْهُ شَوْقُ الحَيَاةِ تَبَخَّرَ في جَوِّهَا وَانْدَثَرْ

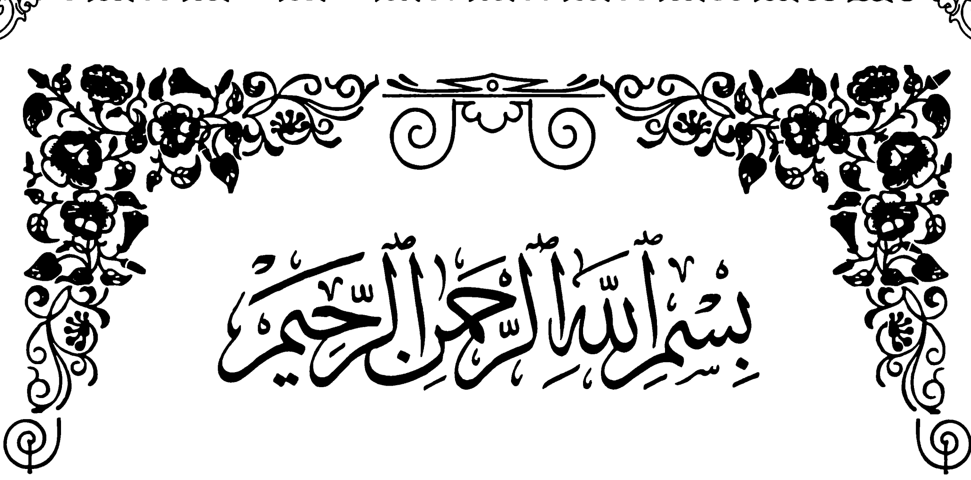
فَلَا الأُفْقُ يَحْضُنُ مَيْتَ الطُّيُورِ وَلَا النَّحْلُ يَلْثَمُ مَيْتَ الزَّهَرْ

هُوَ الْكَوْنُ حَيٌّ يُحِبُّ الحَيَاةَ وَيَحْتَقِرُ المَيْتَ مَهْمَا كَبُرْ

كَذَلِكَ قَالَتْ لِيَ الكَائِنَاتُ وَحَدَّثَنِي رُوحُهَا المُسْتَتِرْ

وَأُعْلِنُ في الكَوْنِ أَنَّ (الطُّمُوحَ) لَهِيبُ الحَيَاةِ وَرُوحُ الظَّفَرْ

أبو القاسمِ الشّابّيُّ



بين يدي الكتاب

الحمدُ لله ربِّ العالَمِين، والصلاةُ والسلامُ على مَن جعَلَه اللهُ رحمةً للعالَمِين، وعلى آلِه وصحبِه أجمَعِين، **أَمَّا بَعْدُ:**

فحاجةُ الأُمَّةِ في هذا الوقتِ حاجةٌ ملحَّةٌ إلى إيجادِ جيلٍ يحمِلُ هَمَّها فيحفَظُ عليها دينَها ودُنياها لتَبلُغَ به مُبتغاها، ولن يكونَ هذا إلا بأن تُرْسَمَ لهذا الجيلِ الطريقُ وتُوَضَّحَ له المعالِمُ، ويكونَ أمامَه مَن يأتَسِي به مِن رجالاتِ هذه الأُمَّة، ومُبْدِعِيها.

ولعلَّ هذا الكتابَ «**الإبداع العلمي**» لفضيلة الشيخِ الدكتورِ أحمد بن علي القرني، يكونُ منارَةً على تلك الطريقِ يهتدي بها مبتَغُو الإبداعِ إلى ما يَصْبُون إليه؛ فلقد بَذَلَ فيه مؤلِّفُه الوقتَ الطويلَ والبحثَ الواسِعَ حتى جاء على هذا الوجهِ مِن الدِّقَّةِ والشمولِ والإبداعِ.

فنرجُو أن يكونَ إخراجُ هذا الكتابِ إسهامًا في نفعِ الأمةِ وإرشادًا للباحِثِين عن الإبداعِ والإتقانِ والتجويدِ في كلِّ ما هُم بسبيلِه مِن نُصرةِ هذا الدِّين في جميعِ مناحي العلم والعَمَل.

والله الهادي إلى سواء السبيل، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ على نبيِّنا محمَّدٍ، وعلى آله وصحبه أجمَعِين.

الناشر

عبد الله بن محمد السنان

الرياض



مُقَدِّمَةُ ٱلطَّبْعَةِ ٱلثَّانِيَةِ

الحمدُ للهِ حقَّ حمدِه، والصلاةُ والسلامُ على من لا نبيَّ من بعدِه.

وبَعْدُ:

فهذه هي الطبعةُ الثانيةُ من كتابي «الإبداعُ العِلْميُّ»، أقدِّمُهُ للقُرَّاءِ الكرامِ، بعدَ أن نَفِدَتْ طبعتُهُ الأولى، وكثُر سؤالُ الناسِ عنه؛ حيثُ لاقى بحمدِ اللهِ صدًى طَيِّبًا، وتقبَّله الناسُ بِقَبُولٍ حسنٍ[1].

وقد أَضَفْتُ زياداتٍ كثيرةً في هذه الطبعةِ، وحشوتُه بالفوائد حشْوًا، وشحنتُه بالنفائس سِفْلًا وعُلْوًا، فلاح بهجة للناظر، ومسرَّةً للخاطر - إن شاء الله تعالى - كما أَجْرَيْتُ تعديلاتٍ وتصويباتٍ جمَّةً، مما زاغ به القَلَم، أو مسَّه شيءٌ من اللَّمَم!

ولا يفوتُني هنا أن أتقدَّمَ بجزيلِ الشكرِ لكلِّ مَنْ أسهَمَ في هذا الكتابِ؛ برأيٍ، أو نصحٍ، أو حَفَاوةٍ، وأخصُّ بالذكرِ منهم فضيلةَ الشيخِ محمدَ بنَ أحمدَ بنِ إسماعيلَ المقدّمَ، الذي قامَ بشرحِ الكتابِ في دروسِهِ العلميةِ النافعةِ بأرضِ الكنانةِ، ووصَفَهُ بأنه صورةٌ من صورِ الإبداعِ.

كما أشكرُ الأساتذةَ الذين قرّروا الكتابَ على طُلَّابِهم في الدراساتِ العليا، أو عَقَدُوا له حَلْقاتِ نقاشٍ، في عددٍ من الجامعاتِ؛ فلهم مني جميعًا وافرُ الشكرِ، وعظيمُ التقديرِ.

---

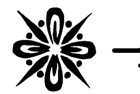
(١) حتى إنَّ بعض الفضلاء اقتنى منه ثلاث مئة نسخة للإهداء والتوزيع.

ولقد هَمَمْتُ في هذه الطبعةِ أن أصنعَ **معجمًا للأعمالِ الإبداعيةِ** أُذَيِّلُ به الكتابَ، إلَّا أنَّ الوقتَ لم يُسْعِفْني لذلك أمامَ طَلَبِ الناشرِ واستعجالِ القُرَّاءِ؛ لذا رأيتُ إرجاءَهُ إلى طبعةٍ أخرى لاحقةٍ إنْ أَذِنَ اللهُ ومَنَّ.

وختامًا: فإنني أسألُ اللهَ تعالى أن ينفعَ بهذه الطبعةِ كما نفَعَ بسابقتِها، وأن يجعلَها ذُخْرًا لي في العُقْبَىٰ، وسببًا لديه من أسبابِ الزُّلْفَىٰ.

وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

طابة ٢٥/٧/١٤٣٤هـ



المُقَدِّمَة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينْ، والصلاةُ والسلامُ على أشرفِ الأنبياءِ وخاتمِ المرسلينْ، نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعينْ.

اللَّهُمَّ هَيِّئْ لنا الخيرَ، واعزِمْ لنا على الرُّشدِ، وآتنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمةً، واكتُبْ لنا السَّلَامةَ في الرأيِ، وجَنِّبنَا فتنةَ الشيطانِ أَنْ يَقْوَى بها فنَضْعُفَ، أو نَضْعُفَ لها فيَقْوَى، ولا تَدَعْنا من كوكبِ هدايةٍ منكَ في كلِّ ظُلْمةِ شكٍّ منا، واعْصِمْنا أن تكونَ آراؤُنا في الحقِّ البَيِّنِ مكانَ الليلِ من نهارِه، أو تَنْزِلَ ظنونُنا من اليقينِ النَّيِّرِ منزلةَ الدُّخَانِ مِنْ نارِه؛ ندعوكَ بأفئدةٍ عَرَفَتْكَ حينَ كذَّبَ غيرُها فأَقَرَّتْ، وآمنتْ بك فزُلْزِلَ غيرُها استقَرَّتْ[١].

أَمَّا بَعْدُ:

فلا شكَّ أنَّ (الإبداعَ) ـ بكلِّ ما يَحْمِلهُ هذا المُصطلحُ من معانٍ كبيرةٍ، ودَلَالاتٍ خطيرةٍ ـ مطلبٌ مهمٌّ لكلِّ مُحِبٍّ للتألُّقِ والتفوُّقِ والنجاحِ؛ بل إنَّه مِنْ أسمى الغاياتِ للأفرادِ، بَلْهَ المجتمعاتِ والمؤسَّساتِ والدولِ، لكنه لا يُنالُ بسهولةٍ، ولا يُحَصَّلُ بيُسْرٍ؛ إذْ هو بعيدُ المنالِ، صعبُ المُرْتَقَى، كثيرُ التكاليفِ والأعباءِ، لا يَصِلُ إليه إلا أقلُّ القليلِ!

---

(١) هذا طرفٌ من كلام الرافعي ـ رحمه الله تعالى ـ في مقدِّمة كتابه العظيم: «تحت راية القرآن» (ص٦).

و(**الإبداعُ**) ـ رُغْمَ قِلَّةِ من يَصِلُ إليه ويُحصِّلُه، ورُغْمَ وضوحِ مفهومِهِ واطِّرَادِ نَسَقِهِ ـ أصبحَ في عصرِنا هذا مصطلحًا فَضْفاضًا؛ أُدخلَتْ فيه أنماطٌ كثيرةٌ ليستْ مِنْ بابتِهِ ولا مِنْ جنسِهِ، يُسمِّيها أربابُها إبداعًا، وهي ليستْ كذلك، بل هي أقربُ إلى ضعفِ الذوقِ، وسوءِ الفهمِ، وقلةِ التوفيقِ؛ منها إلى الإبداعِ!

والإبداعاتُ (الحقيقيةُ) في دنيا الناسِ شَتَّى، لكنّ أعظمَها وأهمَّها وأعلاها شأنًا هو «**الإبداعُ العِلْميُّ**»؛ أيًّا كان ذلك العلمُ؛ بَيْدَ أنَّ العلومَ ـ كما لا يخفى ـ تتفاوتُ رُتَبُها ومنازلُها، تبعًا لتفاوتِ نَفْعِها وفائدتِها؛ فتعظُمُ قيمةُ الإبداعِ أو تَصْغُرُ تبعًا لذلك.

وطُلَّابُ العلمِ وشُدَاتُهُ، أحوجُ ما يكونون اليومَ إلى معرفةِ أُسُسِ الإبداعِ العلميِّ وركائزِهِ ومكوِّناتِهِ ومعوِّقاتِهِ، ، ، إلخ؛ ذلك لأن الأمةَ الإسلاميةَ في هذا العصرِ، بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى المُبْدِعِينَ المتميِّزين من أبنائِها، في مُخْتَلِفِ العلومِ والمعارفِ النافعةِ؛ للخروجِ من الذِّلَّةِ والضعفِ والتخلُّفِ الذي ضرَبَ عليها بجِرَانِهِ منذُ أمدٍ بعيدٍ.

إنَّ شأنَ العلمِ شأنٌ عجيبٌ؛ فهو لا يعطيكَ بعضَ شيءٍ، حتى تُعْطِيَهُ كلَّ شيءٍ، وهو لا يَخْدُمُكَ حتى تَخْدُمَهُ، **وقديمًا قيل**: «مَنْ خدَمَ المحابرْ، خَدَمَتْهُ المَنَابِرْ»، واعتَبِرْ ذلك بحالِ علمائِنا السالفينَ؛ لمَّا خدموا العلمَ خدَمَهُمُ العلمُ، بل أخضَعَ لهم الأممَ؛ فكان طُلَّابُ العلمِ ورُوَّادُ المعرفةِ يأتون إلينا فُرَادَىٰ وأفواجًا ـ من الصينِ شرقًا إلى فرنسا غربًا ـ لتلقِّي العلمِ؛ مِنْ لغةٍ وطبٍّ وهندسةٍ وطبيعياتٍ وغيرِها، في الأمصارِ الإسلاميةِ المختلفةِ؛ كما اعترَفَ بذلك مؤرِّخوهم[(١)].

---

(١) من أحسن المؤلفات في هذا: «حضارة العرب» لجوستاف لوبون، و«شمس العرب =

فلمَّا تخلَّى المسلمون ـ خلالَ القرنَيْنِ الأخيرَيْنِ ـ عن خدمةِ العلمِ وقام به أولئك، انقَلَبَ الأمرُ، فأصبَحْنَا نحن الذين نَرْحَلُ لأخذِ العلمِ عنهم! مع ما في السفرِ إلى بلادِهم مِنْ مفاسدَ ومخاطرَ كثيرةٍ لا تخفى، ولا يَظْلِمُ ربُّكَ أحدًا.

إنَّ مِنْ أعظمِ ألوانِ الجهادِ، وأقوى أسلحتِهِ، وأشدِّها مَضَاءً في الوقتِ الحاضرِ: التفوُّقَ العلميَّ[1] في جميعِ المجالاتِ، وما وَصَلَتِ الأمةُ إلى ما وصلَتْ إليه اليومَ مِنْ ضعفٍ وهوانٍ، جَرَّ عليها الويلاتِ، وجرَّأَ عليها الأعداءَ، وجعَلَ مواردَها وخيراتِها نَهْبًا للقاصي والداني ـ إلَّا بسببِ التخلُّفِ العلميِّ؛ سواءٌ في مجالِ العِلْميَّاتِ، أو في مجال العَمَليَّاتِ.

بل إنَّ تخلُّفَنا العلميَّ اليومَ مِنْ أعظمِ أسبابِ صَدِّ الناسِ عن الدخولِ في الإسلامِ، شعَرْنَا بذلك أم لم نَشْعُرْ؛ **يقولُ أحدُ الدعاةِ**: «عرَضْتُ الإسلامَ على أحدِ علماءِ اليابانِ، فقال لي: هل تريدُ أن أَدْخُلَ في دينِكم لِأُصْبِحَ متخلِّفًا مثلَكم؟!».

ولذا قال المَقَّرِيُّ عن المنصورِ بنِ أبي عامرٍ ـ أحدِ ملوكِ الأندلسِ ـ: «مِنْ أعجبِ ما وقَعَ له: ما رأيتُهُ بِخِزَانةِ فاسٍ في كتابٍ أَلَّفه صاحبُهُ في الأزهارِ والأنوارِ، حكى فيه في ترجمةِ «النَّيْلَوْفَرِ»[2]:

= تسطع على الغرب» لزيغريد هونكه، و«العرب في التاريخ» لبرنارد لويس، و«حضارة الإسلام» لجوستاف جروينباوم.

(١) **قال ابن القيم**: «إنما جعل طلب العلم من سبيل الله؛ لأن به قِوَامَ الإسلام، كما أن قوامه بالجهاد، فقوامُ الدين بالعلم والجهاد؛ ولهذا كان الجهاد نوعَيْن: جهادٌ باليد والسنان؛ وهذا المشارِكُ فيه كثيرٌ، والثاني: الجهادُ بالحجة والبيان؛ وهذا جهادُ الخاصَّة من أتباع الرسل، وهو جهاد الأئمة، وهو أفضل الجهادَيْن؛ لعظم منفعته، وشدة مؤنته، وكثرة أعدائه». «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٧١).

(٢) **«النَّيْلَوْفَرُ»** ـ ويقال: «النَّيْنَوْفَرُ» ـ: ضَرْبٌ من الرَّياحين ينبُتُ في المياه الرَّاكدة، فيه =

أنَّ المنصورَ لمَّا قَدِمَ عليه رسولُ مَلِكِ الرومِ ـ الذي هو أعظمُ ملوكِهم في ذلك الزمانِ ـ لِيَطَّلِعَ على أحوالِ المسلمينَ وقُوَّتِهم، فأمَرَ المنصورُ أن يُغْرَسَ في بِرْكةٍ عظيمةٍ ذاتِ أميالٍ نَيْلَوْفَرٌ على ما تَسَعُ، ثم أمَرَ بأربعةِ قناطيرَ من الذهبِ، وأربعةِ قناطيرَ من الفضةِ، فسُبِكَتْ قِطَعًا صغارًا على قَدْرِ ما تَسَعُ النيلوفرةُ، ثم ملأ بها جميعَ النيلوفرِ الذي في البِرْكةِ، وأرسَلَ إلى الرُّوميِّ، فحضَرَ عنده قبلَ الفجرِ في مجلسِهِ السامي بالزاهرةِ، بحيثُ يُشْرِفُ على موضعِ البِرْكةِ، فلمَّا قَرُبَ طلوعُ الشمسِ، جاء ألفٌ من الصَّقَالِبَةِ، عليهم أَقْبِيَةُ الذهبِ والفضةِ، ومناطقُ الذهبِ والفضةِ، وبِيَدِ خمسِ مئةٍ أطباقُ ذهبٍ، وبيدِ خمسِ مئةٍ أطباقُ فضةٍ، فتَعجَّبَ الرسولُ من حسنِ صُوَرِهم وجمالِ شارتِهم، ولم يَدْرِ ما المرادُ؟ فحِينَ أشرَقَتِ الشمسُ ظَهَرَ النيلوفرُ من البِرْكةِ، فبادروا لأخذِ الذهبِ والفضةِ من النيلوفرِ! وكانوا يجعلونَ الذهبَ في أطباقِ الفضةِ، والفضةَ في أطباقِ الذهبِ، حتى التقطوا جميعَ ما فيها، وجاؤوا به فوضعوه بين يدي المنصورِ، حتى صار كُومًا بين يديهِ، فتَعجَّبَ النصرانيُّ مِنْ ذلكَ وأعظَمَهُ، وطلَبَ المهادنةَ من المسلمينَ، وذهَبَ مسرعًا إلى مُرْسِلِهِ، وقال له: لا تُعَادِ هؤلاءِ القومَ؛ فإنِّي رأيتُ الأرضَ تَخْدُمُهم بكنوزِها!!» انتهى.

وهذه القصةُ من الغرائبِ، وإنها لحيلةٌ عجيبةٌ في إظهارِ عِزِّ الإسلامِ وأهلِهِ، وكان المنصورُ بنُ أبي عامرٍ آيةً من آياتِ اللهِ سبحانه في السَّعْدِ ونُصْرةِ الإسلامِ»[١].

= أنواعٌ تنبُتُ في الأنهار والمناقع، وأنواعٌ تُزْرَعُ في الأحواض لورقها وزهرها، ومن أنواعه: اللوطس، **أي**: عرائس النِّيل، وتسمَّى: البشنين. **انظر**: «القاموس المحيط» (ص٤٨٦)، و«المعجم الوسيط» (٢/ ٩٦٧).

(١) «نفح الطيب» (٣/ ٨٥).

يجبُ أن نَعْلَمَ أنَّ هذا العصرَ هو عصرُ القُوَّةِ، وأنَّ العالَمَ اليومَ لا يعتمدُ على قوةِ الحقِّ، وإنما على حقِّ القُوَّةِ! فلا مكانَ فيه للضَّعَفَةِ البَطَّالينَ، ولا للمتواكِلِينَ المتخاذلين، ولو طَفَرَتْ منهم العَبَراتُ، وعَلَتْ منهم الزَّفَرَاتُ، **فشعارُ العالَمِ اليومَ**: إمَّا أنْ تَعْمَلَ، وإمَّا أن تَرْحَلَ! إمَّا أنْ تَطَأَ على قدميكَ، وإمّا أن تَطَأَ الأقدامُ عليك!

ولقد أبدعَ الشاعرُ المصريُّ محمد عوض محمد (ت١٣٩١هـ) **حيثُ يقولُ**[(١)]:

أَتَحْنُو عَلَيْكَ قُلُوبُ الوَرَى ... إِذَا دَمْعُ عَيْنَيْكَ يَوْمًا جَرَى؟!

وَهَلْ تَرْحَمُ الحَمَلَ المُسْتَضَامَ ... ذِئَابُ الفَلَا وَأُسُودُ الشَّرَى؟!

وَمَاذَا يَنَالُ الضَّعِيفُ الذَّلِيلُ ... سِوَى أَنْ يُحَقَّرَ أَوْ يُزْدَرَى؟!

لَقَدْ سَمِعَ النَّسْرُ نَوْحَ الحَمَامِ ... فَلَمْ يَعْفُ عَنْهَا وَلَمْ يَغْفِرَا

بَلِ انْقَضَّ ظُلْمًا لِيَغْتَالَهَا ... وَأَنْشَبَ في نَحْرِهَا المِنْسَرَا

وَمَا رَدَّ عَنْهَا الأَذَى ذُلُّهَا ... وَلَا أَنَّهَا مَا جَنَتْ مُنْكَرَا

فَكُنْ يَابِسَ العُودِ صُلْبَ القَنَاةِ ... قَوِيَّ المِرَاسِ مَتِينَ العُرَى!

وَلَا تَتَطَامَنْ لِبَغْيِ البُغَاةِ ... وَكُنْ كَاسِرًا قَبْلَ أَنْ تُكْسَرَا

وَأَوْلَى لِمَنْ عَاشَ مِثْلَ الثَّرَى ... ذَلِيلًا لَوِ احْتَلَّ جَوْفَ الثَّرَى

إِذَا كُنْتَ تَرْجُو كِبَارَ الأُمُورِ ... فَأَعْدِدْ لَهَا هِمَّةً أَكْبَرَا!

طَرِيقُ العُلَا أَبَدًا لِلأَمَامِ ... فَوَيْحَكَ هَلْ تَرْجِعُ القَهْقَرَى؟!

وَكُلُّ البَرِيَّةِ في يَقْظَةٍ ... فَوَيْلٌ لِمَنْ يَسْتَطِيبُ الكَرَى!

إنه من اللازمِ على أربابِ الفكرِ وأصحابِ الغَيْرةِ من هذه الأمةِ،

---

(١) «مجلة الرسالة»: العدد (٢). **وانظر**: «دليل الإعراب والإملاء» (ص١٣٠).

أن يَنْهَضُوا لمعالجةِ هذا الخَلَلِ، ورَدْمِ هذه الفَجْوةِ في واقعِ الأمةِ ـ لا سيَّما في هذا العصرِ؛ عصرِ العَوْلَمةِ ـ كيما يتسنّى للأمةِ العودةُ إلى سابقِ عِزِّها، وسالفِ مَجْدِها، وليس ذلك بعزيزٍ؛ إذا ما تضافرتِ الهِمَمُ والعزائمُ، وتلاحمتِ الأيدي والقلوبُ، لكنَّ الأمرَ يحتاجُ إلى جُهودٍ كبيرةٍ، ومؤسَّساتٍ كثيرةٍ، وأموالٍ وفيرةٍ؛ نظرًا لبُعدِ حالِ الأمةِ عن واقعِ العصرِ.

وَاحَسْرَتَاهُ تَقَضَّى العُمْرُ وَانْصَرَمَتْ   سَاعَاتُهُ بَيْنَ ذُلِّ العَجْزِ وَالكَسَلِ

وَالنَّاسُ قَدْ أَخَذُوا دَرْبَ النَّجَاحِ وَقَدْ   سَارُوا إِلَى المَطْلَبِ الأَعْلَى عَلَى مَهَلِ

«إن بمقدورِ علماءِ المسلمينَ الصادقينَ، الذين أمكنهم التحقُّقُ بِأَدَقِّ الاختصاصاتِ التِّقْنِيَّةِ، واعتلاءِ أرقى المنابرِ العلميةِ ـ تحقيقَ كسبٍ جَيِّدٍ لِأُمَّتِهم، من خلالِ توظيفِ هذه التخصُّصاتِ واستثمارِها في خِدْمةِ العقيدةِ والدَّعْوةِ وصناعةِ الحضارةِ، خصوصًا في هذا العصرِ الذي أصبَحَ العلماءُ والتِّقْنِيُّونَ فيه هم الذين يحكُمُونَ العالَمَ فعلًا، كما أنَّ الذين يحتلُّونَ مراكزَ البحثِ العلميِّ والأكاديميِّ ـ في الدولِ المتقدِّمةِ ـ هم صانعو القرارِ السياسيِّ في نهايةِ المطافِ؛ لأنَّ القراراتِ السياسيةَ لم تعدْ تنشأُ مِنْ فراغٍ كما كان مِنْ قبلُ، وإنما هي ثَمَرةٌ لما تُقدِّمُهُ مراكزُ البحوثِ والمعلوماتِ.

إنَّ معضلةَ التخلُّفِ العلميِّ والتِّقْنيِّ التي نعانيها اليومَ، لا تُحَلُّ بكثْرةِ الشكوى والنُّوَاحِ على الماضي، والبكاءِ على الأطلالِ، خاصَّةً عندما ينقلبُ البكاءُ إلى لونٍ من ألوانِ التداوي والتخديرِ، ولا يصلُ بصاحبِهِ إلى مرحلةِ القَلَقِ الحضاريِّ الذي يؤدِّي إلى استشعارِ التناقضِ والتحدِّي بين الواقعِ القائمِ والمثالِ المأمولِ، ويُبصِّرُ بالسبيلِ المحقِّقِ

للهدفِ، ولن تُحَلَّ المشكلةُ أيضًا بمزيدٍ مِنَ المواقفِ الخطابيةِ العاطفيةِ، أو الحماسِ والتوثُّبِ فقطْ! بعيدًا عن فِقْهِ آياتِ القرآنِ، وهَدْيِ النبوَّةِ، وسيرةِ السلفِ العَمَليَّةِ: كيف تعاملوا مع الأسبابِ، وأدركوا عِلَلَ الأشياءِ، وسُنَنَ التغييرِ، وقوانينَ التسخيرِ؛ وإنما لا بُدَّ من الإدراكِ الكاملِ لمشكلةِ التخلُّفِ، ودراسةِ المُنَاخِ الذي مكَّن لها، ومعالجةِ الأسبابِ، وما يقتضيه ذلك مِنَ الصبرِ والدَّأبِ والمراجعةِ، وعدمِ الاقتصارِ على الإحساسِ بالظواهرِ والأعراضِ. . .»[١].

إنَّ إنسانَ المستقبلِ ـ كما يقولُ الدكتورُ أحمد زُوَيْل[٢] ـ: «هو ابنُ المعرفةِ التي تُحقِّقُ التقدُّمَ العلميَّ والاقتصاديَّ، والسياسيَّ والاجتماعيَّ، ولولا التفكيرُ والإبداعُ ما تَميَّزَ الإنسانُ عن الحيوانِ، وَلَتَساوَى معه كما تَسَاوَى معه جِينيًّا بنسبةِ ٩٩،٩٪؛ فالفرقُ الوحيدُ لصالحِ الإنسانِ هو رغبتُهُ في المعرفةِ».

وأخيرًا: فهذه المعاني والأفكارُ التي ذَكَرْتُها في هذا الكتابِ، والتي استوحيتُها مِنْ غِمَارِ التجاربِ، واستلهمتُها مِنْ دواوينِ العلمِ وسيرِ العلماءِ وأحوالِهم ـ إنما أَرَدْتُ أنْ تكونَ تذكرةً للنابهينَ مِنْ أهلِ العلمِ، والنابغينَ من طلابِهِ، والتذكرةُ تنفعُ العقلاءَ؛ **قال الإمامُ الشافعيُّ لتلميذِهِ الرَّبِيعِ بنِ سليمانَ المُرَاديِّ**: «الموعظةُ للعَوَامِّ، والنصيحةُ للإخوانِ، والتذكرةُ للخَوَاصِّ منهم ـ فرضٌ افترضَهُ اللهُ على عقلاءِ المؤمنينَ»[٣].

---

(١) مقتطفات ـ مع شيء من التصرف ـ من مقدمة الأستاذ عمر عبيد حسنه، لكتاب «قضية التخلُّف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر» للدكتور زغلول راغب النجَّار.

(٢) الدكتور أحمد زويل هو العالم المسلم ـ الأوحد حتى الآن! ـ الذي نال جائزة نوبل في تخصُّصٍ علميٍّ دقيقٍ، هو الكيمياء.

(٣) «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١٤٨).

وأرجو أن تكونَ أيضًا سببًا لإيقاظِ الأمةِ مِنْ رَقْدتِها، وسبيلًا لانتشالِها من وَهْدَتِها، بعدَ أن طال ثَوَاؤُها، واستشرى دَاؤُها، وعَزَّ دواؤُها، واللهُ المستعانُ!

وقد ارتأيتُ أن يكونَ ترتيبُ الكتابِ على النَّسَقِ التالي:

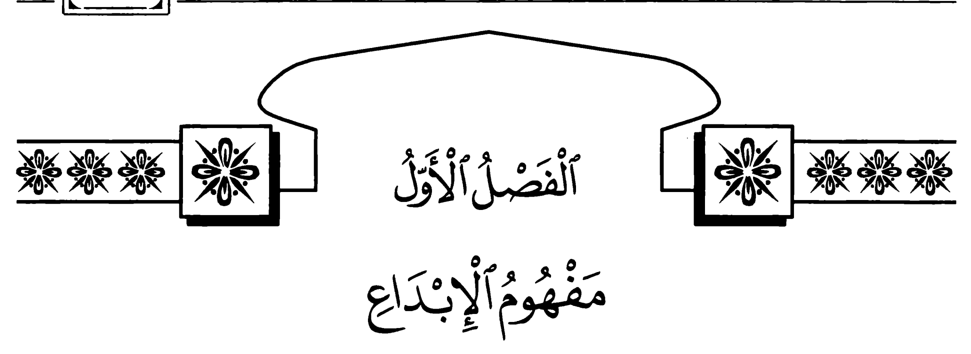
* **الفصلُ الأوّلُ:** مفهومُ الإبداعِ.
* **الفصلُ الثاني:** حقيقةُ الإنسانِ المبدعِ.
* **الفصلُ الثالثُ:** أنواعُ الإبداعِ.
* **الفصلُ الرابعُ:** أقسامُ الإبداعِ.
* **الفصلُ الخامسُ:** أسسُ الإبداعِ العِلْميِّ.
* **الفصلُ السادسُ:** مقوِّماتُ الإبداعِ العلميِّ.
* **الفصلُ السابعُ:** حوافزُ الإبداعِ العِلْميِّ.
* **الفصلُ الثامنُ:** عوائقُ الإبداعِ العلميِّ.
* **الفصلُ التاسعُ:** الإبداعُ وعَلَاقتُهُ بالدينِ.
* **الفصلُ العاشرُ:** انحرافُ الإبداعِ العلميِّ عن مسارِهِ الصحيحِ.
* **الفصلُ الحاديَ عشرَ:** نجومٌ مضيئةٌ في سَمَاءِ الإبداعِ العلميِّ.
* **الخاتمةُ،** وأهمُّ النتائجِ، والتوصياتُ.

وختامًا: فقد حاولتُ في هذه الدراسةِ جاهدًا، أن أَمْزِجَ القديمَ بالجديدِ، والتراثَ بالمعاصرةِ؛ لمعالجةِ هذه القضيةِ المهمَّةِ؛ قضيةِ الإبداعِ العلميِ، راجيًا أن أكونَ قد وُفِّقْتُ في شيءٍ من ذلك، وأملي في كلِّ أخٍ ناصحٍ قرأ هذا العملَ أَلَّا يَبْخَلَ عليَّ بما يَعِنُّ له من ملاحظاتٍ وتوجيهاتٍ؛ بُغيةَ تقويمِ هذا العملِ وتسديدِهِ.

سائلًا المولى جَلَّ وعلا أن ينفعَ بهذا العملِ، وأن يَجْعَلَهُ منارًا يُضيءُ للسائرينَ هذا الطريقَ الطويلَ؛ طريقَ «**الإبداعِ العلميِّ**».

وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ.

✍ وكتب:
أحمدُ بنُ عليِّ بنِ أحمدَ آلُ ناصرٍ القرنيُّ
الأستاذُ المشاركُ بالجامعةِ الإسلاميةِ
بالمدينةِ النبويّةِ



الفصل الأول

مفهوم الإبداع

عندما نقولُ: «إنسانٌ مُبْدِعٌ»، أو «هذا عَمَلٌ إبداعيٌّ»، فما المقصودُ بذلك؟ وما معنى هذه الكلمةِ؟

• الإبداعُ في اللغةِ:

يقولُ ابنُ فارسٍ: «الباءُ والدالُ والعينُ أصلانِ؛ أحدُهما: ابتداءُ الشيءِ وصُنْعُهُ لا عن مثالٍ، والآخرُ: الانقطاعُ والكَلَالُ؛ فالأولُ قولُهم: أَبْدَعْتُ الشيءَ قولًا أو فِعْلًا: إذا ابتَدَأْتَهُ لا عن سابقِ مثالٍ، واللهُ بديعُ السمٰواتِ والأرضِ، والعربُ تقولُ: ابتَدَعَ فلانٌ الرَّكِيَّ: إذا استنبطَهُ...»[(١)].

وقال ابنُ منظورٍ: «البديعُ: المُحْدَثُ العجيبُ، والبديعُ: المُبْدِعُ، وأَبْدَعْتُ الشيءَ: اختَرَعْتُهُ لا عن مثالٍ، ورجلٌ بِدْعٌ: إذا كان غايةً في كلِّ شيءٍ؛ كان عالمًا أو شريفًا أو شُجَاعًا»[(٢)].

وقال أبو شَامَةَ: «أصلُ هذه الكلمةِ: مِنَ الاختراعِ، وهو الشيءُ

---

(١) «مقاييس اللُّغة» (١/ ٢٠٩) مادة: (ب د ع).

وبالمناسبة: فإن كتابه هذا يُعَدُّ عملًا إبداعيًّا في اللغة، وهو نافعٌ إلى الغاية؛ لأنه يُلخِّص جميع معاني الكلمة في أصولٍ قليلةٍ، **وانظر**: ما يأتي عند الحديث عن ابن فارس في الفصل العاشر.

(٢) «لسان العرب» (٨/ ٦ ـ ٧) مادة: (ب د ع).

يَحْدُثُ من غيرِ أصلٍ سبَقَ، ولا مِثَالٍ احتُذِيَ، ولا أُلِفَ مثلُهُ، وهذا الاسمُ يدخُلُ فيما تخترعُهُ القلوبُ، وفيما تَنْطِقُ به الألسنةُ، وفيما تفعلُهُ الجوارحُ»(١).

إذن: نخلُصُ إلى نتيجةٍ مؤدَّاها: **أنَّ الإبداعَ في اللغةِ**: هو الإتيانُ بجديدٍ لم يُسْبَقْ إليه المُبْدِعُ، ولم يَتقدَّمْ عملَهُ عملٌ يُشْبِهُهُ كيما يَحْتَذِيَهُ؛ ولذا **قال الكَفَويُّ**: «الإبداعُ لُغةً: عِبارةٌ عن عَدَمِ النَّظيرِ»(٢).

أمَّا مِنْ حيثُ الاصطلاحُ: فإنَّ الإبداعَ مصطلحٌ قديمٌ استَعْمَلَهُ العلماءُ في عباراتِهم؛ **قال الثعالبيُّ في بديعِ الزَّمَانِ الهَمَذَانيِّ**: «وكان يُتَرْجِمُ ما يُقتَرَحُ عليه من الأبياتِ الفارسيَّةِ، المشتملةِ على المعاني الغريبةِ بالأبياتِ العربيَّةِ، فيَجْمَعُ بين الإبداعِ والإسراعِ»(٣).

وقال الخالِديَّان: «وهذان الشريجانِ(٤) هما اللذانِ فَتَحا لِلْمُحْدَثِينَ بابَ المعاني فدخلوه، وأنهجوا لهم طُرُقَ الإبداعِ فسلكوه»(٥).

وقال الموفَّقُ عبدُ اللطيفِ في ابنِ الجوزيِّ: «وأما السجعُ الوعظيُّ فله فيه مَلَكةٌ قويَّةٌ، إنِ ارتَجَلَ أجادَ، وإنْ رَوَى أبدعَ!»(٦).

ويُطلَقُ الإبداعُ عندَ البلاغيِّين ويرادُ به شيئان؛ أحدُهما: أن يَخْتَرِعَ

---

(١) «الباعِث، على إنكار البدع والحوادث» (ص٨٦) ناقلًا عن الطرطوشي.

(٢) «الكليات» (٢٩).

(٣) «يتيمة الدهر» (٤/ ٢٥٧).

وقال أيضًا في شعر ابن لنكك: «وكذلك ابن لنكك إذا قال البيت والبيتين والثلاثة أغرَبَ بما جَلَب، وأبدَعَ فيما صَنَع». المصدر نفسه (٢/ ٤٠٧).

(٤) **الشريجان**: لونان مختلطان من كل شيء. «المخصَّص» (٦/ ٦١)، و«تاج العروس» (٦/ ٦١)، **والمراد بهما هنا**: القدماء والمُخَضْرَمون من الشعراء.

(٥) حماسة الخالديين: «الأشباه والنظائر» (١/ ١).

(٦) «تاريخ الإسلام» (٤٢/ ٣٠٣)، و«ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٤٨٤).

المتكلِّمُ معانيَ لم يُسْبَقْ إليها، **والثاني**: أن يأتيَ في البيتِ الواحدِ، أو في القطعةِ الواحدةِ من النثرِ، أو في الكلمةِ الواحدةِ: ضربانِ من البديعِ، ومتى لم يَكُنْ كذلك فليسَ بإبداعٍ؛ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤][(١)].

أمَّا في العصرِ الحاضرِ: فقد كَثُرَ الخلافُ والجَدَلُ حولَ وضعِ حَدٍّ لهذا المصطلحِ، لا سيَّما في الغربِ ـ لأنهم قد سَبَقُونا إلى بحثِهِ وتقديمِ الدراساتِ فيه ـ فعلى سبيل المثالِ: أُقِيمَتْ في جامعةِ (يُوتَا) مؤتمراتٌ عدةٌ حولَ موضوعِ الإبداعِ، طُرِحَ فيه أكثرُ من مئةِ تعريفٍ للإبداعِ!![(٢)].

وإذا كان لا بُدَّ من وضعِ تعريفٍ للإبداعِ فإنني أقولُ: إن الإبداعَ: هو مَلَكَةٌ يتأتَّى من خِلَالِها اكتشافُ شيءٍ جديدٍ، لم يُسبَقْ إليه المُبْدِعُ[(٣)].

والخلاصةُ: أنَّ المعنى الكُلِّيَّ للإبداعِ لا بدَّ أن تتوافرَ فيه ثلاثُ صفاتٍ أساسيةٍ؛ هي:

١ ـ **الجِدَّةُ**: فالمُنْتَجُ الإبداعيُّ أو العملُ الإبداعيُّ لا بدَّ أنْ يكونَ شيئًا مُخْتَلِفًا عن المألوفِ.

٢ ـ **الفاعليَّةُ**: فالمنتَجُ الإبداعيُّ ـ بصرفِ النظرِ عن نوعِهِ ـ لا بدَّ أنْ يُحقِّقَ هدفًا على أرضِ الواقعِ؛ وهذا الهدفُ قد يكونُ علميًّا، أو جماليًّا، وقد يكون ماديًّا.

---

(١) **انظر**: «خزانة الأدب» لابن حِجَّة الحموي (٢/ ٢٩١)، و«معجم البلاغة العربية» لبدوي طبانة (ص٦٢ ـ ٦٤).

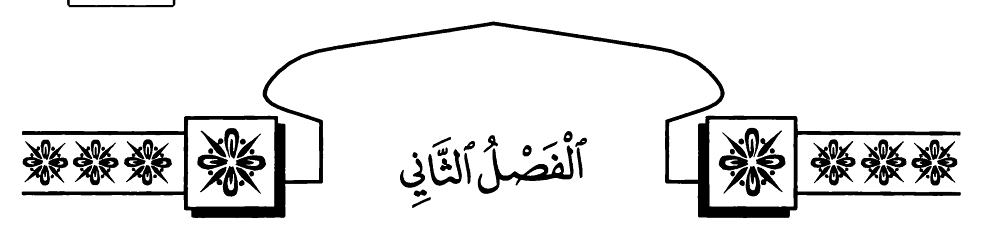
(٢) **انظر**: «الإبداع في الفن والعلم» للدكتور حسن أحمد عيسى (ص١٧).

(٣) **إنما قلنا**: ملَكَة؛ لأن الملَكَة هي الصِّفَةُ الرَّاسخة في النفس، أو الاستعدادُ العقليُّ الخاصُّ، لتناولِ أعمالٍ معيَّنةٍ بِحِذْقٍ ومَهَارَة.

٣ ـ **الأخلاقيةُ**: فالإبداعُ ينبغي أن يَلْتزِمَ بالقواعدِ الأخلاقيةِ؛ فلا يُستَخْدَمُ مصطلحُ الإبداعِ لوصفِ السلوكِ الهَدَّامِ، أو الجرائمِ، أو إثارةِ الشَّغْبِ والفتنِ، أو ما أشبَهَ ذلك، **أي**: أنه لا إبداعَ في الشرِّ[١].

❁ ❁ ❁

(١) «الإبداع في التربية والتعليم» لآرثر كروبلي، ترجمة: د. إبراهيم الحارثي ومحمد مقبل (ص١٠ ـ ١١)، بتصرف.



الفصل الثاني

حقيقة الإنسان المبدع

ظلَّ الناسُ لفترةٍ طويلةٍ من الزَّمَنِ يَنْظُرون إلى المُبْدِعِ على أنه إنسانٌ يَتميَّزُ بقُدُراتٍ خَارِقَةٍ واستعداداتٍ عقليَّةٍ جَبَّارةٍ تُمَيِّزُهُ عن سَائِرِ البَشَرِ، وقد طَرَحَ عُلَماءُ النَّفْسِ هذا التصورَ جانبًا، وبدؤوا يَنْظُرون إلى قُدُراتِ المُبْدِعينَ نَظْرَتَهم إلى سائرِ القُدُراتِ والاستعداداتِ التي يَتَّصِفُ بها سائرُ الناسِ؛ مثلُ الذَّكَاءِ والمُيُولِ وسِمَاتِ الشخصيَّةِ[١].

ذلك لأنَّ الناسَ يَمْتَلكُونَ جميعًا القُدُراتِ والمُؤَهِّلاتِ، ولكنْ بِقَدْرٍ يتفاوتُ من شخصٍ إلى آخرَ، فالفُرُوقُ الموجودةُ هي فُروقٌ كَمِّيَّةٌ وليستْ كيفيَّةً، لكنَّها تختلفُ وتَتَمايزُ فيما بينها من شخصٍ لآخرَ مِنْ حيثُ الكميَّةُ والاستغلالُ والقُدْرَةُ والنُّضْجُ... إلخ.

ولهذا نجدُ أنَّ بعضَ العلماءِ قد يَنْبُغُ في عِلمٍ دون عِلمٍ، وقد يُبرِّزُ في فَنٍّ دونَ فَنٍّ؛ لأنَّ العلومَ ليستْ سواءً؛ فهناك فنٌّ يحتاجُ إلى الحِفْظِ أكثرَ من الفَهْمِ، وهناك فنٌّ عكسُهُ، وهناك فنٌّ يحتاجُ إلى الأمرَيْنِ جميعًا، وآخَرُ يحتاجُ إلى الملاحظةِ والتأمُّلِ، وآخَرُ يَعْتَمِدُ على الاستقراءِ والتتبُّعِ،، وهكذا.

وإنْ كانتِ العلومُ في الجملةِ تعُودُ إلى الأصلَيْنِ الأساسَيْنِ: الحفظِ أو الفَهْمِ، أو **إليهما معًا**.

---

(١) **انظر**: «الإبداع في الفن والعلم» للدكتور حسن أحمد عيسى (ص١٦).

فعلى هذا: ينبغي للإنسانِ ـ وإنْ كان قليلَ العِلْـمِ، أو ضعيفَ القابليَّةِ له، أو محدودَ المَوَاهِبِ والمُؤهِّلاتِ ـ ألَّا يَيْأَسَ ولا يَستسلِمَ للإحباطِ والقُنُوطِ، بَلْ عليه أن يَجِدَّ ويَجْتهِدَ، ويُثابِرَ ويَعْمَلَ بعزيمةٍ وتصميمٍ، فإذا لم يجدْ نفسَهُ في علمٍ فلْيَبْحثْ عن نفسِهِ في علمٍ آخرَ، وإن لم يجدْ نفسَهُ في مجالٍ فليبحثْ عنها في مجالٍ آخرَ، حتى وإنْ كان ذلك العِلمُ أو المَجَالُ أقلَّ من غيرِهِ!

وفي هذا يقولُ الصُّوليُّ[١]: «وليس يَجِبُ لِمَنْ صَفِرَ في هذه العُلومِ أنْ يَدَعَ التَّعلُّمَ آيِسًا مِنَ الاستفادةِ، مولِّيًا عن الاستزادةِ، فربَّما كان الإنسانُ مهيَّأَ الذِّهْنِ لحملِ العِلْمِ، قريبَ الخاطرِ، مُتَّقِدَ الذَّكَاءِ، فيُضِيعُ نفسَهُ بإهمالِها، ويُمِيتُ خواطرَهُ بتركِ استعمالِها، **فيكونُ كما قال عليُّ بنُ الجَهْمِ**:

وَالنَّارُ فِي أَحْجَارِهَا مَخْبُوءَةٌ ... لَيْسَتْ تُرَى إِنْ لَمْ تُثِرْهَا الأَزْنُدُ»

كما ينبغي للإنسانِ أن يُحاولَ جَهْدَهُ ما استطاعَ، ولا يَنْظُرَ للنتيجةِ؛ **كما قال أبو رِيَاشٍ القيسيُّ**[٢]:

عَلَيَّ التَّقَلُّبُ وَالاضْطِرَا ... بُ جَهْدِي وَلَيْسَ عَلَيَّ النَّجَاحُ

وهناكَ كثيرٌ من العلماءِ تَحوَّلُوا من فنٍّ لم يُفْلِحُوا فيه إلى فنٍّ آخَرَ، فنَبَغوا وبَرَّزوا؛ إذِ الشأنُ هنا هو في اكتشافِ الإنسانِ نَفْسَهُ، ومعرفتِهِ مواهبَهُ وقُدُراتِهِ مُبكِّرًا، وذلكَ بدراسةِ حالِهِ واستشارةِ غيرِهِ، لا سيَّما أساتذتُهُ وخواصُّ أصحابِهِ، كما حصَلَ للأصمعيِّ مع شيخِهِ الخليلِ بنِ أحمدَ الفَرَاهِيدِيِّ؛ فإنَّ الأصمعيَّ من علماءِ اللغةِ الكبارِ، لكنَّه ما أفلَحَ في عِلْمِ العَرُوضِ، فنَبَّهَهُ الخليلُ إلى أنه لا يصلُحُ لهذا العِلْمِ تنبيهًا لطيفًا؛

---

(١) في «أدب الكُتَّاب» (ص٢٧).

(٢) كما في «معجم الأدباء» للحموي (١/ ١٨٤).

فانصَرَفَ عنه[١].

وقد لا يصلُحُ الإنسانُ للعِلْمِ النَّظَريِّ، لكنه يصلُحُ للعِلْمِ العَمَليِّ؛ أو العكسُ، كما حصَلَ لأديسون مثلًا ـ أشهرِ مخترعٍ أمريكيٍّ ـ فقد فُصِلَ من المدرسةِ لأنَّ مُدرِّسيهِ قالوا: إنه أَبْلَهُ، ضعيفُ العقلِ، لا يصلُحُ للتَّعلُّمِ، وتَكهَّنَ الأطباءُ بجنونِهِ نظرًا لشكلِ رَأْسِهِ الغريبِ! فترَكَ المدرسةَ قَسْرًا، عِلْمًا بأنه لم يَبْقَ في التعليمِ الرسميِّ سوى ثلاثةِ أشهرٍ فقط! ثم اتجه للعملِ الميكانيكيِّ فنبَغَ فيه، حتى سُجِّلَ باسمِهِ ما مجموعُهُ (١٠٩٣) اختراعًا!![٢].



---

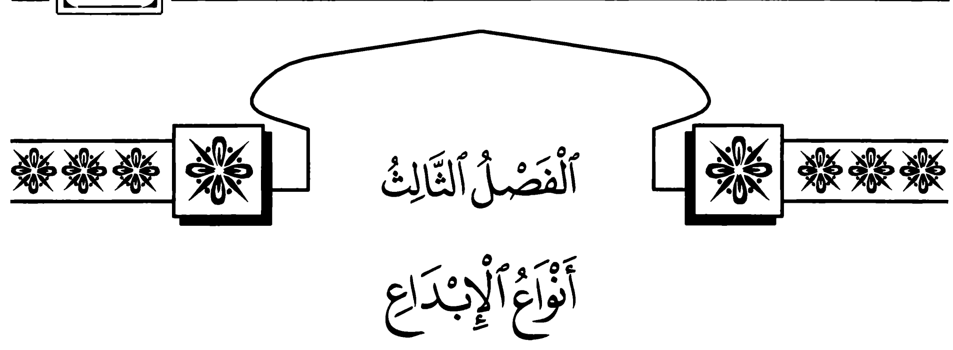
(١) **انظر**: «الخصائص» لابن جني (١/ ٣٦٢)، و«في علمي العروض والقافية» لأمين السيد (ص٢٠).

وفي «التذكرة الحمدونية» (٨/ ٣١٢)، و«محاضرات الأدباء» (١/ ٦٧)، جاءت القصة منسوبة ليونس، وليس للأصمعي.

(٢) منها مُشَغِّلُ الأسطوانات، والمِصْباح الكهربائي الذي أضاء الدنيا، وبطارية السيارة، ومسجِّل الصوت، وأسلوب مبتكر لعمل المَطَّاطِ الصناعيِّ من النباتاتِ ذاتِ القُضْبانِ الذهبية، وتصميمُ محطَّة كهربائية هي الأولى في العالم.

إضافةً إلى ذلك فإنه حَسَّنَ اختراعاتِ الآخرين، ومنها: الهاتف، والآلة الكاتبة، والمولِّد الكهربائي، والقِطَار الكهربائي، وكاد يَخْتَرِعُ المِذْياع، وتنبَّأ باستعمال الطاقة الذرية.

انظر: «الموسوعة العربية العالمية» (أديسون)، و«هكذا علَّمني وردزورث»، لابن عَقِيل الظاهري (ص١٣٥).



الْفَصْلُ الثَّالِثُ

أَنْوَاعُ الْإِبْدَاعِ

الإبداعُ نوعان:

النوعُ الأولُ: تأسيسُ شيءٍ عن شيءٍ، **أي**: تأليفُ شيءٍ جديدٍ عن عناصرَ موجودةٍ سابقًا؛ كالإبداعِ في العلمِ مثلًا.

النوعُ الثاني: إيجادُ شيءٍ مِنْ لا شيءٍ؛ كإبداعِ الباريءِ تبارَكَ وتعالى، فهو ليس بتركيبٍ ولا تأليفٍ، وإنما هو إخراجٌ من العَدَمِ إلى الوجودِ؛ كما في قوله وتعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧]؛ **أي**: خالِقُهما لا عنْ مثالٍ سابقٍ.

فإبداعُ المخلوقِ كُلُّهُ من النوعِ الأولِ؛ وهو تأسيسُ الشيءِ عن شيءٍ سابقٍ، وأمَّا الثاني: فمِنْ خصائصِ الباريءِ ﷻ التي لا يُشارِكُهُ فيها أحدٌ؛ ولهذا كان من أسماءِ اللهِ جلَّ وعلا الإضافيةِ: «بديعُ السمـٰواتِ والأرضِ»؛ كما مرَّ في الآيةِ السالفةِ[1].

لذا فإنَّ مِحْوَرَ حديثي سيَنْصَبُّ على النَّوعِ الأولِ؛ وهو الذي في طَوْقِ المخلوقِ وقُدرتِه؛ **وهو**: (الإبداعُ العِلميُّ).

وأرى لِزَامًا عليَّ ـ حينئذٍ ـ أنْ أُفرِّقَ بين مصطلَحاتٍ قد تَلْتبِسُ وقد تَتداخَلُ مع الإبداعِ؛ مثلُ: **العَبْقَريَّةِ، والابتكارِ، والاختراعِ**، وهذه

---

(١) **انظر**: «معتقد أهل السُّنَّة والجماعة في أسماء الله الحسنى» للتميمي (ص١٩٠).

المصطلحاتُ بين معانيها وبين معنى الإبداعِ تقارُبٌ، بَيْدَ أنَّ منها: ما هو أخصُّ من الإبداعِ، ومنها: ما هو أعمُّ.

فمثلًا: **العبقريةُ** بينها وبين الإبداعِ عمومٌ وخصوصٌ مُطْلَقٌ، فكلُّ إبداعٍ عبقريَّةٌ، وليس كلُّ عبقريَّةٍ إبداعًا - بالضَّرورةِ -.

والابتكارُ أخصُّ من الإبداعِ؛ لأنَّ الابتكارَ هو السَّبْقُ إلى الإبداعِ؛ مثلُ ابتكارِ الخليلِ بنِ أحمدَ عِلْمَ العَرُوضِ؛ فإنَّ الخليلَ لم يَسْبِقْهُ أحدٌ إلى ابتكارِ هذا العلمِ، لكنْ عندما جاء الأندلسيُّونَ وطوَّروا هذا الفَنَّ واخْتَرَعُوا المُوشَّحَاتِ، لم يكنْ عملُهم هذا ابتكارًا؛ لأنَّه قد سَبَقَهُم إلى ذلك الخليلُ، فيكونُ عِلْمُ الخليلِ ابتكارًا وإبداعًا معًا، وعِلْمُ الأندلسيِّينَ الذين اختَرَعُوا المُوشَّحَاتِ إبداعًا فقط؛ فالابتكارُ أخصُّ من الإبداعِ - كما سبق - والإبداعُ أعمُّ.

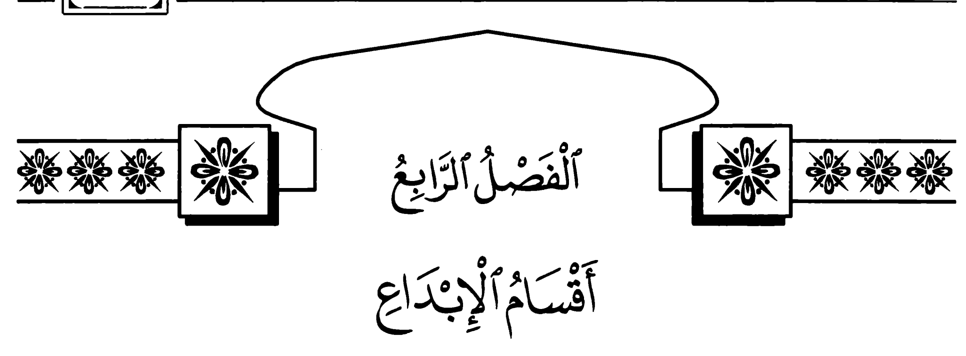
والاختراعُ أيضًا أَخَصُّ؛ لأنه إيجادُ شيءٍ جديدٍ لم يكُنْ، أمَّا الإبداعُ: فقدْ يكونُ بإيجادِ شيءٍ جديدٍ، وقد لا يكونُ - كما سيأتي بعدَ هذا - فيكونُ مرادفًا للإبداعِ من وجهٍ، مُغَايِرًا له من وجهٍ؛ فعلى هذا يكونُ بينهما عمومٌ وخصوصٌ وَجْهِيٌّ[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) نَظَمْتُ هذه المعاني **بقولي**:

إِيـجَـادُ شَـيْءٍ اسْـمُـهُ: اخْـتِـرَاعُ	وَالـكَـشْـفُ عَـنْ أَمْـرٍ هُـوَ: الإِبْـدَاعُ
وَمَـنْ أَتَـى بِـمُـدْهِـشٍ: فَـالْـعَـبْـقَـرِي	وَحَـدُّهُ هَـذَا حَـكَـاهُ الـجَـوْهَـرِي
وَالِابْـتِـكَـارُ: الـسَّـبْـقُ لِـلْـمُـبْـتَـدَعِ	فَـجُـمْـلَـةُ الأَقْـسَـامِ ذِي فَـاحْـفَـظْ وَعِ
وَكُـلُّـهَـا قَـرِيـبَـةٌ فِـي الـمَـعْـنَـى	فَـكُـنْ بِـهَـذَا الأَمْـرِ مِـمَّـنْ يُـعْـنَـى



الفصل الرابع

أقسام الإبداع

ينقسمُ الإبداعُ أقسامًا كثيرةً، وذلك يعودُ لاعتباراتٍ عِدَّةٍ:

*** فينقسمُ الإبداعُ باعتبارِ العملِ ذاتِهِ خمسةَ أقسامٍ:**

الأولُ: أن يكونَ ابتكارًا لشيءٍ لم يَسْبِقْ له نظيرٌ.

الثاني: أن يكونَ تطويرًا لشيءٍ موجودٍ وتحديثًا له.

الثالثُ: أن يكونَ تفسيرًا لشيءٍ غامضٍ، أو حَلًّا لشيءٍ معقَّدٍ.

الرابعُ: قد يَنْتُجُ عن النظرِ إلى شيءٍ معتادٍ ـ لكن من جهةٍ معيَّنةٍ ـ عملٌ إبداعيٌّ، وهذا يكثُرُ عندَ الأُدباءِ والشعراءِ خاصَّةً، كما يوجدُ أيضًا في المَجَالاتِ العِلْميةِ؛ فاكتشافُ (نُيوتن) قانونَ الجاذبيَّةِ بينَ القمرِ والأرضِ إنما كان عن طريقِ مشاهدةِ سقوطِ تُفَّاحةٍ من الشجرةِ! فسقوطُ تفاحةٍ أمرٌ مألوفٌ، لكنَّه نظَرَ له من زاويةٍ خاصَّةٍ؛ فدَلَّهُ على شيءٍ مُخْتَلِفٍ؛ هو قانونُ الجاذبيَّةِ.

الخامس: قد تكونُ إعادةُ ترتيبِ الأشياءِ المألوفةِ بطريقةٍ جديدةٍ مؤدِّيةً لعملٍ إبداعيٍّ[1].

---

(١) رُبَّما دخَلَ في الأعمال الإبداعيَّة أيضًا بعضُ مقاصدِ التأليفِ السبعةِ التي اتفق العلماء على أنَّ العاقل لا يُؤلِّفُ إلا في واحدٍ منها؛ وهي:
١ ـ إمَّا شيءٌ يخترعُهُ لم يُسْبَقْ إليه.
٢ ـ وإمَّا شيءٌ ناقصٌ يُتِمُّهُ.

* **أقسامُ الإبداعِ باعتبارِ الغايةِ والهدفِ:**

وينقسمُ الإبداعُ من حيثُ هدفُهُ وغايتُهُ، **قسمين:**

= ٣ ـ وإمَّا شيءٌ مُستَغْلِقٌ يشرحُهُ.
٤ ـ وإمَّا شيءٌ طويلٌ يختصِرُهُ دون أن يُخِلَّ بشيءٍ من معانيه.
٥ ـ وإمَّا شيءٌ متفرِّقٌ يَجْمَعُهُ.
٦ ـ وإمَّا شيءٌ مُختلِطٌ يُرتِّبُهُ.
٧ ـ وإمَّا شيءٌ أخطأ فيه صاحبهُ يُصْلِحُه.

انظر: «رسالة في فضل الأندلس» لابن حزم «ضمن رسائل ابن حزم» الأندلسي (٢/ ١٨٦)، و«كشف الظنون» لحاجي خليفة (١/ ٣٥)، و«أزهار الرياض» للمَقَّري (٣/ ٣٥)، و«إضاءة الراموس» لابن الطيِّب (٢/ ٢٨٨)، و«المعيد، في أدب المفيد والمستفيد» للعلموي (ص١٦٧).

وقد نظمَها العلامة أحمد بن عبد العزيز الهلالي **بقوله**:

فِي سَبْعَةٍ حَصَرُوا مَقَاصِدَ العُقَلَا مِنَ التَّآلِيفِ فَاحْفَظْهَا تَنَلْ أَمَلَا
أَبْدِعْ تَمَامَ بَيَانٍ لِاخْتِصَارِكَ فِي جَمْعٍ وَرَتِّبْ وَأَصْلِحْ يَا أَخِي الخَلَلَا

انظر: «متن ألفية الحافظ العراقي» للشيخ عبد الله الحكمي (القسم الدراسي) (ص٢٥)؛ كما نظمها بعضهم **بقوله**:

أَلَا فَاعْلَمَنْ أَنَّ التَّآلِيفَ سَبْعَةٌ لِكُلِّ لَبِيبٍ في النَّصِيحَةِ خَالِصِ
فَشَرْحٌ لإِغْلَاقٍ، وَتَصْحِيحُ مُخْطِئٍ وَإِبْدَاعُ حَبْرٍ مُقْدِمٍ غَيْرِ نَاكِصِ
وَتَرْتِيبُ مَنْثُورٍ، وَجَمْعُ مُفَرَّقٍ وَتَقْصِيرُ تَطْوِيلٍ، وَتَتْمِيمُ نَاقِصِ

«أزهار الرياض» للمَقَّري (٣/ ٣٥).

وزاد الإمام أبو حيان على هذه المقاصد السبعة ثامنًا: ما هو مبهم فيعيَّن.

وقد نظم ذلك أخونا الدكتور أحمد الحذيفي **فقال**:

وَزَادَ أَبُو حَيَّانَ إِيضَاحَ مُبْهَمٍ فَحَقِّقْ أُصُولَ الْعِلْمِ تَحْقِيقَ فَاحِصِ

وزدتُها تاسعًا وهو: تَمييزُ المُهمَل.

ونظمتُه بقولي:

وزدتُ أنا يا صاح تَمييزَ مُهمَلٍ فهذي تمامُ التسع غير نواقِصِ

حِضِّيضة: **قال ابن العربي**: «لا ينبغي لحصيفٍ، يتصدَّى إلى تصنيفٍ، أن يَعْدِلَ عن غرضين: إما أن يخترعَ معنًى، أو يبتدعَ وضعًا ومَبْنًى ـ حسب ما قرَّرناه في «قانون التأويلْ»، وربطناه في التحصيلِ من الجملِ والتفصيلْ ـ وما سوى هذين الوجهين فهو تسويدُ الورَقْ، والتحلي بحليةِ السَّرَقْ». «عارضة الأحوذي» (١/ ٤).

وانظر: «المنثور في القواعد» للزركشي (١/ ٧٢)، و«فتح المغيث» للسخاوي، تحقيق علي حسين علي (٣/ ٣٢٨).

الأولُ: إبداعٌ نافعٌ؛ **وهو ينقسمُ أيضًا قسمين**:

أ ـ **إبداعٌ عامٌّ**؛ وهذا القسمُ شاملٌ لجميعِ الإنسانيةِ؛ كاختراعِ الحاسبِ الآلِيِّ، ووسائلِ الاتصالاتِ والمواصلاتِ، ومعظمِ الأمورِ الحاجيَّةِ والتَّحسينيَّةِ.

ب ـ **إبداعٌ خاصٌّ**؛ وهذا القسمُ خاصٌّ بفئةٍ معيَّنةٍ من الناسِ؛ كالأَطِبَّاءِ والمهندسينَ، ونحوِهم.

والثاني: إبداعٌ ضارٌّ؛ وهو ما يعودُ بالضَّررِ على الإنسانِ في العَاجِلِ أو الآجِلِ؛ مثلُ: الإبداعِ في بعضِ الأمورِ المحرَّمةِ؛ كتصويرِ ذواتِ الأرواحِ أو نَحْتِها، وعَزْفِ الموسيقا، ونحوِ ذلك؛ فإنَّ هذا شرٌّ كلُّهُ.

وكذلك الحالُ بالنسبةِ لِلْفَلْسَفَةِ وعلومِ ما وراءَ الطبيعةِ الباطلةِ، أو ما يُسمَّى بـ(المِتافِيزِيقا)، كما مال إليه بعضُ العلماءِ؛ كالفارابيِّ ـ الملقَّبِ بالمعلِّمِ الثاني بعدَ أَرِسطُو الملقَّبِ بالمعلِّمِ الأولِ!! ـ فقد كان نابغةً ولا شَكَّ في جملةٍ من العلومِ؛ حيثُ كان يَعْرِفُ سبعينَ لسانًا، حاذقًا للفلسفةِ، عارِفًا بالموسيقا[١]؛ فمثلُ هذا لا شكَّ أنه مُبْدِعٌ، لكنْ في مجالِ الشرِّ[٢].

---

(١) **قال عنه شيخ الإسلام ابن تيميَّة**: «كان بارعًا فى الغناء الذي يسمُّونه الموسيقا، وله فيه طريقة عند أهل صناعة الغناء، وحكايتُهُ مع ابن حَمْدان مشهورة؛ لمَّا ضرَبَ فأبكاهم، ثم أضحَكَهُمْ، ثم نوَّمهم، ثم خرَجَ!». «مجموع الفتاوى» (١١/ ٥٧٠).
وانظر الحكاية المشار إليها في: «وفيات الأعيان» (٥/ ١٥٥ ـ ١٥٦)، وقد ذكر فيه أن من اختراعاته الآلة الموسيقية المسماة بـ(القانون).

(٢) **قال الذهبي**: «له تصانيف مشهورة، مَنِ ابتغى الهدى منها ضلَّ وحار، منها تخرَّج ابن سينا، نسأل الله التوفيق!». «السير» (١٥/ ٤١٧).

كذلك فإنَّ من الإبداعِ في الشرِّ: اختراعَ (أَسْلِحَةِ الدَّمَارِ الشاملِ)، تلك الأسلحةُ العمياءُ التي تُهلِكُ الحَرْثَ والنَّسْلَ، ولا تُفرِّقُ بين المُقاتِلِ وغيرِ المُقاتِلِ، ولا بينَ صغيرٍ وكبيرٍ.

وهناك إبداعٌ في أمورٍ تافِهةٍ لا فائدةَ مِنْ وَرَائِها، أقلُّ ما يُقالُ فيها: إنها مَضْيَعةٌ للوقتِ والجهدِ بلا طائلٍ؛ كَمِثْلِ صَنِيعِ ذلك الرَّجُلِ الذي دخَلَ على الخليفةِ هارونَ الرشيدِ، **فقال**: «إنِّي أصنعُ ما تَعْجزُ الخلائقُ عنه! فقال الرشيدُ: هاتِ؛ فأخرَجَ أنبوبةً فصَبَّ منها إبرًا عِدةً، ثم وضَعَ واحدةً في الأرضِ، وقام على قدَمَيْهِ، وجعَلَ يرمي إبرةً إبرةً مِنْ قامتِهِ، فتقعُ كلُّ إبرةٍ في عَيْنِ الإبرةِ الموضوعةِ، حتى فرَغَ دَسْتُهُ؛ فأمَرَ الرشيدُ بضربِهِ مئةَ سوطٍ، ثم أمَرَ له بمئةِ دينارٍ! فسُئِلَ عن جمعِهِ بين الكرامةِ والهوانِ؟ فقال: وَصَلْتُهُ لجودةِ ذَكَائِهِ، وأدَّبْتُهُ لكي لا يَصْرِفَ فَرْطَ ذكائِهِ في الفضولِ!»[1].

فالمقصودُ: أنَّ هذا فيه نوعُ إبداعٍ، لكنَّه فيما لا ينفعُ ولا يُجْدِي.

*** أقسامُ الإبداعِ باعتبارِ القُوَّةِ والتمكُّنِ:**

ينقسمُ الإبداعُ مِنْ حيثُ القُوَّةُ والتمكُّنُ **قسمَيْنِ أيضًا**:

الأول: إبداعٌ عسيرٌ.

والثاني: إبداعٌ يسيرٌ.

فالإبداعُ العسيرُ: يكونُ في الأمورِ التي يكونُ فيها إبداعٌ وابتكارٌ معًا؛ كالإنسانِ الذي يَسْبِقُ إلى شيءٍ لم يَسْبِقْ إليه غيرُهُ؛ كما تقدَّم في الكلامِ عن اختراعِ علْمِ العَرُوضِ، والمِصْباحِ الكهربائيِّ.

---

(١) «مجاني الأدب، في حدائق العرب» (٢/ ١٤٩).

قلت: ومن هذه البابة: ما يفعله لاعبو (السِّيرك)، وأصحابُ الحَرَكات (البَهْلَوانية)؛ فما أحراهم بسوط هارون مِنْ صاحب الإِبَر!!

والإبداعُ اليسيرُ: كالإنسانِ الذي يُرتِّبُ أشياءَ موجودةً سَلَفًا، فَيَتوصَّلُ بذلك إلى اختراعِ شيءٍ جديدٍ؛ وهذا الإبداعُ سمَّيناه يسيرًا بالنظرِ إلى قَسِيمِهِ الأولِ؛ وإلَّا فكلُّ إبداعٍ هو وليدُ معاناةٍ وجهدٍ.

*** أقسامُ الإبداعِ باعتبارِ المصدرِ:**

ينقسمُ الإبداعُ باعتبارِ المصدرِ **قسمَيْن**:

الأوَّل: إبداعٌ عامٌّ.

والثاني: إبداعٌ خاصٌّ.

فالعامُّ: هو الذي لا يَقْتَصِرُ ابتكارُهُ على شخصٍ بعينِهِ، وإنَّما يُنْسَبُ لفئةٍ أو طائفةٍ أو أُمَّةٍ، كما يُقالُ مثلًا: أبدَعَ المسلمون حَضَارةً رَاقِيَةً في الأندلسِ، فليستْ هذه الحضارةُ منسوبةً لشخصٍ واحدٍ، وإنَّما هي عامَّةٌ، وكما يقالُ: اليابانيون مُبْدِعُونَ في برامجِ التكنولوجيا والحاسباتِ الآليةِ، ، وهكذا.

والخاصُّ: هو ما كان منشؤُهُ مِنْ شخصٍ بعينِهِ؛ كإبداعِ الشافعيِّ في علمِ الأصولِ، وإبداعِ الخليلِ في علمِ العَرُوضِ، ونحوِ ذلك.

والخلاصةُ: **أنه ينبغي التنبيهُ هنا على خمسةِ أمورٍ**:

الأول: أنَّ هذا التقسيمَ هو ما أَوْصَلَني إليه اجتهادي؛ **وإلَّا فإنَّ هناك اجتهاداتٍ أُخرى في التقسيمِ**:

فبعضُهم: يُقسِّمُ الإبداعَ إلى إبداعٍ فِعْليٍّ، وإبداعٍ كامنٍ.

وبعضُهم: يجعلُ مستوياتِ الإبداعِ **خمسَ مستوياتٍ**: التعبيريَّ، والإنتاجيَّ، والاختراعيَّ، والإبداعيَّ، والبُزوغيَّ.

الثاني: لا يلزمُ من الإبداعِ في فنٍّ مَا الإبداعُ في جميعِ الفنونِ، حتى ولو كانتْ تلك الفنونُ مُتَرابِطةً، بل لا يلزمُ الإبداعُ في جميعِ

مَبَاحثِ الفنِّ الواحدِ للشخصِ الواحدِ؛ كتخصُّصاتِ الطِّبِّ أو الهندسةِ مثلًا[١]؛ فقد يُبْدِعُ الإنسانُ في فنٍّ دُونَ فنٍّ، وقد يُبْدِعُ في جانبٍ واحدٍ مِنْ ذلك الفنِّ فقط.

فالنوويُّ لم يُفْتَحْ عليه في علمِ الطِّبِّ، والغزاليُّ لم يُفْتَحْ عليه في علمِ النحوِ، وابنُ حَزْمٍ في الهندسةِ والعَدَدِ، ، وهكذا[٢].

وكذا السُّيُوطيُّ فإنه يُعَدُّ مُبْدِعًا في علومٍ كثيرةٍ، لكنَّه لم يُفْلِحْ في علمِ الحسابِ، **حتى قال عن نفسِهِ**: «وأمَّا علمُ الحسابِ: فهو أَعْسَرُ شيءٍ عليَّ، وأبعدُهُ عن ذهني، وإذا نَظَرْتُ في مسألةٍ تَتعلَّقُ به فكأنما أُحاولُ جَبَلًا أَحْمِلُهُ!»[٣].

وهناك مَنْ كان إمامًا في فَنِّهِ؛ كالفقهِ، والقراءاتِ. . . إلخ، لكنه ضعيفٌ في الحديثِ، وهم كُثُرٌ[٤].

بَلْ في الفنونِ المتلاحمةِ التي يَجْمَعُها رباطٌ واحدٌ، قد يُبْدِعُ الإنسانُ في فَنٍّ منها دُونَ فنٍّ، فالأصمعيُّ في حفظِ اللغةِ آبِدِها وشارِدِها والتفنُّنِ في علومِها يُعَدُّ مُبْدِعًا، لكنَّه لم يُفلِحْ في علمِ العَرُوضِ ـ كما تقدَّم ـ وهو أحدُ علومِ اللغةِ.

وأبو مسلمٍ النَّحْويُّ كان من أعيانِ النحاةِ؛ فلمَّا أَحْدَثَ الناسُ التصريفَ، لم يُحْسِنْهُ وأَنْكَرَهُ![٥].

---

(١) هذا يخضَعُ لتفسيراتٍ عِدَّةٍ ليس هذا مَحَلَّ بسطها.

(٢) **انظر**: «ابن حزم» لمحمد أبو زهرة (ص٩٥)، و«حلية طالب العلم» لبكر أبو زيد (ص٥٨).

(٣) «حسن المحاضرة» (١/ ٣٣٩).

(٤) **منهم**: أبو حنيفة في الفقه، وعاصم بن أبي النَّجُود، وأحمد بن محمَّد البَزِّيُّ في القراءات.

(٥) ذكَرَتِ المصادرُ **أنه قال يَذُمُّ علم التصريف**: =

بل ربَّما في الملَكَةِ الواحدةِ، أو الفنِّ الواحدِ، قد يُبرِّزُ الإنسانُ في جانبٍ منه دونَ جانبٍ؛ **كما قال الشَّعْبيُّ**: «دُهَاةُ العَرَبِ أربعةٌ: معاويةُ، وعَمْرٌو، والمُغِيرةُ، وزِيَادٌ، فأمَّا معاويةُ: فللأناةِ والحِلْمِ، وأمَّا عَمْرٌو: فللمُعْضِلاتِ، وأمَّا المغيرةُ: فللمُبادَهَةِ، وأمَّا زِيادٌ: فللصغيرِ والكبيرِ!»[1].

وقال الفَرَّاءُ: «مات الكِسَائيُّ وهو لا يُحْسِنُ حَدَّ (نِعْمَ)، و(بِئْس)، و(أَنَّ المفتوحةِ)، و(الحكايةِ)، ولم يكنِ الخليلُ يُحْسِنُ (النداءَ)، ولا سيبويهِ يَدْرِي حدَّ (التعجُّبِ)!»[2].

وقال الفَرَّاءُ أيضًا: «أموتُ وفي نفسي شيءٌ من (حَتَّى)؛ لأنها تَخْفِضُ وتَرْفَعُ وتَنْصِبُ!»[3].

وكذا أديسُون فقد صَرَّح بأنه لم يَفْهَمْ نظريَّة النِّسْبِيَّةِ!

ولا شكَّ أنَّ هؤلاءِ جميعًا في عدادِ المُبْدِعين[4].

= قَدْ كَانَ أَخْذُهُمُ في النَّحْوِ يُعْجِبُنِي ... حَتَّى تَعَاطَوْا كَلَامَ الزَّنْجِ وَالرُّومِ

لَمَّا سَمِعْتُ كَلَامًا لَسْتُ أَفْهَمُهُ ... كَأَنَّهُ زَجَلُ الغِرْبَانِ وَالبُومِ

تَرَكْتُ نَحْوَهُمُ وَاللَّهُ يَعْصِمُنِي ... مِنَ التَّقَحُّمِ في تِلْكَ الجَرَائِيمِ!!

فأجابه معاذ بن مسلم الهَرَّاء:

عَالَجْتَهَا أَمْرَدَ حَتَّى إِذَا ... شِبْتَ وَلَمْ تُحْسِنْ أَبَا جَادِهَا

سَمَّيْتَ مَنْ يَعْرِفُهَا جَاهِلًا ... يُصْدِرُهَا مِنْ بَعْدِ إِيرَادِهَا

سَهَّلَ مِنْهَا كُلَّ مُسْتَصْعَبٍ ... طَوْدٌ عَلَا أَقْرَانَ أَطْوَادِهَا!

انظر: «طبقات النحويين واللغويين» للزُّبَيْدي (ص١٢٥)، و«بغية الوعاة» (٢/ ٢٩٠ - ٢٩٢).

(١) «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (ص٦٩٠)، و«أسد الغابة» لابن الأثير (٤/ ١٨١)، و«السير» للذهبي (٣/ ٥٨)، و«النجوم الزاهرة» للأتابكي (١/ ٧٢).

(٢) «بغية الوعاة» (٢/ ١٦٣).

(٣) «مرآة الجنان» لليافعي (حوادث سنة ٢٠٧هـ).

(٤) **لطيفة**: قيل: إنَّ الحريريَّ عَمِلَ المقامات أربعين مَقَامةً، وأتى بها بغداد، فقال بعضُ الأدباء: هذه لرجل مغربيٍّ مات بالبصرة، فادَّعاها الحريري! فسأله الوزير عن صناعته؟ =

الثالثُ: كما لا يلزمُ من العَبْقريةِ الإبداعُ، فلا يلزمُ في المُقابِلِ أنْ يكونَ المُبْدِعُ عَبْقريًّا في كلِّ أحوالِهِ وأُمُورِهِ، بحيثُ يكونُ خاليًا من العُيوبِ الذِّهْنيَّةِ؛ كسوءِ الحفظِ، أو الغَفْلةِ، أو غيرِ ذلك.

فقد يكونُ العالمُ مُبْدِعًا في فنٍّ مَّا، لكنَّه ضعيفُ الحفظِ مثلًا، أو فيه غَفْلةٌ، أو له طباعٌ غريبةٌ مُسْتَنْكَرةٌ لا تليقُ بشخصٍ في مثلِ منزلتِهِ؛ ولهذا قيلَ: «إنَّ بين العَبْقريَّةِ والجُنُونِ شَعْرةً»!

ومن أمثلةِ ذلك: شرفُ الدينِ بنُ أبي بكرٍ المعروفُ بابنِ المُقْرِئِ، المتوفَّى سنةَ (٨٣٧هـ)، مُؤلِّفُ كتابِ «عُنْوانِ الشَّرَفِ الوافي»[1]، **فقد**

= فقال: الأَدَبُ، فاقتَرَحَ عليه إنشاءَ رسالةٍ في واقعةٍ عيَّنها، فانفَرَدَ وقعَدَ زمانًا لم يُفْتَحْ عليه بما يكتبه، فقام خجلًا.

فقال فيه علي بن أَفْلَح الشاعر:

شَـيْـخٌ لَـنَـا مِـنْ رَبِـيـعَـةِ الـفَـرَسِ ... يَـنْـتِـفُ عُـثْـنُـونَـهُ مِـنَ الـهَـوَسِ

أَنْـطَـقَـهُ الـلَّـهُ بِـالـمُـشَـانِ كَـمَـا ... رَمَـاهُ وَسْـطَ الـدِّيـوَانِ بِـالـخَـرَسِ

ـ وكان يُذْكَرُ أنه من ربيعة الفرس، وكان يعبث بلحيته ـ فلمَّا رجع إلى بلده، كمَّلها خمسين، وأرسلها إلى الوزير، واعتَذَرَ عن عِيِّهِ بالهَيْبَة. وقيل: بل كره المقامةَ ببغداد، فتجاهل. **انظر**: «سير أعلام النبلاء» (١٩/ ٤٦٤).

(١) كتابٌ واحدٌ ذكَرَ فيه خمسةَ علوم؛ **هي**: الفقه، والتاريخ، والنحو، والعَرُوض، والقوافي، بطريقة فريدة عجيبة، ومِنْ فضلِ الله أنَّ الكتابَ قد طبع بنفس الترتيب ـ تقريبًا ـ الذي وضعه عليه مؤلِّفه، بعناية الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري رحمه الله تعالى.

قال ابن العماد: «وهو كتابٌ حَسَنٌ لم يُسْبَقْ إلى مثله يحتوي على خمسة فنون، **وفيه يقول بعضهم**:

لَـهَـذَا كِـتَـابٌ لَا يُـصَـنَّـفُ مِـثْـلُـهُ ... لِصَاحِبِهِ الجُزْءُ العَظِيمُ مِنَ الحَظِّ

عَـرُوضٌ وَتَـارِيـخٌ وَنَـحْـوٌ مُـحَـقَّـقٌ ... وَعِلْمُ القَوَافِي وَهْوَ فِقْهُ أُولِي الحِفْظِ

فَـأَعْـجِـبْ بِـهِ حُـسْـنًـا وَأَعْـجَـبُ أَنَّـهُ ... بَطِينٌ مِنَ المَعْنَى خَمِيصٌ مِنَ اللَّفْظِ!

وذكر السخاوي أن سبب تأليفه أنه كان يَطْمَعُ في قضاء الأقضية، بعد المَجْد الشيرازي، صاحب (القاموس)، ويتحامل عليه، بحيث إنَّ المجدَ عمل للسلطان الأشرف صاحب اليمن كتابًا، أولُ كلِّ سطرٍ منه أَلِفٌ، فاستعظمه السلطان، فعملَ =

قال الخَزْرَجيُّ عنه: «إنه كان يَتوقَّدُ ذَكَاءً»[١]، **وقال الشَّوْكانيُّ**: «كان مُنفرِدًا بالذكاءِ وقُوَّةِ الفَهْمِ، وله في هذا الشأنِ عجائبُ وغرائبُ لا يَقْدِرُ عليها غَيْرُهُ»[٢].

ومع هذا الذَّكَاءِ كلِّهِ، فقد كان ينسى كثيرًا، حتى إنَّه ما كان يَذْكُرُ ما حصَلَ منه في أولِ اليومِ! وقد ذكر السخاوي أنه نسي ألفَ دينارٍ بِزِنْبِيلٍ ثُمَّ وقَعَ عليه بعدَ مُدَّةٍ اتفاقًا فَتَذَكَّرَهُ، قال: وحالُهُ لا تقتضي

= الشَّرَفُ هذا كتابه هذا، والتزَمَ أن يَخْرُجَ من أوله وآخره وأوسطه علومٌ غير الفقه، الذي وُضِعَ الكتاب له، لكنه لم يتمَّ في حياة الأشرف، فقدَّمه لولده الناصر، فوقع عنده، وعند سائر علماء عصره ببلده موقعًا عجيبًا.

لذا فقد قلَّده العلماء وحَذَوْا حذوه فيه، **منهم**:

- الحافظ السيوطي **حيث قال**: «وقد عملتُ كتابًا على هذا النمط في كراسة في يوم واحد!! وسميته: «النفحة المسكيَّة، والتحفة المكيَّة»».
- وصنَّف القاضي بدر الدين محمد بن محمد، المعروف بابن كُمَيْل الدِّمْياطي (ت٨٧٨هـ) على نمط: «عنوان الشرف» بزيادة عِلْمَيْن.
- ويوسف بن أحمد بن ناصر بن خليفة الباعوني المقدسي الشافعيّ، ثم الصالحي الدمشقيّ، (ت٨٨٠هـ) شرَعَ في عمل كتابٍ على نمط «عنوان الشرف الوافي» بزيادة علم الهندسة، فكتَبَ منه أوراقًا وتركه.
- وألّف أحمد بن عبد الرزَّاق بن محمد بن أحمد المغربي الرشيديّ (ت١٠٩٦هـ) أيضًا: «تيجان العنوان»، منظومةً على نمط «عنوان الشرف الوافي».
- كما صنَّف أحمد بن عبد الله السلمي الأصابي المتوفى بعد (١١١٨هـ) كتاب: «الإعلان، بنعم الله الوهاب الكريم المنان» على منوال: «عنوان الشرف الوافي».
- ومنهم: عبد الله بن محمد الأقحصاري، الرومي، المعروف بقاضي عسكر إيران، والملقَّب بوصاف (ت١١٧٤هـ)، له رسالة في الفقه والحكمة والمنطق والكلام والنحو وغير ذلك، وضعها على أسلوب «عنوان الشرف الوافي» لابن المقرئ.

انظر: «شذرات الذهب» (٩/ ٣٢١)، و«المنهل الصافي» (٢/ ٣٨٧)، وكشف الظنون» (٢/ ١١٧٥)، و«البدر الطالع» (١/ ٣٣١)، و«الأعلام» (١/ ١٤٥) و(١/ ١٦٢) و(٨/ ٢١٥)، و«معجم المؤلفين» (٦/ ١١٠).

(١) «العقود اللؤلؤية» في تاريخ الدولة الرسولية (٢/ ٢٦٤).

(٢) **انظر**: «مقدمة عنوان الشرف» (ص٧ فما بعدها)، «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» (١/ ١٤٤).

نسيانَ ما دُونَ هذا؛ فكيف بهذا القَدْرِ؟![1].

ومنهم: عليُّ بنُ عيسى الرَّبَعيُّ المتوفَّى سنةَ (٤٣٠هـ) ـ أحدُ النُّحاةِ الكبارِ، صاحبُ كتابِ «البَدِيعِ» في النحوِ، وشارحُ «كتابِ سيبويهِ» بما لم يُشرَحْ بمثلِهِ، ووارثُ عِلْمِ أبي عليٍّ الفارسيِّ؛ حيثُ لازمه عشرين سنةً ـ **قال فيه الجَوَاليقيُّ**: «كان يَحفَظُ الكثيرَ من أشعارِ العَرَبِ، مما لم يكنْ غيرُهُ يقومُ به، إلَّا أنَّ جنونَهُ لم يكنْ يَدَعُهُ يَتمكَّنُ منه أحدٌ في الأخذِ عنه!».

ومن خَبَرِهِ: أنَّ بعضَ بني رِضْوانَ سأله يومًا في مجلسِهِ عن مسألةٍ، فأجابه، فنازَعَهُ في الجوابِ، فقام مِنْ فَوْرِهِ مغضبًا، ودخل بيتَهُ، وأخَذَ شرحَهُ لكتابِ سيبويهِ وغَسَلَهُ، وصار يَلْطِمُ بورقِهِ الحِيطَانَ، ويقولُ: لا أَجْعَلُ أولادَ البَقَّالينَ نُحاةً!

وقد كان مبتلًى بقتلِ الكِلَابِ! سأل يومًا أولادَ الأكابرِ الذين يَحْضُرُونَ مجلسَهُ أن يَمْضُوا معه إلى كلواذيِّ، فظنوا أنَّ له حاجةً، فركبوا خيولًا وخَرَجوا، وخرَجَ ماشيًا ومعه كساءٌ وعَصًا إلى كلبٍ هناك، فعدا نحوه، والكَلْبُ يَثِبُ عليه تارةً، ويَهْرُبُ منه أخرى، حتى أعياه، وعاونوه حتى أمسكوه، وعَضَّ الكَلْبَ بأسنانِهِ عضًّا شديدًا، والكلبُ يستغيثُ ويَزْعَقُ، فما تركه حتى اشتفى! وقال: هذا عَضَّني منذُ أيامٍ، وأَرَدتُ أن أخالفَ **قولَ الأولِ**:

شَاتَمَنِي كَلْبُ بَنِي مِسْمَعٍ ... فَصُنْتُ عَنْهُ النَّفْسَ وَالعِرْضَا

وَلَمْ أُجِبْهُ لِاحْتِقَارِي لَهُ ... مَنْ ذَا يَعَضُّ الكَلْبَ إِنْ عَضَّا![2]

---

(١) المصدر نفسه (ص١٠)، «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» (٢/ ٢٩٥).

(٢) **انظر خبره في**: «معجم الأدباء» للحَمَوي (٤/ ١٨٢٩)، و«البُلْغة» للفيروزآبادي (١/ ٤٥)، و«بغية الوعاة» للسيوطي (٢/ ١٨١).

وكذلك: أبو عليٍّ الشَّلَوْبِينُ ـ إمامُ عصرِهِ في العربيةِ بلا مُدَافِعٍ ـ كانت فيه غَفْلةٌ، فقد قعَدَ يومًا إلى جانبِ نهرٍ فسَقَطَ فيه كُرَّاسٌ، فجَرَّهُ بآخَرَ فتلِفَا جميعًا![١].

وهذا: حَجِّي بنُ موسى الشافعيُّ المتوفَّى سنةَ (٧٨٢هـ)، كان غَوَّاصًا نقَّالًا عارفًا بحلِّ المُشْكِلاتِ، صحيحَ الفهمِ، سريعَ الإدراكِ، ومع ذلك فقد كان سَاذَجًا في أحوالِ الدنيا، لا يَعْرِفُ صِحَّةَ عَشَرةٍ من عشرينَ، ولا يُحْسِنُ بُرَايةَ قلمٍ، ولا تكويرَ عِمَامةٍ![٢].

ومن المُبْدِعِينَ: عبقريُّ الأدباءِ ـ كما يُسمَّى ـ فُولْتير، كان لا يَبْدَأُ بالكتابةِ إلا عندما يَضَعُ أمامَهُ مجموعةً من أقلامِ الرصاصِ لا تَقِلُّ عن اثْنَيْ عَشَرَ قلمًا، وبعدَ أن ينتهيَ من الكتابةِ يُكسِّرُها ويَلُفُّها في الورقةِ التي كان يكتُبُ عليها ويَضَعُها تحتَ وسادتِهِ عندما ينامُ![٣].

وكذلك: الشاعرُ (شيلّي)، كان يأكلُ وينسى أنه أَكَلَ، ويَغْلِبُهُ النُّعَاسُ في النهارِ، فينامُ في أيِّ مكانٍ كالطِّفْلِ!

ومثلُهُ: أَدِيسُون، فقد كان ينسى اسمَهُ، وينسى أنه أَكَلَ!.

ومثلُهُ: (شَارْلِز دِيكِنْز) ـ القاصُّ الإنجليزيُّ المشهورُ ـ كان يُغادرُ مَنْزِلَهُ في وَسَطِ الظلامِ، ويَتِيهُ في شوارعِ لندنَ كالمجنونِ، قاطعًا مسافةَ خمسةَ عَشَرَ إلى عشرينَ مِيلًا دُونَ مَأْرَبٍ![٤].

فالمقصودُ: أنه لا يَلْزَمُ أن يكونَ المُبْدِعُ عبقريًّا في جميعِ شؤونِهِ، أو أن يكونَ مُتوازِنًا فيها جميعًا.

---

(١) «بغية الوعاة» للسيوطي (٢/ ٢٢٥).

(٢) «الدرر الكامنة» (٢/ ٦).

(٣) «هكذا علمني وردزورث» لابن عَقِيل الظاهري (ص١٣٣).

(٤) المرجع نفسه.

الرابعُ: لا يلزمُ أنْ تظهرَ عَلَاماتُ التفوُّقِ في الشخصِ منذُ الصِّغَرِ، فقد يَنْبُغُ الشخصُ على حين كِبَرٍ، وهذا يطغى فيه جانبُ العقلِ المسموعِ، أكثرَ من العقلِ المطبوعِ؛ كما سيأتي قريبًا.

فالكسائيُّ مثلًا تَعَلَّمَ النحوَ، ونبَغَ فيه بِأَخَرَةٍ من عُمُرِهِ؛ وذلك بسببِ أنَّه لُحِّنَ في كلمةٍ! فأَنِفَ من ذلك، وقام مِنْ فَوْرِهِ بالطلبِ والتحصيلِ، وجَدَّ وثابَرَ، حتى صار إمامَ النحويِّينَ في الكوفةِ[١].

كذلك: فإن النابغةَ الذُّبْيانيَّ والنابغةَ الجَعْديَّ ـ الشاعرَيْنِ المشهورَيْن ـ لم يُلقَّبَا بهذه الألقابِ إلَّا لنبوغِهما المتأخِّرِ![٢].

وهذا الكاتبُ الرُّوسيُّ الشهيرُ (تُولِسْتُوي) فَشِلَ في دراستِهِ صغيرًا، وعَجَزَ مدرِّسوه الخصوصيُّون عن إدخالِ أيِّ علمٍ في جُمْجُمَتِهِ، ثم نبَغَ بعدَ الثلاثينَ![٣].

الخامسُ: أنَّ المُبْدِعِينَ المتميِّزينَ في تاريخِ الأممِ والحضاراتِ هم أقلُّ القليلِ، فإذا ما تأمَّلْنا مثلًا كتبَ السِّيَرِ والتراجمِ، وَجَدْنا أنَّ طُلَّابَ العلمِ فيها يُعَدُّونَ بالآلافِ[٤]، لكنَّ العلماءَ النّوابغَ الذين تُخرِجُهم تلك المدارسُ يُعدّون بالمئاتِ فقط، ثم إذا ما اطَّرَحْتَ منهم الحُفَّاظَ والنَّقَلَةَ الذين تَجرَّدوا عن التجديدِ والابتكارِ والإبداعِ لم يَبْقَ معك إلَّا النزرُ القليلُ!

وهذا ما أشار إليه الحديثُ الذي رواه مسلمٌ عن ابنِ عُمَرَ مرفوعًا:

---

(١) **انظر**: «بغية الوعاة» (٢/ ١٦٣).

(٢) **انظر**: «الشعر والشعراء» لابن قتيبة (ص٨٣)، و«الأعلام» (٧/ ٢٠٧).

(٣) «هكذا علمني وردزورث» لابن عقيل الظاهري (ص١٣٥).

(٤) ربَّما بلغ عدد المدارس في بعض المدن الإسلامية في العصور الإسلامية الزاهرة ـ خصوصًا في القرون السبعة الأولى ـ خمس مئة مدرسة!!

(تَجِدُونَ النَّاسَ كَإِبِلٍ مِئَةٍ، لَا يَجِدُ الرَّجُلُ فِيهَا رَاحِلَةً)(١).

ولو تَصفَّحْتَ كتابًا مثلَ «تاريخِ دِمَشْقَ» لابنِ عساكرَ(٢)، أو «تاريخِ الإسلامِ» للذَّهَبيِّ(٣)، أو كتابِ «الوافي بالوَفَيَاتِ» للصَّفَدِيِّ(٤) ـ: وَجَدتَّ صِدقَ ما أقولُ.

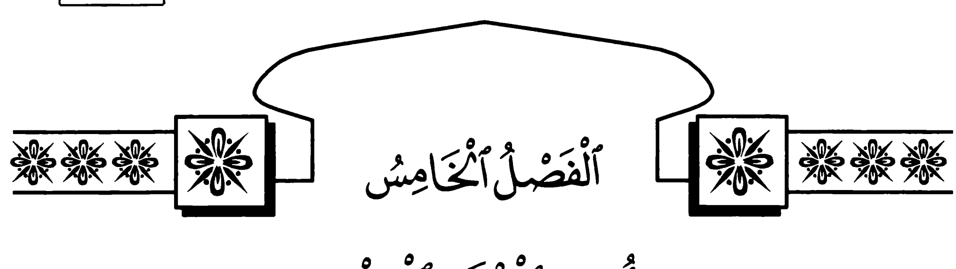


(١) «صحيح مسلم»، كتاب: فضائل الصحابة، باب قوله ﷺ: **«النَّاسُ كَإِبِلٍ مِئَةٍ...»** (٤/١٩٧٣) (٢٥٤٧).

(٢) المطبوع في ٨٠ مجلدة!

(٣) المطبوع في أكثر من ٥٠ مجلدة!

(٤) قيل: إنه أوسع كتابٍ في التراجم، حيث ذكروا أنه حَوَى ترجمَةَ أربعةَ عشَرَ ألفَ نفسٍ، وانتهى فيه إلى سنة (٧٠٠هـ)، وقد طُبعَ منه تسعةٌ وعشرون مجلَّدًا حسبما وقفت عليه.



الفَصْلُ الخَامِسُ

أُسُسُ الإِبْدَاعِ العِلْمِيِّ

أُسُسُ الإبداعِ العِلْميِّ لا بُدَّ مِنْ وجودِها في كلِّ شخصٍ مُبْدِعٍ، ولا يُتصوَّرُ وجودُ مُبْدِعٍ دُونَها، وهذه الأسسُ هي:

أ ـ القُوَّةُ العَقْلِيَّةُ.

ب ـ القُوَّةُ النَّفسِيَّةُ.

ج ـ القُوَّةُ الجَسَدِيَّةُ.

وإليكَ الكلامَ عليها بالتفصيلِ:

أ ـ القُوَّةُ العَقْلِيَّةُ:

هذه هي أهمُّ الأُسُسِ كلِّها، والبقيَّةُ تَبَعٌ لها، فلا بُدَّ مِنْ تَوفُّرِ هذه القُدْرةِ في الإنسانِ المُبْدِعِ، وعلى قَدْرِها يَتميَّزُ العملُ الإبداعيُّ قُوَّةً وضَعْفًا.

والعبقريةُ هي أعلى المستوياتِ مِنَ القُدُراتِ العقليةِ المعرفيةِ، أو بتعبيرٍ آخَرَ: هي أعلى درجاتِ الذكاءِ بالإضافةِ لمكوِّناتِها، وقد وضَعَ علماءُ التربيةِ مستوياتٍ متدرِّجةً للذكاءِ، تبدأُ من المعتوهِ (أقل من ٢٠ درجةً)، وتنتهي بالعبقريِّ (أعلى من ١٤٠ درجةً).

والعباقرةُ أيضًا لهم دَرَجاتٌ، وأعلى درجةٍ للعبقريةِ اكتُشِفَتْ

ـ حتى الآنَ ـ هي ٣٠٠ درجةٍ![١].

وهناك تفسيراتٌ عِدَّةٌ لهذه القُوَّةِ ـ **أعني**: العبقريَّةَ ـ بعضُها فيه نوعُ غَرَابةٍ، فمنهم مَنْ يقولُ: إنَّ العبقريَّةَ حالةٌ مَرَضيَّةٌ شاذَّةٌ تصيبُ بعضَ الأفرادِ! ومنهم مَنْ يرى: أنها محاولةٌ لتعويضِ جانبِ النَّقْصِ في الإنسانِ بطريقٍ غيرِ مُباشِرٍ! ومنهم من يَرَى: أنها خاضعةٌ لعواملَ متعدِّدةٍ؛ هي العواملُ البيئيةُ والوِرَاثيةُ والشخصيَّةُ، وهذه النظريَّةُ ـ كما يرى الدكتورُ مقدادُ يالجِن ـ هي أَصَحُّ نظريَّةٍ قِيلَتْ في تفسيرِ العبقريَّةِ حتى الآنَ[٢].

فهي وِرَاثيَّةٌ بالدرجةِ الأولى، كَسْبيَّةٌ بالدرجةِ الثانيةِ، ومعنى (كسبيَّةٍ)، **أي**: أنها تُنالُ بالتحصيلِ والمثابرةِ.

فعاملُ الوِرَاثةِ هو ما يُسمَّى عندَ المتقدِّمين: (العقلَ المطبوعَ)، أو (الغَرِيزِيَّ)، وعاملُ الكَسْبِ هو ما يسمَّى عندَهم: (العقلَ المسموعَ)، أو (المستفادَ)؛ وقد جَمَعَهما بعضُهم[٣] **بقولِهِ**:

رَأَيْتُ الْعَقْلَ عَقْلَيْنِ ... فَمَطْبُوعٌ وَمَسْمُوعُ
وَلَا يَنْفَعُ مَسْمُوعٌ ... إِذَا لَمْ يَكُ مَطْبُوعُ
كَمَا لَا تَنْفَعُ الشَّمْسُ ... وَضَوْءُ الْعَيْنِ مَمْنُوعُ

والمعنى: أنَّ الشمسَ كما لا يَنْتفِعُ بها الأعمى، فكذلكَ لا يَنْتفِعُ الإنسانُ بالعقلِ المسموعِ إذا تَجرَّدَ عن العقلِ المطبوعِ.

---

(١) «الطريق إلى العبقرية» مقداد يالجن (ص١٧ ـ ١٨) بتصرف.

(٢) المصدر نفسه (ص١٨ ـ ١٩).

(٣) تنسب هذه الأبيات لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، فالله أعلم.

انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (١/ ٨٦)، و«الذريعة، إلى مكارم الشريعة» للأصفهاني (ص٩٣ ـ ٩٤)، و«أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص٣٥)، و«غذاء الألباب» للسفاريني (٢/ ٤٦٩).

فالعقلُ المسموعُ هو ما يَكْتَسِبُهُ الشخصُ بِجِدِّهِ واجتهادِهِ الشخصيِّ، وذلك بالمُثابرةِ على طَلَبِ العلمِ، والقراءةِ الواسعةِ المركَّزةِ، ومجالسةِ العلماءِ، وتَأَمُّلِ سِيَرِهم وأحوالِهم، وهذا أمرٌ واضحٌ؛ ولهذا فقد عرّف أديسون العبقريةَ بأنها ١٪ إلهامٌ، و٩٩٪ جهدٌ![1].

ويقولُ رئيسُ باكستان الأسبقُ محمَّد علي جَنَاح: «أَحْسِبُ أني لن أُصبِحَ شيئًا مذكورًا في الدنيا بغيرِ القراءةِ»!

وهذا كلُّهُ يزيدُ في العقلِ المسموعِ جَوْدةً وصَفَاءً وقُوَّةً، لكنَّ ذلك لا يَتِمُّ إلا باختيارِ العِلْمِ الذي يُناسِبُ الشخصَ، **كما قال ابنُ حَزْمٍ:** «العلومُ الغامضةُ كالدواءِ القَوِيِّ يُصْلِحُ الأجسادَ القويَّةَ، ويُهلِكُ الأجسادَ الضعيفةَ، وكذلك العلومُ الغامضةُ، تَزِيدُ العقلَ القويَّ جَوْدةً وتُصفِّيهِ من كلِّ آفةٍ، وتُهلِكُ ذا العقلِ الضعيفِ!»[2].

وأهمُّ عاملٍ مِنَ القُدُراتِ العقليةِ في عمليةِ الإبداعِ: هو قوَّةُ التفكيرِ والتأمُّلِ؛ **ذلك لأنَّ الدماغَ يحوي ثلاثَ قُوىً:**

- **القوةَ الحافظةَ:** وهي استحكامُ المعقولِ في العقلِ.
- **القوةَ الذَّاكرةَ:** وهي مُحَاوَلةُ العقلِ استرجاعَ المعلوماتِ.
- **القوةَ المفكِّرةَ:** وهي مُحَاوَلةُ العقلِ الرَّبْطَ بين المقدِّماتِ والنتائجِ[3].

---

(١) «الموسوعة العربية العالمية»: (أديسون).

(٢) «مداواة النفوس» لابن حزم (ص٢٣).

(٣) **انظر:** «التوقيف، على مهمات التعريف» للمناوي (ص٥٩٢)، و«الكليات» للكَفَوي (ص٦٧).

وقد اختلَفَ العلماء قديمًا في مكان العقل: هل هو في القلب، أو في الدماغ، أو أنه يتعلَّق بهما معًا؟ **والصَّوَاب:** القول الثالث؛ كما فصَّل ذلك ابن تيمية رحمه الله تعالى والله أعلم.

=

وأهمُّها هي القُوَّةُ المفكِّرةُ، والقُوَى الأُخْرَى عواملُ مساعدةٌ فحَسْبُ.

وبما أنَّ العقلَ بِقسْمَيْهِ المطبوعِ والمسموعِ يَتبوَّأُ هذه المنزلةَ في العملِ الإبداعيِّ، فقد ضَلَّ مَنْ ضَلَّ بسببِ غُلُوِّهم فيه، وجَعْلِهم إياهُ في منزلةٍ أعلى من المنزلةِ التي جعَلَهُ اللهُ فيها، حتى وصَلَ الأمرُ بِبَعْضِهم إلى أنْ أَلَّهَ العقلَ ثُمَّ عَبَدَهُ! أو اتخذه نبيًّا وإمامًا، وجعَلَ له السِّيَادةَ المطلقةَ! وقدَّمه على كلِّ شيءٍ حتى على نصوصِ الوحيَيْنِ! كما هو الشأنُ في فِرَقِ الاعتزالِ والتجهُّمِ وغيرِها، وكذلك فعلَ الفلاسفةُ، سواءٌ المتقدِّمون منهم أو المتأخِّرون، حتى إنَّ أحدَ زنادقةِ الإسلامِ ـ كذا وصفَهُ ابنُ الجوزيِّ ـ وهو أبو العَلَاءِ المَعَرِّيُّ، **يقولُ**[1]:

أَيُّهَا الْغِرُّ إِنْ رُزِقْتَ بِعَقْلٍ فَاسْأَلَنْهُ فَكُلُّ عَقْلٍ نَبِيُّ!

ويقولُ أيضًا[2]:

يَرْتَجِي النَّاسُ أَنْ يَقُومَ إِمَامٌ نَاطِقٌ فِي الْكَتِيبَةِ الْخَرْسَاءِ
كَذَبَ الظَّنُّ لَا إِمَامَ سِوَى الْعَقْـ ـلِ مُشِيرًا فِي صُبْحِهِ وَالمَسَاءِ!

وقد رَكِبَ هذا التيارَ وروَّجَ له ثُلَّةٌ من الوضَّاعينَ، فوَضَعوا على لسانِ المصطفى ﷺ أحاديثَ تُشِيدُ بالعقلِ، وتَرْفَعُ منزلتَهُ، حتى قال الحُفَّاظُ ـ كالإمامِ ابنِ حِبَّانَ، والدَّارَقُطْنيِّ والعُقَيْليِّ، وأبي الفتحِ الأَزْديِّ، والعِرَاقيِّ،

= **انظر**: «الأُمْنيَّة، في إدراك النيَّة» للقرافي (ص١٧)، و«مجموع الفتاوى» (٩/ ٣٠٣)، و«شرح الكوكب المنير» لابن النَّجَّار (١/ ٨٣ فما بعد)، وفي حواشيه مصادر المسألة.

(١) «اللزوميات» (٢/ ٦٤٢).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٦٦)، وارْجِعْ ـ إنْ شئتَ المزيد ـ إلى كتاب «قصَّة الفَلْسفة» لديُورَانت، أو «العقل والمادَّة» لراسْل، أو كتاب «نافذَة على فلسفة العصر» لزكي نجيب محمود، تجدْ أن هناك من يُؤَلِّه العقل! عياذًا بالله من ذلك!!

وابنِ القَيِّمِ، والقَارِي، وغيرِهم ـ: إنه لا يَصِحُّ في (العقلِ) حديثٌ مطلقًا[1].

۞ **والذي ينبغي معرفتُهُ هنا، هو:** أنَّ الإسلامَ يَحْتَرِمُ العقلَ، ويحترمُ جميعَ الطاقاتِ والمَلَكاتِ التي وَهَبَها اللهُ تبارَكَ وتعالى الإنسانَ، وجَعَلَهَا في بَدَنِهِ؛ لأنَّها نِعْمةٌ من اللهِ جلَّ وعلا، لكنَّه يَضَعُها في مَكَانِها المناسبِ؛ فلا يَبْخَسُها حقَّها، ولا يُعْطِيها أكثَرَ مِنْ قَدْرِها.

ولهذا احتَرَمَ الإسلامُ العقلَ، فجعَلَهُ مناطَ التكليفِ، ففي كثيرٍ من الآياتِ ـ كآياتِ القِصَاصِ، والطلاقِ، وتحريمِ الخمرِ، والمَيْسِرِ، وغيرِها ـ نَجِدُ أنها تُخْتَمُ بقولِهِ: ﴿تَعْقِلُونَ﴾، أو ﴿يَتَدَبَّرُونَ﴾، أو ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، إلى غيرِ ذلك.

كما حَدَّدَ مَجَالَهُ أيضًا وَفْقَ قُدْرَتِهِ وطاقتِهِ؛ فوَجَّهَهُ إلى التأمُّلِ في مَلَكُوتِ السمٰواتِ والأرضِ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ الآياتِ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١][2].

كما أنَّه لم يُعطِّلْهُ كما عَطَّلَهُ مَنْ لا عقلَ له؛ كالصوفيَّةِ ومتعصِّبةِ الفقهاءِ مثلًا؛ فالإسلامُ وقَفَ مَوْقِفَ التوسُّطِ بين مُفْرِطٍ ومُفرِّطٍ؛ فأولئك غَلَوْا فيه وأَلَّهُوهُ أو جعَلُوهُ نبيًّا وجعلوا له السِّيادةَ المُطْلَقةَ، وهؤلاءِ أَلْغَوْهُ تمامًا، وجعلوا استعمالَهُ فيما خُلِقَ له جُرْمًا لا يُقَرُّ، وذَنْبًا لا يُغْفَرُ[3]!!

---

(١) **انظر:** «المَنَار المُنِيف» لابن القيِّم (ص٦٦)، و«الأسرار المرفوعة» للقاري (ص٤٢١)، و«الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص٤١١).

(٢) **انظر:** «منهج التربية الإسلامية» لمحمد قطب (١/٧٦ فما بعد).

(٣) كما سيأتي في الحديث عن إغلاق باب الاجتهاد، وقصة العالم المسكين حسن بن حسين الأسكوبي الذي قتله إبداعه!

ب ـ القُوَّةُ النَّفْسِيَّةُ:

هذه الصِّفةُ هي الأساسُ الثاني مِنْ أُسُسِ الإبداعِ العلميِّ التي يجبُ أنْ تكونَ ركيزةً في الإنسانِ المُبْدِعِ؛ إذْ لا بُدَّ أنْ يَتَّصِفَ المُبْدِعُ بقوةِ النفسِ العِلْميَّةِ والعَمَليَّةِ، والمرادُ بها: قُوَّةُ الثباتِ والإرادةِ والتصميمِ والمثابرةِ والنُّزوعِ إلى الكمالِ.

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: «النَّفْسُ لها قوتان: قوةٌ علميَّةٌ نَظَريَّةٌ، وقوةٌ إراديَّةٌ عَمَليَّةٌ؛ فلا بُدَّ لها مِنْ كمالِ القوتَيْنِ لمعرفةِ اللهِ وعبادتِهِ»[1].

وقريبٌ منه قولُ ابنِ القيِّم: «إنَّ الكمالَ: أن يكونَ الشخصُ كاملًا في نفسِهِ، مُكمِّلًا لغيرِهِ، وكمالُهُ بإصلاحِ قوتَيْهِ العِلْميةِ والعَمَليةِ؛ فصلاحُ القوةِ العِلْميةِ بالإيمانِ، وصلاحُ القوةِ العَمَليةِ بعملِ الصالحاتِ...»[2].

وهذه القوى النفسيةُ[3] ناتجةٌ عن صِفَاتٍ ضروريَّةٍ لا بُدَّ أنْ تتصفَ النفسُ بها حتى تتكوَّنَ تلك القوى، وبِقَدْرِ تلك الصفاتِ تكونُ قوةُ النَّفْسِ وضَعْفُها، كما أنها ناتجةٌ أيضًا عن دَوَافعَ وصفاتٍ تَدْفَعُ النَّفْسَ إلى مَزِيدِ جِدٍّ واجتهادٍ، ومثابرةٍ وتَصميمٍ.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٩/١٣٦).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/٥٦).

(٣) نظَمَ ابن سينا القوى النفسيَّة بقوله:

تِسْعُ قُوًى تُحْسَبُ لِلنَّفْسِيَّهْ ... الْخَمْسُ مِنْهَا لِلْقُوَى الحِسِّيَّهْ
السَّمْعُ وَالإِبْصَارُ ثُمَّ الشَّمُّ ... وَالذَّوْقُ وَاللَّمْسُ الَّذِي يَعُمُّ
وَقُوَّةٌ فِي العَضَلَاتِ وَاصِلَهْ ... بِهَا يُحَرِّكُ الفَتَى مَفَاصِلَهْ
وَقُوَّةٌ تَخَيُّلِ الأَشْيَاءِ ... فِيهَا كَمَا يَكُونُ فِي المَرَائِي
وَقُوَّةٌ بِهَا يَكُونُ الفِكْرُ ... وَقُوَّةٌ بِهَا يَكُونُ الذِّكْرُ

«الأرجوزة في الطب» (ص٩٩) ضمن كتاب: من مؤلَّفات ابن سينا الطبية، ولا يخفى أن مراده قوى الجسم كلِّها، وليس هذا هو مرادي هنا.

• ومِنْ أَهَمِّ تلك الصِّفاتِ والدوافعِ: **حبُّ الشيءِ، والرَّغْبةُ الشديدةُ فيه، واستحكامُ الإرادةِ في طلبِهِ**: وقد أدركَتْ هذا المعنى أُمُّ سُفْيانَ الثَّوْريِّ **عندما قالتْ له**: «اذْهَبْ فاطْلُبِ العِلْمَ حتى أَعُولَكَ بِمِغْزَلي هذا، فإذا كتَبْتَ عِدَّةَ عَشَرَةِ أحاديثَ، فانْظُرْ: هل تَجِدُ في نفسِكَ زيادةً فاتبعْهُ؛ وإلَّا فلا تَتَعَنَّ»[1].

وكما أَدْرَكَهُ أيضًا يحيى بنُ مجاهدٍ الفَزَارِيُّ الزَّاهدُ **حينما قال**: «هذا أَوَانُ طَلَبي للعلمِ؛ إذْ قَوِيَ فَهْمي، واسْتَحْكَمَتْ إرادتي»[2]؛ فقد جعَلَ استحكامَ الإرادةِ بدايةً للطلبِ النَّاضِجِ، وهذا هو أوانُ الطلبِ على التحقيقِ.

• ومِنْ تلك الصِّفَاتِ: **الشجاعةُ الأدبيةُ**:

فلا بُدَّ أن تكونَ لدى المُبْدعِ الشجاعةُ الكافيةُ؛ لأنَّ الإبداعَ في حَدِّ ذاتِهِ هو شيءٌ جديدٌ على الناسِ، والشيءُ الجديدُ لا تَأْلَفُهُ النُّفوسُ ولا تَقبَلُهُ العقولُ إلَّا بعدَ جهدٍ ومَشَقَّةٍ وزمنٍ طويلٍ، وهذه هي طبيعةُ الأشياءِ المبتكرةِ والجديدةِ؛ **كما قال أحمدُ شوقي**[3]:

وَالنَّـاسُ فِـي عَـدَاوَةِ الـجَـدِيـدِ   وَقَـبْـضَـةُ الأَوْهَـامِ مِـنْ حَـدِيـدِ!

فالخليلُ لَمَّا اختَرَعَ عِلْمَ العَرُوضِ، واجَهَ استغرابًا شديدًا حتى من أقربِ الناسِ إليه! فقد رُوِيَ عنه أنه خلا في بيتٍ، ووضَعَ بين يديهِ طَسْتًا أو ما أشبَهَ الطَّسْتَ، فجعَلَ يَقْرَعُهُ بِعُودٍ **ويقولُ**: فَاعِلُنْ/ مُسْتَفْعِلُنْ/ فَعُولُنْ، قال: فسَمِعَهُ أخوه، فخرَجَ إلى المسجدِ، فقال: إنَّ أخي قد أصابَهُ

(١) «السير» للذهبي (٧/ ٢٦٩).
(٢) «جَذْوة المقتبس» للحُمَيْدي (ص٦٠٥).
(٣) في «دول العرب وعظماء الإسلام» (ص٢٨).

جنونٌ! فأدخَلَهُمْ عليه وهو يضربُ الطَّسْتَ، فقالوا: يا أبا عبدِ الرحمٰنِ، ما لك؟ أصابَكَ شيءٌ؟ أتُحِبُّ أن نعالجَكَ؟ فقال: وما ذاك؟ قالوا: أخوك زعَمَ أنك قد خُولِطْتَ؟! **فأنشأ يقولُ:**

لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا أَقُولُ عَذَرْتَنِي   أَوْ كُنْتُ أَجْهَلُ مَا تَقُولُ عَذَلْتُكَا
لَكِنْ جَهِلْتَ مَقَالَتِي فَعَذَلْتَنِي   وَعَلِمْتُ أَنَّكَ جَاهِلٌ فَعَذَرْتُكَا(١)

ولمَّا اخترَعَ جاليليو التِّلِسْكُوبَ وتمكَّن به من رؤيةِ الكواكبِ والأبراجِ السماويةِ، وجَدَ فيه ما يؤيِّدُ رأيَ كُوبِرْنِيكُوس (ت١٥٤٣م) الذي قال: إن الأرضَ تدورُ حولَ الشمسِ، قولةً رأتِ الكنيسةُ أنها تخالفُ الدينَ! أمَّا كوبرنيكوس فقد قضى نَحْبَهُ، وأما جاليليو فقد حاكَمَتْهُ الكنيسةُ وخَيَّرَتْهُ بينَ الموتِ أو التنصُّلِ مِنْ دعواه، فآثَرَ الحياةَ! ولكنَّه قضى بقيةَ عمرِهِ مُعتَزِلًا مهمومًا، حتى مات وهو يُرِدِّدُ: ولكنَّها تَدُورُ!! ولقد خُيِّرَ رفيقٌ له ـ هو برونو ـ فرفضَ التنصُّلَ، فقُتِلَ حَرْقًا بالنارِ!!(٢).

أَبَى أَنْ يُجَارِي النَّاسَ وَاخْتَارَ خُطَّةً   كَمَا شَاءَهَا إِذْ شَاءَهَا لَا يُقَلِّدُ
وَطَبْعُ الْوَرَى طَبْعُ الْقَطِيعِ يَسُرُّهُ   خُضُوعٌ وَيُؤْذِيهِ الجَسُورُ المُجَدِّدُ
وَهَلْ يَسْتَرِيحُ النَّاسُ إِلَّا إِذَا قَضَوْا   عَلَى كُلِّ فَذٍّ حَيْثُمَا يَتَفَرَّدُ(٣)

كما أنَّ الشجاعةَ ضروريةٌ في العملِ ذاتِهِ؛ فإنَّ البحثَ والتَّنْقيبَ والاجتهادَ مرَّةً تلوَ مرَّةٍ، يحتاجُ إلى شجاعةٍ معنويةٍ، تقطعُ التردُّدَ وتنفي الخوفَ والوَجَلَ، وتُعلِّمُ الإقدامَ والمُضِيَّ في العملِ إلى النهايةِ،

---

(١) **انظر:** «معجم الأدباء» (٣/١٢٦٩).

(٢) **انظر:** «مقدمة لتاريخ التفكير العلمي في الإسلام» للدكتور أحمد سليم سعيدان (ص١٠٦).

(٣) «ديوان حديقة الغروب» للقصيبي (ص٣٠).

حتى وإنْ واجهَ صُعُوباتٍ أو مُعْضِلاتٍ في بدايةِ الطريقِ، فلا ينبغي أن يتخلَّى عن عملِهِ حتى يَبْلُغَ الغايةَ المُرْتَجَاةَ؛ لأنَّ إبداعَ العملِ يحتاجُ إلى وقتٍ طويلٍ، وعملٍ دؤوبٍ.

وربَّما انقَطَعَ الإنسانُ في وَسَطِ الطَّريقِ إن لم يكُنْ متحلِّيًا بهذه الشجاعةِ، فعادَ عليه ذلك بالأَسَى والحُزْنِ إنْ كان من ذَوِي الإحساسِ المُرْهَفِ، بل ربَّما قتَلَهُ الغمُّ فمات كَمَدًا.

كما حصَلَ لجماعَةٍ من العلماءِ، منهم سيبويهِ ـ فيما يُحْكَى عنه ـ عَقِبَ مناظرتِهِ الكِسَائيَّ في (المسألةِ الزُّنْبُوريةِ)، فقد قتَلَهُ الهمُّ، مع أنَّ الصوابَ في تلك المُنَاظرةِ كان معه[١].

وكما حدَثَ لِلْخُوَارزْمِيِّ مع بَدِيعِ الزمانِ الهَمَذَانيِّ[٢].

---

(١) **انظر:** «معجم الأدباء» (٥/ ٢١٢٥)، وقد حكم عليها الذهبيُّ بأنها كذب! كما في «السير» (٨/ ٣٥١).
وانظر تفاصيل المناظرة في: «النحو والصرف في مناظرات العلماء ومحاوراتهم» للزاكي (ص٦٦ ـ ٧٨).

(٢) **انظر بعض ما وقع بينهما في:** «معجم الأدباء» (١/ ٢٤٢ فما بعد).
ومما يُستلطف من خبرهما: أنهما كانا في بعض مجالس الرؤساء، فقال الرئيس: **قُولا على هذا النمط:**

بَـرَزَ الـرَّبِـيـعُ لَـنَـا بِـرَوْنَـقِ مَـائِـهِ ... فَـانْـظُـرْ لِـمَـنْـظَـرِ أَرْضِـهِ وَسَـمَـائِـهِ
وَالـتُّـرْبُ بَـيْـنَ مُـمَـسَّـكٍ وَمُـعَـنْـبَـرٍ ... مِـنْ نَـوْرِهِ بَـلْ مَـائِـهِ وَرُوَائِـهِ

ثم أنشد الخوارزميُّ على هذا النمط، فلمَّا فرغ من إنشاده، قال البديع للوزير والرئيس: لو أن رجلًا حلَفَ بالطلاق أنِّي لا أقول شعرًا، ثم نظَمَ تلك الأبيات التي قالها الخوارزمي: هل كنتم تطلِّقون امرأته عليه؟ فقالت الجماعة: لا يقع بهذا طلاقٌ، ثم قلت: انقد عليَّ فيما نظمتُ، واحكم عليه كما حكمتُ، فأخذ الأبياتَ وقال: لا يقال: نظرتُ لكذا، ويقال: نظرتُ إلى كذا، وأنت قلت: فانظر لمنظر، وشَبَّهْتَ الطير بالمُحْصَنات، وهذا تشبيه فاسد، ثم شَبَّهْتَها بالمغنِّيات حين قلت:

وَالـطَّـيْـرُ مِـثْـلُ الـمُـحْـصَـنَـاتِ صَـوَادِحٌ ... مِـثْـلُ الـمُـغَـنِّـي شَـادِيًـا بِـغِـنَـائِـهِ

المحصناتُ كيف توصف بالغناء؟ ثم قلت: «كالبحر في تزخاره والغيث في أمطاره» =

وكما حصَلَ أيضًا للسَّعْدِ التَّفْتَازانيِّ بعد مُناظرةِ الشريفِ الجُرْجَانيِّ(١)، وغيرُهم كثيرٌ.

بل إنَّ الأديبَ اليابانيَّ (ياسْواري كَابَانا) انتَحَرَ؛ لأنه لم يُنْجِزْ أعمالَهُ الأدبيةَ، فهو صاحبُ أكبرِ إنتاجٍ غيرِ مكتملٍ!(٢).

يقولُ إلياس قُنْصُل(٣):

جَرِّدْ مِنَ العَزْمِ سَيْفًا تَسْتَعِينُ بِهِ ... إِنَّ التَّرَدُّدَ بَابُ الضَّعْفِ وَالكَسَلِ

= والغيث هو المطر، فقال البديع: الغيث المطر والسحاب، وصدَّقه الحاضرون، وأنكروا على الخوارزمي.

فقال الإمام أبو الطيِّب: علِّمنا أيُّ الرجلَيْنِ أفضلُ وأشعر، فقام البديع وقبَّل رأس الخوارزمي ويده، وقال: اشهدوا أن الغلبة له ـ قال ذلك على سبيل الاستهزاء ـ وتفرَّق الناس، واشتغلوا بتناول الطعام، وأبو بكر الخوارزمي ينطق عن كبدٍ حَرَّى، والوزير يقول للبديع: مَلَكْتَ فأَسْجِحْ.

فلما قام أبو بكر أشار إلى البديع، وقال: لَأَتْرُكَنَّكَ بين الميمَات، فقال: ما معنى المِيمات؟ فقال: بين مهدوم مهزوم، مغموم محموم، مرجوم محروم! فقال البديع: لأتركنَّكَ بين الهيام والسقام، والسام والبرسام، والجذام والسرسام! وبين السينات: بين منحوس ومنخوس، ومنكوس ومعكوس! وبين الخاءات: بين مطبوخ ومسلوخ، ومشدوخ ومفسوخ وممسوخ! وبين الباءات: بين مغلوب ومسلوب، ومصلوب ومنكوب! فخرج البديعُ وأصحاب الشافعي يعظِّمونه بالتقبيل والاستقبال، والإكرام والإجلال، وما خَرَجَ الخوارزمي حتى غابتِ الشمس، وعاد إلى بيته، وانخزل انخزالًا شديدًا، وانكَسَفَ باله، وانخفض طَرْفُه، ولم يَحُلْ عليه الحولُ حتى خانه عمره، وذلك في شوال سنة ثلاث وثمانين وثلاث مئة!! المصدر نفسه (١/ ٢٤٣ فما بعد).

(١) **قال الشوكاني عن السَّعْد التَّفْتَازاني:** «كان قد اتصل بالسلطان الكبير الطاغية الشهير تَيْمورلَنْك المتقدِّم ذكره، وجرت بينه وبين السيد الشريف الجرجاني المتقدِّم ذكره مناظرة في مجلس السلطان المذكور في مسألة (كون إرادة الانتقام سببًا للغضب، أو الغضبِ سببًا لإرادة الانتقام) فصاحب الترجمة يقول بالأول، والشريف يقول بالثاني، قال الشيخ منصور الكازروني: والحق في جانب الشريف.

وجرت بينهما أيضًا المناظرة المشهورة في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، ويقال: بأنه حكَمَ بأن الحق في ذلك مع الشريف، فاغتمَّ صاحب الترجمة، ومات كمدًا، والله أعلم». «البدر الطالع» (٢/ ٣٠٥).

(٢) «هكذا علمني وردزورث» (ص١٣٦). (٣) «رباعيات مختارة» (ص٨١).

وَالسَّعْيُ حَتَّى وَإِنْ أَفْضَى إِلَى خَطَأٍ ... خَيْرٌ مِنَ الجُبْنِ وَالتَّشْكِيكِ وَالوَجَلِ
سَاءَ الفُتُورُ وَلَوْ سَمَّيْتَهُ حَذَرًا ... مَا أَصْغَرَ الفَرْقَ بَيْنَ المَوْتِ وَالشَّلَلِ
غَارُ الحَيَاةِ لِمَنْ يَبْغِيهِ مُقْتَنِعًا ... مَا مِنْ نَجَاحٍ إِذَا فَكَّرْتَ بِالفَشَلِ!

وكما قال كُشَاجِم[1]:

وَعَلَيَّ أَنْ أَسْعَى وَلَيْـ ... ـسَ عَلَيَّ إِدْرَاكُ النَّجَاحِ[2]

ومرحلةُ الوصولِ إلى الهَدَفِ أو الغايةِ أو ما يُسمِّيها الأُدَباءُ: (الإشراقةَ النَّفْسيةَ)، إنَّما تحصُلُ في الغالبِ بعدَ هذه المَرْحلَةِ المُضْنِيَةِ، كما حصَلَ للشيخِ محمود شاكر في كتابِهِ (المتنبِّي) ـ الذي نال عليه جائزةَ الملكِ فيصلٍ العالميةَ ـ فهو يذكُرُ أنه في أوائلِ ديسمبرَ عامَ (١٩٣٥م) مَرَّ عليه نحوُ أسبوعٍ وهو لا يَجِدُ إلى هدوءِ نفسِهِ مَنْفَذًا، **قال**: «وأخذتُ ديوانَ المتنبِّي مرَّةً خامسةً أقرؤُهُ؛ لا أتوقَّفُ ولا أَمَلُّ ولا أَهْدَأُ، وأنا في خلالِ ذلكَ أُراجِعُ كُلَّ ما في تراجمِ أبي الطَّيِّبِ وبعضِ كتبِ التاريخِ والرِّجَالِ وغيرِها، تبعًا للخواطرِ التي تَنْشَأُ وأنا أقرأُ الأبياتَ أو القصائدَ، وفي فجرِ الثانيَ عَشَرَ من شهرِ رمضانَ صَلَّيْتُ، فلمَّا جئتُ آوي إلى فراشي طار النومُ مِنْ عيني، ومع طيرانِهِ تَبدَّدَ القَتَامُ الذي كان يَلُفُّني، وذَهَبَ التَّعَبُ وما لَقِيتُ من النَّصَبِ، وتجلَّى لي طريقٌ بانَ لي كأني

---

(١) هذا لقبٌ له، **واسمه**: محمود بن الحسين بن نصر، من أهل الرَّمْلة من نواحي فلسطين، لَقَّبَ نفسه «كُشَاجِم»، فسئل عن ذلك فقال: الكاف من كاتب، والشين من شاعر، والألف من أديب، والجيم من جواد، والميم من منجم!
زاد بعضهم في لقبه: كشاجم طخ، الطاء من طباخ، والخاء من.....!!
انظر: «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٥٧/ ١٠٤)، و«بغية الطلب، في تاريخ حلب» لابن العَدِيم (١٠/ ٤٧٤١)، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٦/ ٢٨٥)، و«فوات الوفيات» للصفدي (٤/ ٩٩)، و«أعيان العصر، وأعوان النصر» له (٣/ ١٦٥).

(٢) **انظر**: «المؤتلف والمختلف» لابن القيسراني (ص٨١).

سلكتُهُ من قبلُ مرَّاتٍ، فأنا به خبيرٌ، وأخذتُ الأوراقَ التي كنتُ كتبتُها... فمَزَّقْتُها وأنا على عَجَلةٍ من أمري، ونَبَذْتُها في صندوقِ القُمَامةِ، وأَعْدَدتُّ أوراقي، وجلستُ على مكتبي، وأخذتُ قلمي، وسميتُ بذكرِ اللهِ وكتبتُ... ومضيتُ أكتُبُ كأني أُسطِّرُ ما يُمْلَى عليَّ، لا حَيْرَةَ، ولا بحثَ عن أُسلوبٍ وطريقٍ، ولا تَردُّدَ، ولا هَيْبةَ لشيءٍ، ولا تَحرُّجَ من غَرَابةِ ما أقولُ وما أكتُبُ...» إلخ[1].

• ومِنْ تلك الصفاتِ: **علوُّ الهِمَّةِ**:

وهذا أمرٌ مُهِمٌّ في العملِ الإبداعيِّ؛ لأنه هو المحرِّكُ الداخليُّ الأقوى نحوَ المُثَابَرةِ على العملِ والجِدِّ والاجتهادِ، وبِحَسَبِ هذا الدافعِ تتفاوتُ الطاقةُ الناتجةُ عنه؛ لأنه بمثابةِ الفتيلِ الذي يُفجِّرُ القوةَ الكامنةَ، وإذا ما تذكَّرنا أحدَ القوانينِ الأساسيةِ الثلاثةِ التي يقومُ عليها عِلْمُ الحَرَكةِ أو ما يُسمَّى (الديناميكا)، **والذي يقولُ**: (لكلِّ فِعْلٍ رَدُّ فِعْلٍ، مساوٍ له في المقدارِ، ومُعَاكِسٌ له في التأثيرِ)[2]، ثم طبَّقناه هنا: عَرَفْنا لماذا بلَغ الأمرُ بالإمامِ الشافعيِّ **أنْ يقولَ**[3]:

أَمْطِرِي لُؤْلُؤًا جِبَالَ سَرَنْدِيـ ـبَ وَفِيضِي آبَارَ تَكرُورَ تِبْرَا

(١) «المتنبي» (ص٤٦).

(٢) هذا القانون ينسب خطأً لنيوتن، وقد سبَقَهُ إليه هبة الله بن مَلْكَا البغدادي في كتابه «المعتبر في الحكمة».
انظر: «أعلام الفيزياء في الإسلام» لعبد الله الدفّاع (ص٨٩)، و«موسوعة العلماء والمخترعين» لإبراهيم بدران ومحمد فارس (ص٢٥٢).

(٣) «ديوان الشافعي»، جمع وتحقيق: د. مجاهد بهجت (ص١١٨)، والذي أعدُّه أفضل جمعٍ وتحريرٍ للديوان حسب علمي.
وسرنديب: هي جزيرة أطلَقَ عليها العربُ قديمًا اسم: سيلان، وهي الدولة المسمَّاة الآن: سيرلانكا، وهي مشهورة بالأحجار الكريمة.
أما تكرور: فهي بلاد في غرب إفريقيا حول مالي وغانا.

أَنَا إِنْ عِشْتُ لَسْتُ أَعْدَمُ قُوتًا ... وَإِذَا مِتُّ لَسْتُ أَعْدَمُ قَبْرَا
هِمَّتِي هِمَّةُ الْمُلُوكِ وَنَفْسِي ... نَفْسُ حُرٍّ تَرَى الْمَذَلَّةَ كُفْرَا

ومثلُهُ عليُّ بنُ عبدِ الكافي السُّبْكيُّ حينما قال[(١)]:

لَعَمْرُكَ إِنَّ لي نَفْسًا تَسَامَى ... إِلَى مَا لَمْ يَنَلْ دَارَا بْنُ دَارَا!

وتلك الهمَّةُ هي التي جَلَبتِ النُّحولَ للإمامِ ابنِ الجوزيِّ؛ وذلك حيث يقولُ[(٢)]:

أَللَّهَ أَسْأَلُ أَنْ يُطَوِّلَ مُدَّتِي ... وَأَنَالَ بِالإِنْعَامِ مَا فِي نِيَّتِي
لِي هِمَّةٌ في العِلْمِ مَا مِنْ مِثْلِهَا ... وَهِيَ الَّتِي جَنَتِ النُّحُولَ هِيَ الَّتِي
خُلِقَتْ مِنَ العِلْقِ العَظِيمِ إِلى المُنَى ... دُعِيَتْ إِلَى نَيْلِ الكَمَالِ فَلَبَّتِ
كَمْ كَانَ لي مِنْ مَجْلِسٍ لَوْ شُبِّهَتْ ... حَالَاتُهُ لَتَشَبَّهَتْ بِالجَنَّةِ!

فبمقدارِ الهِمَّةِ يكونُ العملُ والإنجازُ.

- ومِنْ تلك الصفاتِ والدوافعِ: **الإثارةُ والغضبُ**:

وهو عُنْصُرٌ قويٌّ مُؤَثِّرٌ، إذا أُحْسِنَ استغلالُهُ في الخيرِ كان مُفيدًا ناجعًا؛ **كما قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ**: «الشَّهْوةُ والغَضَبُ خُلِقَا لمصلحةٍ ومَنْفعَةٍ، لكنَّ المذمومَ هو العُدْوانُ فيهما»[(٣)].

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (١٠/ ١٧٩)، و«الدرر الكامنة» لابن حجر (٣/ ٦٩).
ودارا بن دارا: هو أحد ملوك الفرس الأقدمين.
ومن اللطائف أن هذا البيت قاله في سنة (٧١٩هـ)، ثم أضاف إليه سنة (٧٤٧هـ)، (أي: بعد ثمان وعشرين سنة!!) قوله:
فَمِنْ هَذَا أَرَى الدُّنْيَا هَبَاءً ... وَلَا أَرْضَى سِوَى الفِرْدَوْسِ دَارَا
(٢) **انظر**: «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب الحنبلي (١/ ٤٢٨)، و«السير» (٢١/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩).
(٣) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٨٣).

ومن الغضبِ المحمودِ: الغَضَبُ للهِ ولدينِهِ؛ ففي «الصحيحينِ»، **عن عائشةَ** رضي الله عنها **قالت**: «ما رَأَيْتُ رسولَ اللهِ ﷺ مُنْتَصِرًا من مَظْلَمةٍ ظُلِمَهَا قَطُّ مَا لَمْ يُنتَهَكْ مِنْ مَحارمِ اللهِ تَعَالَىٰ شَيْءٌ، فَإِذَا انْتُهِكَ مِنْ مَحَارِمِ اللهِ تَعَالَى شَيْءٌ كَانَ مِنْ أَشَدِّهِمْ فِي ذَلِكَ غَضَبًا»[1].

وجاء في صِفَةِ الصحابةِ رضي الله عنهم أنهم كانوا يَتَبَادَحُون[2] بِالبِطِّيخِ، فإذا كانتِ الحقائقُ كانوا هُمُ الرجالَ[3].

وكانوا يتناشدون الشعرَ في مَجَالِسِهم، ويَذْكُرُونَ أمرَ جاهليتِهم، فإذا أُرِيدَ أحدٌ منهم على شيءٍ مِنْ أمرِ اللهِ، دارَتْ حَمَالِيقُ عينَيْهِ كأنه مجنونٌ[4].

فالقوةُ الغضَبيَّةُ هي طاقةٌ نفسيةٌ عظيمةُ الفائدةِ، كانتْ خَلْفَ كثيرٍ من الأعمالِ الإبداعيةِ؛ العِلْميةِ والعَمَليةِ.

وهي طاقةٌ استفزازيةٌ آنيَّةٌ، وليستْ ذاتيَّةً مستمرَّةً كما هو الحالُ في الهِمَّةِ، وبقدرِ الدافعِ الاستفزازيِّ يكونُ العملُ الإبداعيُّ قُوَّةً وضعفًا؛ فقد ذُكِرَ أنَّ أحدَ النَّصارى في زمنِ ابنِ تيميَّةَ تَكَلَّمَ في الرسولِ ﷺ، وشَتَمَهُ وطَعَنَ فيه، فغَضِبَ شيخُ الإسلامِ غضبًا شديدًا، وألَّف كتابًا من أعظمِ كُتُبِهِ سمَّاه «الصَّارِمَ المسلُولْ، على شاتِمِ الرسولْ ﷺ»؛ رَدَّ فيه على ذلك النصرانيِّ، وأطال النَّفَسَ فيه، ومَنْ يقرأُ هذا الكتابَ يَجِدْ فيه

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب: باب صفة النبي (٣/ ١٣٠٦) (٣٣٦٧)، ومسلم في كتاب: الفضائل، باب مباعدته للآثام (٤/ ١٨١٣) (٢٣٢٧).

(٢) **البَدْحُ**: ضربك شيئًا بشيء فيه رخاوة، كما تأخذ بطيخة فتبدح بها إنسانًا، تقول: رأيتهم يتبادحون بالكُرِينَ والرُّمَّانِ ونحوه عبثًا، **يعني**: رميًا. **انظر**: «العين» (٣/ ١٨٧)، و«تهذيب اللغة» (٤/ ٢٥٠).

(٣) «صحيح الأدب المفرد» (ص١١٧) (٢٠١).

(٤) المصدر نفسه (ص٢٠٩) (٤٣٢).

نَفَسَ المُغْضَبِ، وقُوَّةَ المُبْدِعِ، **حتى إنه قال فيه:** «إنَّ ذَهَابَ الغَيْظِ مِنْ صُدورِ المؤمنين لا يَحْصُلُ إلَّا بقتلِ مَنْ يسُبُّ الرسولَ»[١].

فعنصُرُ الإثارةِ النفسيَّةِ أمرٌ في غايةِ الأهميَّةِ، سواءٌ تَمثَّلَ في الغضبِ، أو حتى في الخوفِ؛ فإنَّ الخوفَ ربَّما حرَّكَ الطاقةَ الكامنةَ في النَّفْسِ، فنَتَجَتْ عنها أعمالٌ هائلةٌ، ربَّما لا يَقْدِرُ على فِعْلِها ذلك الشخصُ بعَيْنِهِ لو تَجرَّدَ عن ذلك الدافعِ؛ كما ذُكِرَ عن حُذَيْفَةَ بنِ بَدْرٍ أنه أغار على هِجَانٍ للنُّعْمانِ بنِ المُنْذرِ بنِ ماءِ السماءِ، ومِنْ شِدَّةِ خوفِهِ أنْ يُدْرَكَ، سار في ليلةٍ واحدةٍ مسيرةَ ثمانِ ليالٍ، فضُرِبَ به المَثَلُ في شِدَّةِ السيرِ، وقوةِ الجَلَدِ؛ **حتى قال قيسُ بنُ الحَطِيمِ**[٢]:

هَمَمْنَا بِالإِقَامَةِ ثُمَّ سِرْنَا مَسِيرَ حُذَيْفَةَ الخَيْرِ ابْنِ بَدْرِ

وحُكي أنَّ مَلِكًا رأى شيخًا وَثَبَ وَثْبةً عظيمةً على نهرٍ فتخطَّاه والشابُّ يَعْجِزُ عن تلك الوَثْبةِ، فعَجِبَ منه واستَحْضَرَهُ وحادَثَهُ في ذلك، فأراه ألفَ دينارٍ كانتْ مربوطةً في وَسَطِهِ!![٣].

وربَّما كان دافعُ الإثارةِ النفسيَّةِ هذا طريقًا إلى الإبداعِ والتفوُّقِ أيًّا كان ذلك المُثيرُ، خصوصًا في طلبِ العلمِ والتحصيلِ؛ كما ذُكر عن أحمدَ بنِ خالدِ بنِ يزيدَ، المعروفِ بابنِ الجَبَّابِ القُرْطُبيِّ، فقد اشتَغَلَ في أوَّلِ أمرِهِ بالعبادةِ، **قال:** «فنَظَرْتُ إلى قومٍ يَتهارَشُونَ على الدنيا ـ **يعني**: فقهاءَ عصرِهِ ـ فقلتُ: متى احتَجْتُ إلى شيءٍ مِنْ ديني رجَعْتُ إلى هؤلاءِ! فكان ذلك مما حمَلَني على الجِدِّ في الطلبِ، والنظرِ في الفقهِ والعلمِ!»[٤].

---

(١) «الصارم المسلول» (ص٢٠).

(٢) **انظر**: «المستطرف» للأبشيهي (٢/ ١٩).

(٣) المصدر نفسه (٢/ ٣٣).

(٤) «ترتيب المدارك» (٥/ ١٧٦).

وربَّما حصَلَتْ تآليفُ عظيمةٌ بسببِ ذلك، كما وقَعَ لابنِ حزمٍ؛ **حيثُ يقولُ عن نفسِهِ:** «لكلِّ شيءٍ فائدةٌ، ولقدِ انتَفَعْتُ بِمَحَكِّ أهلِ الجهلِ منفعةً عظيمةً؛ وهي أنه تَوقَّدَ طبعي، واحْتَدَمَ خاطري، وحَمِيَ فِكْري، وتَهَيَّجَ نَشَاطي، فكان ذلك سببًا إلى تواليفَ لي عظيمةِ المنفعةِ، ولولا استثارتُهم سَاكِني، واقتداحُهم كامِني، ما انْبَعَثْتُ لتلك التواليفِ!»(١).

فالمقصودُ: أنَّ قُدْرَةَ النَّفْسِ ليس لها حُدودٌ، وهي المُحرِّكُ الأساسُ لجميعِ قوى الجسدِ الظاهرةِ والباطنةِ، ولا سيَّما قنواتُ المعرفةِ والتلقِّي: السمعُ والبصرُ والفؤادُ؛ فإنَّها أُمَّهَاتُ ما يُنالُ به العِلْمُ ويُدْرَكُ؛ كما سنتحدَّثُ عنه في النقطةِ الثالثةِ؛ وهي القوةُ الجَسَديَّةُ.

ج ـ القُوَّةُ الجَسَدِيَّةُ:

لا أعني بالقوةِ الجسديةِ هنا: التكوينَ الجُثْمانيَّ مِنْ عَضَلاتٍ ووشائجَ وتراكيبَ، بحيثُ يكونُ المُبْدِعُ ضَخْمَ المَنْكِبَيْنِ، عَبْلَ الذِّرَاعَيْنِ، مبسوطَ الجسمِ، مَدِيدَ القامَةِ!

كلَّا، **وإنما المقصودُ هو:** الطاقةُ الحَيَّةُ، والنشاطُ المتدفِّقُ، الذي هو شُعْلَةُ الإبداعِ، وَوقُودُ أَتُّونِهِ، حتى وإنْ كان صاحبُها لطيفَ الجسمِ، نحيلَ البَدَنِ، فإن هذا ليس مِقْياسًا للطاقةِ والحيويَّةِ والنَّشَاطِ، بل ربَّما كان العكسُ هو الصحيحَ؛ **كما قال بعضُهم:**

تَرَاهُ مِنَ الذَّكَاءِ نَحِيفَ جِسْمٍ ... عَلَيْهِ مِنْ تَوَقُّدِهِ دَلِيلُ
إِذَا كَانَ الفَتَى ضَخْمَ المَعَالِي ... فَلَيْسَ يَضُرُّهُ الجِسْمُ النَّحِيلُ!

---

(١) «رسالة في مداواة النفوس»، ضمن «رسائل ابن حزم الأندلسي» (١/ ٣٦٧).

وكما قال الآخرُ:

إِذَا سَمِنَتْ هِمَّةٌ في الضُّلُوعِ   فَـآيَـتُـهَـا الـبَـدَنُ الـنَّـاحِـلُ!

وما قِصَّةُ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه ودِقَّةِ ساقَيْهِ حينما لَعِبَتْ به الرِّيحُ وهو على الشجرةِ؛ بخافيةٍ![1].

فوجودُ الحيويَّةِ والنشاطِ الذي هو ضِدُّ الخُمُولِ والهُزَالِ، أمرٌ ضروريٌّ، وما عُرِفَ عن أحدٍ من المُبْدِعِينَ أنه كان يَحْمِلُ فيروسَ الكسلِ، ولا ميكروبَ الخُمُولِ، الذي يُؤثِّرُ على القوةِ العقليةِ والنفسيةِ؛ لأنَّ الجسدَ الهزيلَ المريضَ لا يُمْكِنُ أن يُوصِلَ شُحْنَةَ الحياةِ إلى النفسِ توصيلًا صحيحًا، تقومُ عليه بمهمَّتِها ودَوْرِها، فضلًا عن أن يُوصِلَها إلى العقلِ[2]؛ **ولهذا قال حفني ناصف**[3]:

وَمَتَى اسْتَقَامَ الجِسْمُ أَمْكَنَ بَعْدَهُ   حِفْظُ النُّهَى وَصِيَانَةُ الأَفْهَامِ

وقال الآخرُ:

إِنَّ الجُسُومَ إِذَا تَكُونُ نَشِيطَةً   تَقْوَى بِفَضْلِ نَشَاطِهَا الأَحْلَامُ

ولهذا كانتِ القُوَّةُ في الإسلامِ مقصودةً لا لذاتِها، وإنما لغيرِها؛ قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وجعلَهَا صِفَةَ مَدْحٍ وتفضيلٍ؛ كما قال تعالى واصفًا طالوتَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وقال ﷺ: (**إِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**)[4]، وقال أيضًا: (**المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ المُؤْمِنِ**

---

(١) **انظرها في**: «المسند» (٢/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤) (٩٢٠)، **وقال محققوه**: صحيح لغيره.

(٢) **انظر**: «منهج التربية الإسلامية» لمحمد قطب (١/ ١٠٥).

(٣) «مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي» لأحمد قبش (ص٦٧)، وهو سِفْرٌ نفيسٌ أوصي به أربابَ الذوق، وأصحاب البيان.

(٤) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد: باب ما يكره من =

الضَّعِيفِ)[١]، **والقوةُ هنا: تَشْمَلُ كِلتا القوتَيْنِ**: الإيمانيةِ، والجَسَديةِ[٢].

وهذا كلُّه لأجلِ اكتسابِ الطاقةِ والحيويةِ التي تُمِدُّ النفسَ والعقلَ بالقوةِ للعملِ والإنتاجِ[٣].

وارتباطُ الجَسَدِ بالنفسِ والعقلِ أمرٌ معروفٌ مُنْذُ القِدَمِ، حتى إنَّ العلماءَ قد أوجدوا عَلَاقاتٍ بينَ ظاهرِ الجسدِ وباطنِهِ، وجعلوا الشكلَ الخارجيَّ للبدنِ طريقًا لمعرفةِ الهيئةِ الداخليةِ للنفسِ؛ وهو ما يُسمَّى بعلمِ (الفِرَاسَةِ الخَلْقِيَّةِ).

قال ابنُ القَيِّم: «أصلُ هذه الفِرَاسَةِ أنَّ اعتدالَ الخِلْقَةِ والصُّورَةِ هو مِنِ اعتدالِ المِزَاجِ والرُّوحِ، وعن اعتدالِها يكونُ اعتدالُ الأخلاقِ والأفعالِ، وبحَسَبِ انحرافِ الخِلْقَةِ والصُّورَةِ عن الاعتدالِ يَقَعُ الانحرافُ في الأخلاقِ والأعمالِ. . .»، **إلى أن قال**: «ومُعْظَمُ تَعَلُّقِ الفِرَاسَةِ بالعينِ؛ فإنَّها مِرْآةُ القلبِ وعُنْوانُ ما فيه، ثُمَّ باللِّسَانِ؛ فإنَّهُ رسولُهُ وتَرْجُمَانُهُ».

ثم ذكَرَ بعضَ هيئاتِ الجسدِ والرأسِ التي تَدُلُّ على الذكاءِ والبَلَادةِ، والشجاعةِ والخوفِ[٤].

= ترك قيام الليل (١/ ٣٨٧) (١١٠٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام: باب النهي عن صوم الدهر (٢/ ٨١٢) (١١٥٩)؛ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

(١) هذا طرف من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر: باب في الأمر بالقوة وترك العجز (٤/ ٢٠٥٢) (٢٦٦٤).

(٢) **انظر**: «إكمال المعلم» للقاضي عِيَاض (٨/ ١٥٧)، و«منهج التربية الإسلامية» لمحمد قطب (١/ ١٠٥).

(٣) **إضاءةٌ**: ذكَرَ الأطبَّاء أنَّ رياضة المشي مفيدةٌ جدًّا لإزالة التَّعب الذِّهْني، كما أنها تُعوِّضُ الدم الذي ينقُصُ بكثرةِ الأعمال العقلية، إضافةً إلى فوائدها الأخرى الجَمَّة. **انظر**: «الطريق إلى العبقرية» (ص١٣٠).

(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٨٨)، **وانظر**: «كتاب الفِرَاسة» للفخر الرازي.

وكلُّ ما يدخُلُ على الجسمِ ـ سواءٌ كان حسيًّا أو معنويًّا ـ فإنه يُؤثِّرُ على النفسِ والعقلِ، سَلْبًا أو إيجابًا؛ **وهو نوعان:**

١ ـ غِذاءٌ معنويٌّ.

٢ ـ غِذاءٌ حِسِّيٌّ ماديٌّ.

● **أمَّا الغذاءُ المعنويُّ:** فيكونُ عن طريقِ السمعِ والبصرِ والفؤادِ، وهذه القنواتُ هي أعظمُ الطُّرُقِ إلى العقلِ والنفسِ كما أسلفنا، وهي أُمَّهاتُ ما يُنالُ به العِلْمُ ويُدْرَكُ؛ كما قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه الله تعالى[1]؛ ولهذا امتَنَّ اللهُ على خَلْقِهِ أوَّلَ خُرُوجِهم إلى الدنيا بهذه الأمورِ؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وقال أيضًا: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩]، وقال فيما لكلِّ عضوٍ من هذه الأعضاءِ من العملِ والقُوَّةِ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، **والمقصودُ هنا:** الرُّؤْيَةُ بلا وَعْيٍ، والسمعُ بلا تدبُّرٍ.

وأهمُّ هذه الثلاثةِ هو القَلْبُ، والبقيَّةُ طُرُقٌ لإيصالِ العلمِ إليه؛ **كما قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ:** «صاحبُ العلمِ في حقيقةِ الأمرِ هو القَلْبُ، وإنما سائرُ الأعضاءِ حَجَبَةٌ له تُوصِلُ إليه من الأخبارِ ما لم يَكُنْ لِيأْخُذَهُ بنفسِهِ، حتى إنَّ مَنْ فَقَدَ شيئًا من هذه الأعضاءِ فإنَّه يَفْقِدُ بِفَقْدِهِ من العلمِ ما كان هو الواسطةَ فيه»[2].

---

(١) **انظر:** «مجموع الفتاوى» (٩/ ٣٠٩).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٩/ ٣١٠).

• **وأمَّا الغذاءُ الحِسِّيُّ المَادِّيُّ**: فهو يؤدِّي إلى إشباعِ الرَّغَباتِ والمُيُولِ المتعدِّدةِ عندَ الإنسانِ، بما يَعُودُ بالأثرِ البيِّنِ على النَّفسِ والعقلِ، سلبًا أو إيجابًا؛ فالخَمْرُ مثلًا نهى عنها الإسلامُ؛ لأنها تُفسِدُ العقلَ، كما أمَرَ بالاحتياطِ في المَطْعَمِ وتحرِّي الحلالِ الطَّيِّبِ حتى لا يقعَ المسلمُ في الحرامِ؛ فيقسوَ قلبُهُ، وتُظلِمَ نفسُهُ، ويَنْغلِقَ فِكْرُهُ، فيَقِلَّ عملُهُ ونشاطُهُ؛ كما قال بعضُ العلماءِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]؛ **قال**: أمرَهم بأكلِ الطيِّباتِ قبلَ العملِ الصالحِ؛ لأنَّ في ذلك عَوْنًا على الطَّاعةِ وانشِراحًا لها، وفي «صحيحِ البخاريِّ»، عن أبي هريرةَ رضي الله عنه مرفوعًا: (**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُنْتِنُ مِنَ الإِنْسَانِ بَطْنُهُ؛ فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَلَّا يَأْكُلَ إِلَّا طَيِّبًا فَلْيَفْعَلْ**)[1].

وليس التأثيرُ على العقلِ والنَّفسِ مقصورًا على المُحرَّمِ فقطْ، بل ربَّما أثَّر فيه بعضُ المباحاتِ أيضًا، كما هو الحالُ في أكلِ لحمِ الإبلِ مثلًا.

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ: «إنَّ الآكلَ منها تَبْقَى فيه قُوَّةٌ شيطانيةٌ؛ لأنَّ الغاذيَ شَبِيهٌ بالمُغتَذِي، وقد رُوِيَ فيها أنها جِنٌّ خُلِقَتْ من جِنٍّ، وأنَّ على ذِروةِ كُلِّ بعيرٍ شيطانًا، والشياطينُ خُلِقتْ من نارٍ، فإذا توضَّأ العبدُ من لُحُومِ الإبلِ، كان في ذلك مِنْ إطفاءِ القوةِ الشيطانيَّةِ ما يُزِيلُ المَفسَدَةَ، بخلافِ مَنْ لم يتوضَّأْ منها؛ فإنَّ الفَسَادَ حاصلٌ معه».

قال: «ولهذا حُرِّمَ كلُّ ذي نابٍ مِنَ السباعِ، وكلُّ ذي مِخْلَبٍ من الطَّيْرِ؛ لأنها دوابٌّ عَادِيَةٌ، بالاغتذاءِ بها تَجْعَلُ في خُلُقِ الإنسانِ من

---

(١) «صحيح البخاري»، كتاب الأحكام: باب مَنْ شاقَّ شقَّ الله عليه (٦/ ٢٦١٥) (٦٧٣٣)، **وانظر**: المزيد من النصوص وشرحها في كتاب: «أحكام الأطعمة في الشريعة الإسلامية» للطريقي (ص٢٤ فما بعد).

العُدْوانِ ما يَضُرُّهُ في دِينِه»[١].

فثبَتَ بهذا أنَّ الغِذَاءَ الماديَّ المحسوسَ يُؤثِّرُ على الأخلاقِ والطِّبَاعِ؛ كما قال شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللهُ.

وكذلك الأمرُ في مسألةِ القُدرةِ الطبيعيةِ؛ فإنَّ العجزَ الطبيعيَّ عندَ الإنسانِ دليلُ ضعفٍ وخمولٍ غالبًا، فأنَّى لِمَنْ هذه حالُهُ التفوُّقُ والإتقانُ، فضلًا عن الابتكارِ والتجديدِ والإبداعِ؟!

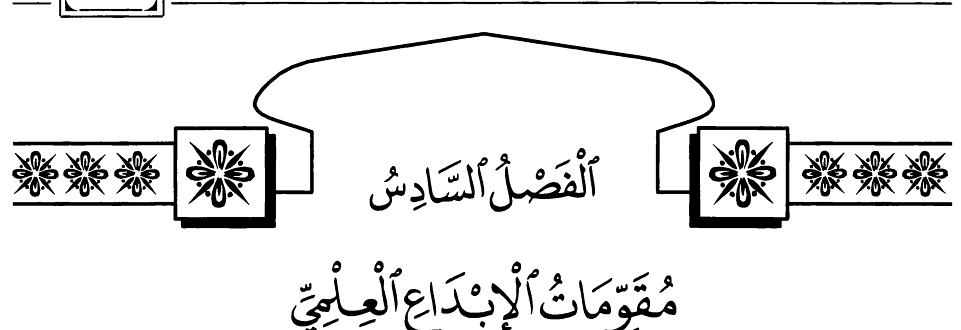
ويَحْضُرُني في هذا بحثٌ نُشِرَ في مجلةِ (الأديب) اللُّبْنانيَّةِ، عن أبي العَلَاءِ المَعَرِّيِّ، ذهَبَ فيه صاحبُهُ - وهو الأستاذُ الخُولي - إلى أنَّ أبا العَلَاء إنما منعه من الزواجِ مانعُ العَجْزِ الطبيعيِّ، وليس الزُّهْدَ أو الفَلْسَفةَ التي عُرِفَ بها أبو العَلاءِ، فرَدَّ عليه الأستاذُ عبدُ السلامِ هارون في مجلةِ (المقتطف) عام (١٩٤٥م)، **وقال**: «كيف نَتصوَّرُ تلك العبقريةَ المُتدافِعةَ المُتزاحِمةَ في تلك الرجولةِ الناقصةِ؟! إنَّ العبقريةَ الممتازةَ لم تَكُنْ يومًا في ضِعافِ الرِّجَالِ، بل إني لأَذْهَبُ إلى أنَّ أبا العلاءِ كان من قُوَّةِ طبيعةِ الرَّجُلِ بالمكانِ الذي يَحْمِلُهُ على التقلُّلِ من المطعم والمشربِ؛ لِيَكُفَّ عَوَارِمَ هذا الميلِ، ويصيرَ إلى حالٍ من العِفَّةِ وضَبْطِ النَّفْسِ!»[٢].

❁ ❁ ❁

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٥٢٣).
وقال د. زكي نجيب محمود: «إنَّ طعامَ الطاعمِ يُنتِجُ له في حياته نتيجتَيْن: إحداهما: لذَّة الطعام، والأخرى: النشاط الذي يَتولَّدُ عنَ تغذية الجسم، فيُبْدِعُ به صاحبُهُ إبداعًا لن يكون هو نفسُهُ يستطيعُ أن يتنبَّأ به ساعة استوائِهِ إلى مائدةِ الطعام»، «في تحديث الثقافة العربية» (ص٢٩٨).

(٢) «قطوف أدبية» لعبد السلام هارون (ص٢٧٥).



الْفَصْلُ السَّادِسُ

مُقَوِّمَاتُ الْإِبْدَاعِ الْعِلْمِيِّ

مقوِّماتُ الإبداعِ العلميِّ هي: الأمورُ التي لا بُدَّ من وجودِها لنجاحِ العملِ، وهي شَرْطٌ ضروريٌّ في عمليةِ الإبداعِ، لكنَّها تُنالُ بالاكتسابِ والتحصيلِ أكثرَ من الأُسُسِ السابقةِ، **وأهمُّ هذه المكوِّناتِ ما يلي**:

أولًا: التمكُّنُ في العلمِ، وهَضْمُ مسائلِهِ، والسَّعْيُ الحثيثُ للإحاطةِ بقضاياه، وتَصوُّرِها على وَجْهِها الصحيحِ؛ يُساعدُ على ذلك ما يلي:

١ ـ **التَّخَصُّصُ**: وهذا أمرٌ غايةٌ في الأهميَّةِ؛ فإنَّ العادةَ مطَّرِدةٌ أنَّ الإنسانَ لا يُبْدِعُ في فنٍّ أو علمٍ مَا إلَّا إذا تَخصَّصَ فيه، واستَفْرَغَ فيه جُهْدَهُ؛ لأنَّ الإنسانَ مهما طال عُمْرُهُ، وكثُرتْ مَوَاهِبُهُ، ورُزِقَ مع ذلك الفَهْمَ الحادَّ، والحافظةَ الواعيةَ، فإنه لن يستطيعَ أنْ يُحِيطَ بدائرةِ العلمِ الواحدِ إحاطةً تامَّةً، فضلًا عن استيعابِ علومٍ شتى؛ فإنَّ الحالَ **كما قال القائلُ**[1]:

مَا حَوَى العِلْمَ جَمِيعًا أَحَدٌ ... لَا وَلَوْ مَارَسَهُ أَلْفَ سَنَةْ
إِنَّمَا العِلْمُ كَبَحْرٍ زَاخِرٍ ... فَاتَّخِذْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَحْسَنَهْ

وقد أدركَ هذا المعنى الإمامُ الشافعيُّ ـ وهو مَن هو ذكاءً وحفظًا ـ

---

(١) ينسب هذان البيتان للإمام الشافعي رحمه الله تعالى، **انظر**: «ديوان الشافعي» (ص١٢٧).

فقد قال لأبي عليِّ بنِ مِقْلاصٍ أحدِ تلامذتِهِ: «تُرِيدُ تَحْفَظُ الحديثَ وتكونُ فقيهًا؟ هَيْهَاتَ! ما أبعدَكَ مِن ذلك!»[1].

والمرادُ هنا: علومُ المقاصدِ؛ كالتفسيرِ والفقهِ، والحديثِ واللغةِ، ونحوِها، وليس المرادُ علومَ الآلةِ؛ كالمصطلحِ والأصولِ، والنحوِ والبلاغةِ، وما شابهها؛ لأنَّ هذه محدودةُ المسائلِ وإنْ بلَغَتْ آلافًا، محصورةُ الأبوابِ وإنْ جمَعَتْ أصنافًا، بخلافِ علومِ المقاصدِ؛ فإنَّها متراميةُ الأطراف، كثيرةُ الأكناف.

فلو أَخَذْنا عِلْمًا كالتفسيرِ مثلًا لَوَجَدْناه بَحْرًا لا ساحلَ له، أَضِفْ إلى ذلك أنه مُشْتمِلٌ على علومٍ كثيرةٍ، فهناك: أحكامُ القرآنِ، وإعجازُ القرآنِ البلاغيُّ واللُّغَوِيُّ والعلميُّ... إلخ، والقراءاتُ، والتجويدُ، والرَّسْمُ، والمُنَاسَباتُ، ولُغَةُ القرآنِ: من غريبٍ وأمثالٍ، وخطابٍ وأشباهٍ، ومُبْهَماتٍ... إلخ، وهناك التفسيرُ بالمأثورِ وما يَلْتَحِقُ به مِنْ أسبابِ النزولِ، والناسخِ والمنسوخِ... وغيرِها.

وكذلك الفقهُ، فلو أخذناه في دائرتِهِ الضَّيِّقةِ، لوجدناها واسعةً، فمسائلُهُ كثيرةٌ، ونوازلُهُ لا تنتهي، كما أنَّ هناك فنونًا أخرى كثيرةً يَتَطَلَّبُها هذا العلمُ لا بُدَّ أنْ يُلِمَّ بها المتفقِّهُ ـ إذا ما أراد أن يكونَ فقيهًا حقًّا ـ كعلمِ القواعدِ الفقهيةِ، وعلمِ أصولِ الفقهِ، وعلمِ مقاصدِ الشريعةِ، وعلمِ تخريجِ الفروعِ على الأصولِ، وعلمِ أسبابِ الخلافِ، وعلمِ أصولِ البِدَعِ...

وهكذا علمُ الحديثِ، وعلمُ اللغةِ... إلخ.

---

(١) «آداب الشافعي ومناقبه» للرازي (ص١٣٥)، و«مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١٥٢)، و«الرسالة المستطرفة» للكتاني (ص٢٢١).

فالمقصودُ: أنَّ دائرةَ العلمِ الواحدِ واسعةٌ؛ فكيف بعلومٍ شَتَّى؟!

وعليه فمَاذَا يَضِيرُ العالمَ إذا ما تَخصَّصَ في فنٍّ مِنْ فنونِ العلمِ الواحدِ؛ كإعجازِ القرآنِ، أو القراءاتِ، أو مقاصدِ الشريعةِ، أو أصولِ الفقهِ، أو مصطلحِ الحديثِ، أو فقهِ اللغةِ... بحيثُ يَنْصرِفُ كُليَّةً إلى تعلُّمِهِ وتعليمِهِ والتأليفِ فيه؛ فإنه سيستفيدُ ويُفِيدُ فيه بلا ريبٍ، وربَّما ابتَكَرَ واستَخْرَجَ منه فنونًا أخرى جديدةً لم يُسبَقْ إليها، وهذا سبيلٌ لَاحِبٌ من سُبُلِ الإبداعِ.

ويُستَأْنَسُ هنا بقولِ الإمامِ ابنِ عَطِيَّةَ في مُقدِّمةِ كتابِهِ العظيمِ «المُحرَّرِ الوَجِيزِ»؛ **حيث قال**: «رأيتُ أنَّ الواجبَ على مَنِ احتَبَى، وتَخيَّرَ من العلومِ واجتَبَى، أنْ يَعتمِدَ على عِلْمٍ من علومِ الشرعِ، يَستَنْفِدُ فيه غايةَ الوسعِ، يجوبُ آفاقَهْ، ويَتتبَّعُ أعماقَهْ، ويَضْبِطُ أصولَهْ، ويُحْكِمُ فصولَهْ، ويُلخِّصُ ما هو دُونَهُ أو ما يَؤُولُ إلَيْهِ، ويُعْنَى بدفعِ الاعتراضاتِ علَيْهِ، حتى يكونَ لأهلِ ذلك العلمِ كالحِصْنِ المَشِيدْ، والذِّكْرِ العَتِيدْ، يستندونَ فيه إلى أقوالِهْ، ويَحْتَذُونَ على مِثَالِهْ»[1].

وقد جرى العلماءُ الكبارُ على هذا الأمرِ، فقد كان أحدُهُم يَسْتفرِغُ غايةَ جُهْدِهِ في علمٍ أو علمَيْنِ فقطْ، ويُشارِكُ في بقيَّةِ العلومِ على قَدْرِ مَوَاهِبِهِ ومَدَارِكِهِ ومُيُولِهِ؛ بحيثُ يصيرُ مَرْجِعًا في ذلك العلمِ، حُجَّةً فيه؛ ولهذا يذكُرُونَ في تراجمِ العلماءِ أنَّ فلانًا كان إمامًا في الحديثِ مثلًا، كما يذكرون عنه أنَّ له مشاركةً قويَّةً في فَنِّ كذا وكذا... وقلَّما يَجتمِعُ في عَالمٍ واحدٍ الإمامةُ في علومٍ كثيرةٍ.

فهذا أبو حَنِيفةَ رحمه الله تعالى، **قال عنه الإمامُ الشافعيُّ**:

---

(١) «المحرر الوجيز» (١/ ٣).

«ما طَلَبَ أحدٌ الفِقْهَ إلا كان عِيَالًا على أبي حَنِيفةَ»[(١)]، لكنَّ أبا حنيفةَ ليس بذاك في الحديثِ، بل قد ضُعِّفَ فيه[(٢)].

وهذا الشافعيُّ رحمه الله تعالى كان إمامًا في الفقهِ والأصولِ، لكنَّه لم يَبْلُغْ تلك المرتبةَ في الحديثِ، **بل قال للإمامِ أحمدَ**: «أنتم أعلمُ بالحديثِ مِنِّي، فإذا صَحَّ عندكم الحديثُ عن النبيِّ ﷺ، فقولوا لنا حتَّى نَأْخُذَ به»[(٣)].

وقال الحُمَيْدِيُّ: «صَحِبْتُ الشافعيَّ من مَكَّةَ إلى مصرَ، فكنتُ أَسْتفيدُ منه المسائلَ، وكان يستفيدُ منِّي الحديثَ»[(٤)].

وقال إسحاقُ بنُ رَاهُويَهْ: «ذاكَرْتُ الشافعيَّ فقال: لو كُنْتُ أحفظُ كما تحفظُ، لَغَلَبْتُ أهلَ الدنيا».

قال البيهقيُّ مبيِّنًا: «وهذا لأنَّ إسحاقَ الحَنْظَليَّ كان يَحْفَظُهُ على رَسْمِ أهلِ الحديثِ، ويَسْرُدُ أبوابَهُ سَرْدًا، وكان لا يهتدي إلى ما كان يهتدي إليه الشافعيُّ مِنَ الاستنباطِ والفقهِ، وكان الشافعيُّ يَحْفَظُ من الحديثِ ما كان يحتاجُ إليه، وكان لا يَسْتنكِفُ من الرجوعِ إلى أهلِهِ فيما اشتَبَهَ عليه منه؛ وذلك لشدةِ اتقائِهِ للهِ ﷻ، وخَشْيَتِهِ منه، واحتياطِهِ لدينِهِ»[(٥)].

وهذا الإمامُ أحمدُ سُئِلَ عن حرفٍ من غريبِ الحديثِ، **فقال**: «سَلُوا أصحابَ الغريبِ؛ فإنِّي أكرهُ أنْ أتكلَّمَ في قولِ رسولِ اللهِ ﷺ

---

(١) «الجواهر المضية» للقرشي (١/ ٥٦)، و«الانتقاء» لابن عبد البر (ص١٣٦).

(٢) **انظر**: «ميزان الاعتدال» للذهبي (٤/ ٢٦٥).

(٣) «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١٥٤) **وانظر**: «جامع بيان العلم» لابن عبد البر (٢/ ٤٧٠).

(٤) «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١٥٣). (٥) المصدر نفسه.

بالظنِّ فأُخْطِئَ»[1].

وهذا شُعْبةُ بنُ الحَجَّاجِ حَدَّثَ في مجلسِهِ، **فقال في حديثٍ:** «فتَسْمَعُونَ جَرْشَ طَيْرِ الجنةِ»، فردَّ عليه الأصمعيُّ وكان جالسًا في ذلك المجلسِ، **وقال:** «جَرْس» ـ **يعني:** بالسينِ المهملةِ ـ فنَظَر إليه شُعْبةُ، **وقال:** «خُذُوها عنه؛ فإنه أعلمُ بهذا مِنَّا»![2].

بل ربَّما تَميَّزَ الإنسانُ في نَوْعٍ دُونَ نوعٍ في دائرةِ العلمِ الواحدِ؛ **فهذا الإمامُ أحمدُ يقولُ عن سُفْيانَ بنِ عُيَيْنةَ:** «كان إذا سُئِلَ عن المناسكِ، سَهُلَ عليه، وإذا سُئِلَ عن الطلاقِ، اشتدَّ عليه»[3].

ومِنْ هنا كان لرأيِ المُتخصِّصِ وزنُهُ واعتبارُهُ عندَ العلماءِ، **ومِنْ مقولاتهم في ذلك:** «مَنْ غلَبَ عليه فَنٌّ يُرجَعُ إليه فيه دُونَ غيرِهِ»، **وقالوا:** «اتفقوا على الرجوعِ في كلِّ فنٍّ إلى أهلِهِ»، **وقالوا:** «مَنْ تعاطى تحريرَ فنٍّ غيرِ فَنِّهِ فهو مُتَعَنٍّ»، **وقالوا:** «إذا تَكلَّمَ المَرْءُ في غيرِ فَنِّهِ أتى بالعجائبِ!»، **وقالوا:** «الخارجُ عن لُغَتِهِ لَحَّانْ، والداخلُ في غيرِ فَنِّهِ يفضحُهُ الامتحانْ»[4].

وقال ابنُ حِبَّانَ ـ في الردِّ على مَنْ قال: إنَّ علمَ الجرحِ والتعديلِ

---

(١) «علوم الحديث» لابن الصلاح (ص٢٧٢).

(٢) «فتح المغيث» للسخاوي (٣/ ١٦٨).

(٣) «تهذيب الكمال» للمزي (١١/ ١٩٠)، و«الكواكب النيرات» لابن الكيال (ص/ ٢٢٩).
قلت: لعلَّ خبرته بالمناسك؛ لكونه مَكِّيًّا.

(٤) **انظر هذه المقولات في:** «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٩/ ٣٥٧)، و«فتح الباري» لابن حجر (٣/ ٦٨٣)، و«فتح المغيث» للسخاوي (٢/ ٦٨)، و«الحبل الوثيق، في نصرة الصديق» للسيوطي «ضمن الحاوي للفتاوي» (١/ ٣٢٦)، و«تحفة الأحوذي» للمباركفوري (١/ ٢٧)، و«التعالم» لبكر أبو زيد (ص٨).

من الغِيبةِ المحرَّمةِ! ـ: «ولو تَملَّقَ قائلُ هذا القولِ إلى باريه في الخَلْوةِ، وسأله التوفيقَ لإصابةِ الحَقِّ، لكان أَوْلَى به من الخوضِ فيما ليس من صناعتِهِ»[١].

وقال الجُرْجانيُّ: «إذا تعاطى الشيءَ غيرُ أهلِهِ، وتولَّى الأمرَ غيرُ البصيرِ به، أَعْضَلَ الداءُ، واشتدَّ البلاءُ»[٢].

وقال ابنُ حَزْمٍ: «لا آفةَ على العلومِ وأَهْلِها، أضرُّ من الدُّخَلاءِ فيها وهم مِنْ غيرِ أهلِها؛ فإنَّهم يجهلونَ ويظنُّونَ أنَّهم يَعْلَمونْ، ويُفْسِدون ويُقدِّرونَ أنهم يُصْلِحونْ!»[٣].

وقال الحُمَيْديُّ ـ بعدَ أنْ ذكَرَ الخلافَ في موتِ أحدِ المُحدِّثين ـ: «على أنَّ أبا سعيد بنَ يُونُسَ قد حكى قولَ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ عيسى ولم يَعْترِضْ عليه، وهو من أهلِ البحثِ عن أهلِ المغربِ والاختصاصِ بمعرفتِهم»[٤].

فقد أمضَى كلامَ أحمدَ هذا، وجعلَهُ مقبولًا كما ترى؛ لأنَّ أبا سعيد بنَ يُونسَ المتخصِّصَ في رجالِ المغربِ لم يَعْترِضْ عليه.

وقال اللَّكْنَويُّ: «أَجِلَّةُ الفقهاءِ إذا كانوا عَارِينَ عن تَنْقِيدِ الأحاديثِ لا نُسَلِّمُ الرواياتِ التي ذكروها مِنْ غيرِ سندٍ ولا مستندٍ إلَّا بتحقيقِ المحدِّثينَ»[٥].

وقال الإمامُ يحيى بنُ مَعِينٍ لمَّا سُئِلَ عن إبراهيمَ بنِ محمَّدِ بنِ عَرْعَرَةَ: «ثقةٌ معروفٌ مشهورٌ بالطلبِ، كَيِّسُ الكتابِ، ولكنَّه يُفْسِدُ نفسَهُ؛

---

(١) «المجروحين» (١/ ١٧). (٢) «دلائل الإعجاز» (ص٤٨٢).
(٣) «مداواة النفوس»، ضمن «رسائل ابن حزم الأندلسي» (١/ ٣٤٥).
(٤) «جذوة المقتبس» للحميدي (٢/ ٥٤٢). (٥) «عُمدة الرِّعاية» للكنوي (١/ ١٣).

يَدْخُلُ في كلِّ شيءٍ!»[١].

وبهذا التقريرِ تعلَمُ أنّ ما اشتَرَطَهُ السُّيوطيُّ في المُجدِّدِ ـ في منظومتِهِ «تحفةِ المهتدينْ، بأحكامِ المجدِّدينْ» ـ **حينما قال:**

وَأَنْ يَكُونَ جَامِعًا لِكُلِّ فَنّْ وَأَنْ يَعُمَّ عِلْمُهُ أَهْلَ الزَّمَنْ![٢]

لم يَتوفَّرْ هذا الشرطُ في غالبِ المُجدِّدينَ الذين ذكَرَهُمْ في منظومتِهِ؛ لأنه شرطٌ عزيزٌ، ربَّما ندَرَ في زمانِهِ فضلًا عن زمانِنا! ولهذا لم يكن هذا الشرطُ متفقًا عليه بين العلماءِ[٣].

٢ ـ أَخْذُ العلم عن أهلِهِ: فيجبُ على الطالبِ إذا ما أراد أنْ يُبرِّزَ في لونٍ من العلمِ أَنْ يُجَالِسَ أهلَ ذلك العلمِ البارعينَ فيه، ويَدْرُسَ عليهم، ويَنْبُطَ ما لديهم مِنْ دقائقِ ذلك العلمِ؛ لأنهم أخبرُ منه بالعلم وأطولُ عُمْرًا فيه ـ حتى وإنْ كان أكثرَ منهم اطلاعًا ـ فإنَّ جَلْسَةً واحدةً مع عالمٍ مُتمكِّنٍ ربَّما ذكر فيها فائدةً استَخْلَصَهَا من خلالِ عمرِهِ المديدِ

---

(١) «السير» للذهبي (١١/ ٤٨٠).
وسيأتي مزيد بسط لهذا عند الكلام على العنصر الثالث من المعوِّقات والمثبِّطات.

(٢) «التنبئة، بمن يبعثه الله على رأس كل مئة» للسيوطي (ص٧٤)، **وانظر:** «ندوة الإمام مالك» دورة القاضي عياض (٣/ ١٨٢).

(٣) **مما ينبغي التنبيه عليه هنا:** أنَّ هذا الأمرَ ـ وهو فسَادُ كلامِ من تكلَّم في غير فنِّه ـ متفقٌ عليه بين أصحاب الفنون، وأرباب الصنائع، بل عند عقلاء الناس قاطبة، إلا في علوم الشَّرْع الشريف ـ وواأسفى ـ فعلى حينِ نجد أنَّ المهندسَ لا يَتكلَّمُ في علم الطِّبِّ؛ لأنه لَيس من بابته، والطَّبِيبَ لا يَتكلَّمُ في علم الجُولوجيا؛ لأنه ليس من صنعته... وهلم جرًّا ـ نجدُ أنَّ علوم الشرع الشريف أصبَحَتْ كَلأً مباحًا يَرْتَعُ فيه كل مَنْ هَبَّ ودَرَج، ويرتاده الكسيرُ الحسيرُ وذو العرَج؛ إذْ أضحى الكُلُّ يُعالِجِ الفتوى دون رادع أو وازع، فالطبيب يُفتي، والمهندس يُفتي، والحَجَّامُ يُفتي، والنَّجَّار يفتي... والله المستعان!!

وَعُلُومُ دِينِ اللَّهِ نَادَتْ جَهْرَةً هَذَا زَمَانٌ فِيهِ طَيُّ بِسَاطِي!

في ذلك العلمِ تُوفِّرُ على الطالبِ جُهْدًا وفيرًا، ووقتًا كثيرًا.

قال المرتضى الزَّبيديُّ: «اعلَمْ أنَّ الطالبَ لهذا الفنِّ (علمِ الخَطِّ) والرَّاغِبَ إليه، لا بُدَّ له مِنْ شيخٍ يُرِيهِ دقائقَ الفنِّ، ويُحقِّقُ له حقائقَهْ، ويَكْشِفُ له رموزَهْ، ويفتحُ له لُغُوزَهْ، ويُقرِّبُ له رقائقَهْ[1]؛ فقد وَرَدَ في بعضِ الآثارْ، عن بعضِ الأخيارْ: «لولا المُربِّي، ما عَرَفْتُ ربِّي»، فإذا يَسَّرَ اللهُ له الأستاذَ، فلَهُ معه شُروطٌ...»، ثم ذكر شروطًا مُهِمَّةً[2].

---

(١) هذه هي المهمَّة السامية للمربِّي الصادق الذي ندبته أمته لينشئ لها جيلًا قويًّا مُبْدِعًا، كما قال الشاعر محمد الشيخ محمود صيام:

يَبْنِي وَيُنْشِئُ وَهْوَ صَابِرْ ... جِيلًا عَلَى الإِبْدَاعِ قَادِرْ
وَيَعِيشُ بَيْنَ مَشَاكِلِ الطُّـ ... ـلَّابِ أَوْ بَيْنَ الدَّفَاتِرْ
حِصَصٌ وَتَحْضِيرٌ وَتَصْـ ... ـلِيحٌ وَطُولَ اللَّيْلِ سَاهِرْ
إِنَّ المُعَلِّمَ فِي الوُجُـ ... ـودِ مَنَارَةٌ بَيْنَ المَنَائِرْ
حَدِبٌ عَلَى طُلَّابِهِ ... وَبِهِمْ إِلَى الأَمْجَادِ سَائِرْ

«ديوان: يومٌ في المخابرات العامَّة» (ص١٧٢).

(٢) **هذه الشروط هي:**

١ - حفظ مقامه في الغيبة والحضور على قَدْرِ الإمكان، فلا يرفع صوتَهُ على صوته، ولا يقول له من شيء قال: لِمَ هذا؟ فإن أشكَلَ عليه شيءٌ سأَلَ بيانه بالأدب.
٢ - ومنها ألا يضحك في حضرة أستاذه إلَّا تبسُّمًا لمقتضٍ.
٣ - ومنها عدم مسابقة قوله، بل يسكُتُ إلى أن ينتهي فيما يقوله.
٤ - ومنها أن يجلس في حضرته كهيئة التشهُّد، يسارقُ وجهَ أستاذِهِ النظر.
٥ - ومنها عدم مخاصمته لأحدٍ مِنْ أتباع أستاذه ومَنْ ينتسب إليه.
٦ - ومنها حفظ متعلَّقاته عن الجرأة عليها؛ فلا يلبس ثوبه، ولا نعله، ولا يركب دابته، ولا يجلس على سَجَّادته، ولا يشرب من الإناء الذي أُعِدَّ له إلا أن يأذنَ له في شيء من ذلك.
٧ - ومنها أن يداوم على الإدمان والاجتهاد فيما يقول له ويأمره به الأستاذ.

فهذه آداب التلميذ مع الأستاذ، مَنِ ابتلي باختلال شيء منها تساهلًا أو غفلة، لا يُفْلِحُ أبدًا.

«حكمة الإشراق» للزَّبيدي (ص١٠٩)، **وانظر:** «نوادر المخطوطات» لعبد السلام هارون (٢/ ٩٧).

وقال ابنُ العَرِيفِ الأَنْدَلُسِيُّ[١]:

مَنْ لَمْ يُشَافِهْ عَالِمًا بِأُصُولِهِ فَيَقِينُهُ في المُشْكِلَاتِ ظُنُونُ
مَنْ أَنْكَرَ الأَشْيَاءَ دُونَ تَثَبُّتٍ وَتَيَقُّنٍ فَمُعَانِدٌ مَفْتُونُ
الْكُتْبُ تَذْكِرَةٌ لِمَنْ هُوَ عَالِمٌ وَصَوَابُهَا بِمُحَالِهَا مَعْجُونُ
وَالْفِكْرُ غَوَّاصٌ عَلَيْهَا مُخْرِجٌ وَالحَقُّ فِيهَا لُؤْلُؤٌ مَكْنُونُ

والشواهدُ في هذا المعنى كثيرةٌ، **بَيْدَ أَنِّي أُنبِّهُ هنا إلى أمرينِ مهمَّينِ:**

الأولُ: ألَّا يحتقرَ الطالبُ أحدًا من العلماءِ أبدًا؛ فقد يوجدُ في النَّهْرِ، ما لا يُوجَدُ في البَحْر، وقد يوجدُ في البِئْرِ، ما لا يوجدُ في النَّهْر، وقد استفاد سليمانُ ﷺ من هُدهدٍ، واستفاد الكسائيُّ من نملةٍ!

الثاني: التزامُ الأدبِ مع الشيخِ؛ لأنَّ الشيخَ لن يُعْطِيَكَ ما عندَهُ إلا إذا وَقَّرْتَهُ وبَجَّلْتَهُ، فيجبُ على طالبِ العلمِ مراعاةُ حقِّ الشيخِ، والقيامُ به على أكملِ وجهٍ؛ وهذا هو الذي يجعلُ الشيخَ يُقْبِلُ على تلميذِهِ ويُتْحِفُهُ بالفوائدِ واللطائفِ؛ ولهذا كان الرَّبيعُ بنُ سليمانَ المُرَاديُّ ـ أخصُّ تلامذةِ الإمامِ الشافعيِّ ـ **يقولُ**: «واللهِ ما اجتَرَأْتُ أن أَشْرَبَ الماءَ والشافعيُّ يَنْظُرُ إليَّ هَيْبَةً له!»[٢].

فلهذا ارتفَعَتْ منزلتُهُ عندَ الإمامِ الشافعيِّ **حتى كان يقولُ له**: «لو أستطيعُ أنْ أُطْعِمَكَ العِلْمَ لأَطْعَمْتُكَهُ!»[٣].

٣ ـ عدمُ الاكتفاءِ بالدِّراسَةِ الرَّسْميَّةِ: بل لا بُدَّ من الاطلاعِ الواسعِ،

---

(١) «نفح الطيب» (٤/٣١٩)، **وانظر**: «الأدب الأندلسي» للشكعة (ص٦٦).
(٢) «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/١٤٥). (٣) المصدر نفسه (٢/١٤٧).

والمتابعةِ الحثيثةِ للجديدِ في ذلك العلم؛ لأنَّ العلمَ والأفكارَ كالأشجارِ تنمو وتَتَرَعْرَعُ كلَّ يومٍ، فما تُرِكَ بالأمسِ يُطْرَقُ اليومَ، وما أغفلَهُ المتقدِّمونَ يَبْحَثُهُ المتأخِّرون، ، وهكذا؛ **فقولُهم**: «ما تَرَكَ الأوَّلُ للآخِرِ شيئًا»! كلامٌ غيرُ صحيحٍ[1]، **بل الصوابُ**: «كَمْ تَرَكَ الأوّلُ للآخِرِ!».

وللهِ دَرُّ ابنِ شَرَفٍ القَيْرَوانيِّ **حيثُ يقولُ**[2]:

قُلْ لِمَنْ لَمْ يَرَ المُعَاصِرَ شَيْئًا ... وَيَرَى لِلأَوَائِلِ التَّقْدِيمَا

إِنَّ ذَاكَ القَدِيمَ كَانَ جَدِيدًا ... وَسَيَغْدُو هَذَا الجَدِيدُ قَدِيمَا

وفي معناه **قولُ ابنِ رَشِيقٍ**[3]:

أُولِعَ النَّاسُ بِامْتِدَاحِ القَدِيمِ ... وَبِذَمِّ الجَدِيدِ غَيْرِ الذَّمِيمِ

لَيْسَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ حَسَدُوا الْحَيْـ ... ـيَ وَرَقُّوا عَلَى العِظَامِ الرَّمِيمِ!

---

(١) سيأتي الكلام على دحضها ونقضها ورفضها فيما بعد فأمهلْنا نخبِّرك اليقينا.

(٢) **انظر البيتين في**: «المقاصد الحسنة» (ص٤٢٢)، و«فتح المغيث، بشرح ألفية الحديث» للسخاوي (٢/ ١٨٧)، و«المحاضرات والمحاورات» للسيوطي (ص٢٥٣)، و«عناية القاضي، وكفاية الراضي» للخفاجي (٤/ ٣٧٤)، و«كشف الخفاء» للعجلوني (٢/ ٢٥)، و«كشف الظنون» لحاجي خليفة (١/ ٣٨)، و«أبجد العلوم» لصديق حسن خان (ص١١٠).

(٣) **انظر البيتين في**: «ريحانة الألبا» للخفاجي (ص٧)، و«تاج العروس» للزَّبيدي (١/ ٩٣).
وهذا معنى قول المبرِّد: «ليس لِقِدَمِ العهدِ يفضُلُ القائل، ولا لحداثتِهِ يُهْضَمُ المصيب، ولكنْ يُعطى كلٌّ ما يستحق».
قال الدماميني في «شرح التسهيل» بعد نقله كلام المبرِّد: «وكثيرٌ من الناس تحرَّى هذه البليةَ الشنعاءَ، فتراهم إذا سمعوا شيئًا من النكت الحسنة غيرَ معزوٍّ إلى معيَّن استحسنوه بناءً على أنه للمتقدِّمين، فإذا علموا أنه لبعض أبناء عصرهم نَكَصُوا على الأعقاب واستقبحوه، أو ادَّعَوْا أن صدور ذلك عن عصريٍّ مستبعد، وما الحامل لهم على ذلك إلا حسدٌ ذَمِيم، وبغيٌ مرتعه وَخِيم». انتهى ملخَّصًا. **انظر**: «رد المحتار، على الدر المختار» (١/ ٣٣).
وسيأتي مزيدُ كلامٍ عن هذا الأمر في معوِّقات الإبداع العلمي.

ولا يَقتصِرْ طالبُ العلمِ على قراءةِ الكتبِ في ذلك الفَنِّ فحسبُ، بل عليه أن يُتابِعَ أيضًا الدَّوْرِيَّاتِ المتخصِّصةَ، والمَجَلَّاتِ العِلْمِيَّةَ المُحكَّمةَ، ومواقعَ (النت) ذاتَ الصلةِ... كما ينبغي له أن يَحْرِصَ على حضورِ المحاضراتِ والمُؤْتَمراتِ والمُنَاقَشاتِ وغيرِها، ممَّا له عَلَاقةٌ بذلك العلمِ الذي يتعاطاه.

ولا يَغْفُلَنَّ عن الأطاريحِ العِلْميَّةِ العليا (الدكتوراه، والماجستير)، لا سيَّما المُحَرَّرةُ منها، والتي يستحقُّ بعضُها أن يُكْتَبَ بماءِ التِّبْرِ المصفَّى، ولو أن هارونَ الرشيد وَقَفَ عليها لأَخَذَهَا بِوَزْنِها ذهبًا! لِمَا فيها من نفائسِ الأنفاسِ، وبدائعِ الروائعِ، وحُسْنِ التحريرِ والتقريرِ، مما لم يَفْطِنِ السابقونَ إليه، ولا حام طائرُهم عليه[1].

وبكلِّ حالٍ: فينبغي أنْ يَجْمَعَ طالبُ الفنِّ بين القديمِ والمعاصرِ على حدٍّ سواءٍ، ويهتمَّ بالجميعِ اهتمامًا واحدًا؛ بحيثُ يكونُ عندَهُ نَهَمٌ وشَغَفٌ بالاطلاعِ والبحثِ والمتابعةِ، ولْيَكُنْ له فيما قاله ابنُ الجوزيِّ عن نفسِهِ حافزًا على الاطلاعِ؛ **حيثُ قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنِّي أُخبِرُ عن حالي: ما أَشْبَعُ من مطالعةِ الكتبِ، وإذا رأيتُ كتابًا لم أره، فكأني وقَعْتُ على كنزٍ... ولو قلتُ: إني طالعتُ عشرينَ أَلْفَ مجلَّدٍ، كان أكثرَ، وأنا بعدُ في الطلَبِ!»[2].

وقال حَمْدونُ بنُ مجاهدٍ الكَلْبيُّ: «كتبتُ بيدي ثلاثةَ آلافِ كتابٍ وخمسَ مئةِ كتابٍ، ولعلَّ الكتابَ الذي أَدْخُلُ به الجَنَّةَ لم أكتُبْهُ بعدُ!»[3].

---

(١) لكنَّ كثيرًا من تلك الرسائل ما زالت حبيسة الأَرْفُف لم تَرَ النُّورَ بعد!!
ومِنْ فضلِ الله أنْ أضحَتْ دور النشر الجادَّة ـ في الآونة الأخيرة ـ تتسابق إلى طباعة تلك الأطروحات، فللَّه الحمد والمنة.

(٢) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (ص٧٠٦).

(٣) «ترتيب المدارك» للقاضي عياض (٥/ ١٤٧).

وقال محمدُ ابنُ القاضي عِيَاضٍ: «لمَّا وصَلَ إلى بلدِنا كتابُ المَقَامَاتِ للحَرِيريِّ ـ وكنتُ لم أرَها قبلُ ـ لم أَنَمْ ليلةَ طالَعْتُها، حتى أَكْمَلْتُ جميعَها بالمطالعةِ!»(١).

٤ ـ أخذُ العلمِ على المسائلِ والجُزئيَّاتِ، والتدقيقُ فيها: فهذا أنفعُ من الخَبْطِ فيه خَبْطَ عَشْواءَ؛ **كما قال الزُّهْريُّ ناصحًا أحدَ طُلَّابِهِ**: «يا يونسُ! لا تُكَابِدِ العِلْمَ؛ فإنَّ العِلْمَ أوديةٌ، فأيَّها أخَذْتَ فيه قطَعَ بك قبلَ أنْ تَبْلُغَهُ، ولكنْ خُذْهُ مع الأيامِ والليالي، ولا تأخذِ العلمَ جُمْلةً؛ فإنَّ مَنْ رَام أخذَهُ جُمْلةً، ذهَبَ عنه جُمْلةً، ولكنَّ الشيءَ بعدَ الشيءِ مع الليالي والأيامِ»(٢).

وكذا قال الإمامُ مالكٌ لابنَيْ أُختِهِ: «إنْ أحببتُما أنْ يَنْفَعَكُما اللهُ بهذا الشأنِ (**يعني**: الحديثَ)، فأَقِلَّا منه، وتَفَقَّهَا فيه»(٣).

وقال الزَّعْفَرَانيُّ: سمعتُ الشافعيَّ يقولُ: «مَنْ تعلَّمَ عِلْمًا فليُدقِّقْ فيه؛ لئلا يَضِيعَ دقيقُ العلمِ»(٤).

وقال فيمن يحملُ العلمَ جُزَافًا: «هذا مَثَلُهُ كمَثَلِ حاطبِ ليلٍ، يقطعُ حُزْمَةَ حَطَبٍ فيَحْمِلُها، ولعلَّ فيها أفعى تَلْدَغُهُ وهو لا يدري»(٥).

وقد مهَرَ بعضُهم في العلمِ بسلوكِهِ هذا المسلك، كما ذُكِرَ عن عليِّ بنِ المُبارَكِ الأحمرِ صاحبِ الكسائيِّ، فقد كان هذا الرَّجُلُ جنديًّا من الجنودِ في بَلَاطِ الخليفةِ الرشيدِ، **قال ابنُ قَادِمٍ**: كان الأحمرُ صاحبُ

---

(١) «التعريف بالقاضي عياض» لولده محمد (ص١٠٩).

(٢) «الإلماع» للقاضي عياض (ص٢٢٠).

(٣) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٧٤١).

(٤) «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١٤٢).

(٥) المصدر نفسه (٢/ ١٤٣).

الكسائيِّ رجلًا من الجُنْدِ من رجالِ النَّوْبَةِ على بابِ الرَّشِيدِ، وكان يُحِبُّ علمَ العربيةِ، ولا يَقْدِرُ على مجالسةِ الكسائيِّ إلا في أيامٍ غيرِ نَوْبتِهِ، وكان يَرْصُدُ مصيرَ الكسائيِّ إلى الرشيدِ، ويَعْرِضُ له في طريقِهِ كلَّ يومٍ، فإذا أقبل، تلقَّاه، وأخَذَ بِرِكَابِهِ، ثم أخَذَ بيدِهِ وماشاه إلى أنْ يبلُغَ السِّتْرَ - أي: سِتْرَ الخليفةِ - وساءله في طريقِهِ عن المسألةِ بعدَ المسألةِ، فإذا دخَلَ الكسائيُّ، رجَعَ إلى مكانِهِ، فإذا خرَجَ الكسائيُّ من الدارِ، تلقَّاه من السِّتْرِ وأخَذَ بيدِهِ وماشاه يُسائِلُهُ حتى يركبَ ويُجاوزَ المَضَارِبَ، ثم يَنْصرفُ إلى البابِ، فلَمْ يَزَلْ كذلك يَتعلَّمُ المسألةَ بعدَ المسألةِ حتى قَوِيَ وتمكَّنَ، وكان فَطِنًا حريصًا؛ ولهذا لمَّا قيل للكسائيِّ: مَنْ تَسْتخلِفُ بعدَكَ؟ قال: أَسْتخلِفُ عليَّ بنَ الأحمرِ![1].

يقولُ ابنُ القَيِّمِ في هذا الصَّدَدِ: «مَنْ أرادَ عُلُوَّ بُنيانِهِ، فعليه توثيقُ أساسِهِ وإحكامُهُ وشِدَّةُ الاعتناءِ به؛ فإنَّ علوَّ البُنْيانِ على قَدْرِ توثيقِ الأساسِ وإحكامِهِ... ومتى كان الأساسُ وثيقًا، حمَلَ البُنْيانَ واعتلى عليه، وإذا تَهدَّمَ شيءٌ من البُنْيانِ، سَهُلَ تداركُهُ، وإذا كان الأساسُ غيرَ وثيقٍ، لم يَرْتَفِعِ البُنْيانُ ولم يَثْبُتْ، وإذا تَهدَّمَ شيءٌ من الأساسِ سقَطَ البُنيانُ أو كادَ»[2].

---

(١) «معجم الأدباء» للحموي (٤/ ١٦٧٠ فما بعد)، و«بغية الوعاة» للسيوطي (٢/ ١٥٨فما بعد) بتصرف.

(٢) «الفوائد» (ص١٥٦).
فعلى هذا ينبغي للطالب أنْ يُمتِّنَ عِلْمَهُ بحفظ المتون، ويُؤصِّلَ نفسَهُ بضبط الأصول، ويُقرِّرَ عِلْمَهُ بقراءةِ التقريرات، ويُكْثِرَ من النظر في الحواشي، حتى تنجليَ عنه الغواشي! فإنَّ (الحواشي مِخَخَةُ المتونْ، كما أنَّ الزيتَ مُخُّ الزيتونْ)؛ كما قال الزمخشري في «أساس البلاغة» (ص١٩٨).
تنوير: لما قرأ الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي تلك الحواشي العظيمة التي حشَّى بها الأميرُ شكيب أرسلان كتابَ «حاضر العالم الإسلامي»، أرسل إلى الأمير بكتابٍ =

٥ ـ تقديمُ الأهمِّ على المُهِمِّ، والأصلِ على الفرعِ: فإنَّ هذا أكْيَسُ شيءٍ في العلمِ وأنفعُهُ، **كما قيل**:

إنَّ الطَّبِيبَ إِذَا أَلَمَّ بِجِسْمِهِ   مَرَضَانِ مُخْتَلِفَانِ دَاوَى الأَخْطَرَا

خصوصًا إذا عَلِمْنا أنَّ العلمَ كثيرٌ، وأن العمرَ قصيرٌ؛ **ولهذا قال سَلْمانُ** رضي الله عنه **لِحُذَيْفةَ** رضي الله عنه **ينصحُهُ**: «يا أخا بني عَبْسٍ! إنَّ العلمَ كثيرٌ، والعمرَ قصيرٌ؛ فخُذْ من العلمِ ما تحتاجُ إليه مِنْ أمرِ دينِكَ، ودَعْ ما سواه فلا تُعَانِهِ»[١].

وقد أخذ هذا المعنى بعضُهم، **فقال**:

الْعِلْمُ إِنْ طَلَبْتَهُ كَثِيرُ   وَالعُمْرُ عَنْ تَحْصِيلِهِ قَصِيرُ
فَقَدِّمِ الأَهَمَّ مِنْهُ فَالأَهَمّْ

وقال الآخَرُ:

وَإِذَا طَلَبْتَ العِلْمَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ   حِمْلٌ فَأَبْصِرْ أَيَّ شَيْءٍ تَحْمِلُ
وَإِذَا عَلِمْتَ بِأَنَّهُ مُتَفَاضِلٌ   فَاشْغَلْ فُؤَادَكَ بِالَّذِي هُوَ أَفْضَلُ

وقال الإمامُ ابنُ حَزْمٍ: «مَنْ شغَلَ نفسَهُ بأدنى العلومِ وترَكَ أعلاها وهو قادرٌ عليها، كان كزارعِ الذُّرَةِ في الأرضِ التي يجودُ فيها البُرُّ، وكغارسِ الشَّعْراءِ[٢] حيثُ يزكو النخلُ والتينُ»[٣].

= **جاء فيه**: ذكَّرتني هذه الحواشي بقولَيْن لإمامَيْن: قيل لأبي بكر الخوارزمي عند موته: ما تشتهي؟ قال: النظر في حواشي الكتب! وقال أستاذ الدنيا جار الله: الزيتُ مُخُّ الزيتونْ، والحواشي مِخَخَةُ المتونْ! «مجلة الرسالة»، العدد (٦٥٩).

(١) «حلية الأولياء» (١/ ١٨٩).

(٢) **الشَّعْراء**: شجرة من أشجار الحمض. «القاموس المحيط» مادة: (ش ع ر).

(٣) «مداواة النفوس»، ضمن «رسائل ابن حزم الأندلسي» (١/ ٣٤٤).

ثانيًا: حُبُّ الفنِّ والاقتناعُ به:

وهذا أمرٌ ضروريٌّ؛ فإنَّ الذي يُكْرِهُ نفسَهُ على أمرٍ لن يُتْقِنَهُ فضلًا عن أنْ يُبْدِعَ فيه؛ لأنَّ الإبداعَ ناتجٌ عن حُبِّ الشيءِ والاقتناعِ به.

ولذا فإنَّك تَجِدُ بعضَ المُبْدِعينَ ـ مِنْ شِدَّةِ وَلَعِهِ بالدرسِ والبحثِ في العلمِ الذي يتعاطاه ـ ربَّما تلهَّى به عن الضرورياتِ المهمَّةِ؛ كالأكلِ والشربِ والنومِ ونحوِها؛ كما حُكِيَ عن ابنِ مالكٍ (صاحبِ الألفيَّةِ) أنه تَوجَّهَ يومًا مع أصحابِهِ للفُرْجةِ بِدِمَشْقَ، فلمَّا بلغوا الموضعَ الذي أرادوه غَفَلُوا عنه سُوَيْعةً، فطلبوه فلم يجدوه، ثم فَحَصُوا عنه فوجدوه منكبًّا على أوراقٍ![1].

وكما ذكَرَ ابنُ الجَوْزيِّ عن نفسِهِ أنه كان يذهبُ إلى نهرِ عيسى ومعه أرغفةٌ يابسةٌ، يَبُلُّها في النهرِ ويَأْكُلُها، وهِمَّتُهُ مصروفةٌ للقراءةِ والتحصيلِ![2].

ومما يُسْتَلْطَفُ هنا قصيدةٌ بديعةٌ للعلَّامةِ محمد محمود بن التلاميد التُّرْكُزيِّ الشِّنْقِيطيِّ (ت١٣٢٢هـ)[3]، فقد طلبه ملكُ السُّوَيْدِ أُوسْكَار الثاني لحضورِ مؤتمرٍ تُناقَشُ فيه قضايا اللغةِ العربيةِ، فكتب محمودٌ هذا قصيدةً بيَّن فيها حُبَّهُ للعلمِ ودَأْبَهُ على التحصيلِ؛ **منها هذه الأبياتُ**[4]:

---

(١) **انظر**: «نفح الطيب» للمَقَّري (٢/ ٢٢٩).

(٢) **انظر**: «صيد الخاطر» (ص٣٩٥).

حِنَّيْفَى: حدَّثني بعضُ الفضلاء عن الشيخ العلَّامة حافظ الحكمي رحمه الله تعالى (ت١٣٧٧هـ)، أنه كانت توضع بين يديه القهوة والشاي بعد العصر وهو يقرأ ويبحث، ثم تُرْفَعُ بعد ذلك كما وُضِعَتْ لم يتناولْ منها شيئًا؛ لانشغاله عنها بالعلم والبحث!

(٣) كان ابن التلاميد من المبرِّزين في علوم اللغة العربية، وكانت له صولات ومناظرات كثيرة مع علماء عصره. **انظر ترجمته في**: «الأعلام» للزركلي (٧/ ٨٩).

(٤) «الحماسة السَّنِيَّة، الكاملة المَزِيَّة، في الرِّحْلة التُّرْكُزيَّة» لابن التلاميد (ص٩).

وَلَمَّا طَعِمْتُ لَذَّةَ العِلْمِ صَيَّرتْ سِوَاهَا مِنَ اللَّذَّاتِ عِنْدِيَ كَالسُّمِّ
وَلَمَّا عَشِقْتُ العِلْمَ عِشْقَ دِرَايَةٍ سَلَوْتُ عَنِ الأَوْطَانِ وَالأَهْلِ وَالخِلْمِ(١)
وَلَمَّا عَلِمْتُ مَا عَلِمْتُ بِغَرْبِنَا تَرَحَّلْتُ نَحْوَ الشَّرْقِ بِالحَزْمِ وَالعَزْمِ
وَلَمْ يُثْنِ عَزْمِي نَهْيُ حَسْنَاءَ غَادَةٍ شَبِيهَةِ جُمْلٍ بَلْ بُثَينَةَ بَلْ نُعْمِ!
وَلَمْ يُعْمِ قَلْبِي حُبُّ عَذْرَاءَ كَاعِبٍ وَحُبُّ العَذَارَى قَدْ يُصِمُّ وَقَدْ يُعْمِي
رَحَلْتُ لِجَمْعِ العِلْمِ وَالكُتْبِ ذَاهِبًا إِلَى اللَّهِ أَبْغِي بَسْطَةَ العِلْمِ في جِسْمِي
وَأَمْعَنْتُ في إِدْرَاكِ مَا رُمْتُ نَيْلَهُ فَأَدْرَكْتُ مَا أَدْرَكْتُ بِالصَّبْرِ وَالحَزْمِ
وَصِرْتُ بِمَا أَدْرَكْتُ مِنْ ذَيْنِ هَادِيًا بِشَمْسٍ عَلَى شَمْسٍ وَنَجْمٍ عَلَى نَجْمِ

ومِنْ هنا كان الفقرُ ظاهرةً بينَ العلماءِ؛ وذلك لأنهم قدَّموا لَذَّةَ العلمِ باختيارِهم على جميعِ اللَّذَّاتِ ـ ومنها الاشتغالُ بطلبِ الدنيا ـ فافتَقَرُوا!

قال الشافعيُّ: «فَقْرُ العلماءِ فَقْرُ اختيار، وفقرُ الجُهَّالِ فقرُ اضطرار»(٢).

وعليه: فإنَّ المُكْرَهَ على الشيءِ لن يُبْدِعَ فيه أَلْبَتَّةَ؛ لأنه في قرارةِ نفسِهِ غيرُ مُقتنِعٍ بما يفعلُ؛ كما قال أبو إسحاقَ الصَّابي لصديقٍ دخَلَ عليه ـ وهو مشغولٌ بتأليفِ كتابِ «التَّاجي» في أخبارِ بني بُوَيْه، الذي أمره به عَضُدُ الدولةِ ابنُ بُوَيْه ـ وسأله عمَّا يعملُ، **فقال**: «أباطيلُ أُنمِّقُها، وأكاذيبُ أُلفِّقُها!»(٣).

وهذا هو الذي يجلِّي لنا حالَ طُلَّابِ الجامعاتِ، الذين يَتخرَّجُ

---

(١) **الخِلْم**: هو الصديق الخالص. «المعجم الوسيط» مادة: (خ ل م).
(٢) «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١٤٩).
(٣) «معجم الأدباء» (١/ ١٣١). **وانظر**: «كُنَّاشة النوادر» لعبد السلام هارون (ص٩٧).

منهم كلَّ عامٍ الآلافُ، بينما لا يَتخرَّجُ منهم على الحقيقةِ إلَّا العَشَراتُ! ذلك لأنَّ الطَّالبَ لا يُقْبِلُ على التخصُّصِ الذي الْتَحَقَ به بحبٍّ ورغبةٍ، بل يَلِجُهُ إمَّا لأنه تَخصُّصٌ سهلٌ، أو بناءً على رغبةِ أهلِهِ، أو مسايرةً لأصحابِهِ وزملائِهِ، أو لأنَّ له مستقبلًا ماديًّا أَرْقَى، أو لغيرِ ذلك من النوايا؛ وكلُّ هذا لا يُثْمِرُ!

ثالثًا: الصبرُ وعدمُ استعجالِ النتائجِ:

هذا العنصرُ مُتفرِّعٌ عن العناصرِ التي سبَقَتْ، فينبغي على طالبِ العلمِ التريُّثُ للوصولِ إلى أفضلِ النتائجِ، والاستعجالُ آفةٌ يقعُ فيها كثيرٌ من المشتغلين بالعلمِ، وما هذا الرُّكَامُ المعروضُ في المكتباتِ مِنَ البُحُوثِ المُرْتَجَلَة، والكتبِ المستَعْجَلَة، إلا خيرُ شاهدٍ على هذا، فتجدُ أحدَهُمْ يَتصدَّى للتأليفِ في مسألةٍ من المسائلِ الكِبَارِ النازِلةِ التي لو عرَضَتْ لعمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه، لَجَمَعَ لها أهلَ بَدْرٍ، يُؤلِّفُ فيها كتابًا كبيرًا في شهرٍ أو شهرين! ولو حَقَّقَ ودَقَّقَ لبدا له وبدا.

ولهذا؛ فقد جاء ذَمُّ العَجَلةِ في غيرِ ما حديثٍ عن النبيِّ ﷺ؛ منها حديثُ عائشةَ رضي الله عنها في «صحيحِ البُخاريِّ» مرفوعًا: **(إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ)**[1].

وحديثُ عبدِ اللهِ بنِ سَرْجِسَ رضي الله عنه مرفوعًا: **(السَّمْتُ الحَسَنُ والتُّؤَدَةُ وَالِاقْتِصَادُ جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ)**[2].

---

(١) «صحيح البخاري»، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم: باب إذا عرض الذمي وغيره (٦/ ٢٥٣٩) (٦٥٢٨).

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في «السنن»، كتاب البر والصلة: باب ما جاء في التأني والعجلة (٤/ ٣٢١ ـ ٣٢٢) (٢٠١٠)، وحسنه الترمذي والألباني.

وحديثُ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ الساعديِّ رضي الله عنه مرفوعًا: **(الأَنَاةُ مِنَ اللهِ، والعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ)**[(١)].

فالعجَلَةُ لا شك أنها تُؤدِّي إلى نتائجَ ضعيفةٍ، لا سيَّما في المسائلِ العلميَّةِ التي تحتاجُ إلى تَحَرٍّ وتأنٍّ وتؤدةٍ، وإليك بعضَ الأمثلةِ من حالِ سلفِنا الصالحِ:

فهذا عمرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه **يقولُ**: «إنِّي لا أَدَعُ بعدي شيئًا أهمَّ عندي من الكَلَالةِ، ما راجَعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ في شيءٍ ما راجعتُهُ في الكلالةِ، وما أغلَظَ لي في شيءٍ ما أغلَظَ لي فيه، حتى طعَنَ بإصبعِهِ في صدري، فقال: **(يَا عُمَرُ، أَلَا تَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ الَّتِي فِي آخِرِ سُورَةِ النِّسَاءِ؟!)**، وإنِّي إنْ أَعِشْ أَقْضِ فيها بقضيَّةٍ يقضي بها مَنْ يقرأُ القرآنَ ومَنْ لا يقرأُ القرآنَ»[(٢)].

قال النوويُّ: «وإنما أَخَّرَ القَضَاءَ فيها؛ لأنه لم يَظْهَرْ له في ذلك الوقتِ ظُهورًا يَحْكُمُ به، فأَخَّرَهُ حتى يَتِمَّ اجتهادُهُ فيه، ويستوفيَ نظَرَهُ، ويَتقرَّرَ عندَهُ حُكْمُهُ، ثم يقضي به ويُشِيعُهُ بين الناسِ»[(٣)].

وقال ابنُ القاسم: سمعتُ مالكًا يقولُ: «إني لأفكِّرُ في مسألةٍ منذُ بِضعَ عَشْرَةَ سنةً؛ فما اتَّفَقَ لي فيها رأيٌ إلى الآنِ!»[(٤)].

---

(١) الحديث رواه الترمذي في «السنن»، كتاب البر والصلة: باب ما جاء في التأني والعجلة (٤/ ٣٢٢) (٢٠١٢) بسندٍ حسن.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه»، كتاب المساجد ومواضع الصلاة: باب نهي من أكل ثومًا أو بصلًا... (١/ ٣٩٦) (٥٦٧)، وفي كتاب الفرائض، باب ميراث الكلالة (٣/ ١٢٣٦) (١٦١٧).

(٣) «المنهاج» للنووي (١١/ ٥٨).

(٤) «ترتيب المدارك» للقاضي عياض (١/ ١٧٨)، و«الديباج المُذْهَب» (ص٢٣).

وقال ابنُ مَهْديٍّ: سمعتُ مالكًا يقولُ: «ربَّما وَرَدَتْ عليَّ المسألةُ فأَسْهَرُ فيها عامَّةَ ليلي»[(١)].

وقال ابنُ عبدِ الحكمِ: «كان مالكٌ إذا سُئِلَ عن المسألةِ، قال للسائلِ: انصَرِفْ حتى أنظُرَ فيها، فيَنْصَرِفُ ويَتردَّدُ فيها، فقلنا له في ذلك، فبكى وقال: إني أخافُ أن يكونَ لي من السائلِ يومٌ وأيُّ يومٍ؟!»[(٢)].

وهذا الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ يقولُ: «ربَّما مَكَثْتُ في المسألةِ ثلاثَ سنينَ قبلَ أنْ أَعْتَقِدَ فيها شيئًا!»[(٣)].

وقال أيضًا: «كنتُ في كتابِ الحَيْضِ تِسْعَ سنينَ حتى فَهِمْتُهُ!!»[(٤)].

ومما يُسْتَمْلَحُ هنا: أنَّ أُسامةَ بنَ مُنْقِذٍ الأميرَ المجاهدَ المشهورَ، أَلَّف كُتُبَهُ بعدَ التسعينَ، فقد أَلَّف كتابَهُ «الاعتبار» وهو ابنُ تسعينَ سنةً! وكتابَ «لُبابِ الآداب» وهو ابنُ إحدى وتسعينَ سنةً![(٥)]

وهذا الإمامُ البيهقيُّ يقولُ عن «مختصرِ المُزَنيِّ» ـ في الفقهِ الشافعيِّ ـ: «لا أعلمُ كتابًا صُنِّفَ في الإسلامِ أعظمَ نفعًا وأعمَّ بركةً وأكثرَ ثمرةً من كتابِهِ»[(٦)]، **قال ابنُ خُزَيْمةَ: سمعتُ المُزَنيَّ يقولُ:** «كنتُ في تأليفِ هذا الكتابِ عشرينَ سنةً، وأَلَّفْتُهُ ثمانِ مرَّاتٍ وغَيَّرْتُهُ، وكنتُ كُلَّما أردتُّ تأليفَهُ أصومُ قبلَهُ ثلاثةَ أيامٍ وأُصلِّي كذا كذا ركعةً!»[(٧)].

فانظُرْ ـ يا رعاكَ اللهُ ـ إلى هذا، ثم اعتَبِرْ بحالِنا اليومَ، حيثُ تجدُ الواحدَ منَّا يُرِيدُ أنْ يَتصدَّرَ في أشهرٍ أو سنواتٍ قليلةٍ!!

---

(١) المصدرين السابقين. (٢) المصدرين السابقين.
(٣) «مناقب الإمام أحمد بن حنبل» لابن الجوزي (ص٢٦٩).
(٤) «طبقات الحنابلة» (١/٢٦٨).
(٥) **ينظر**: مقدمة الشيخ أحمد شاكر لكتاب: «لباب الآداب» (ص٢٥).
(٦) «مناقب الشافعي» (٢/٣٤٨).
(٧) المصدر نفسه (٢/٣٤٩)، و«المجموع» للنووي (١/١٠٧).

وحتى لو تَصدَّرَ فإنه لا يَثْبُتُ؛ لأنَّ العلمَ الذي يأتي بِسُرْعةٍ يضمحلُّ بسُرْعةٍ، وكم مَرَّ معي في كتبِ التراجمِ مِنْ أحوالِ العلماءِ الذين طلبوا العلمَ ثلاثينَ أو أربعينَ أو خمسينَ سنةً، بل ربَّما تمادى الحالُ ببعضِهم إلى أنْ يُدْرِكَهُ الموتُ وهو لا يزالُ طالبًا مُقيِّدًا، كما ذكر الحُمَيْديُّ في ترجمةِ الحسينِ بنِ عليٍّ الفاسي؛ **قال**: «لم يَزَلْ يطلُبُ ويَخْتلِفُ إلى العلماءِ مُحْتسِبًا حتى مات! حتى إنه اجتَمَعَ مع ابنِ حَزْمٍ يومًا، فقال له: يا أبا عليٍّ، متى تنقضي قِرَاءَتُكَ على الشيخِ؟ ـ وكان ابنُ حَزْمٍ يُرِيدُ سماعَ كتابٍ آخرَ من ذلك الشيخِ ـ فقال: إذا انقضى أَجَلِي! قال ابنُ حزمٍ: فاستَحْسَنْتُها منه»[(١)].

وقد مثَّل ابنُ الجوزيِّ هذا الأمرَ تمثيلًا لطيفًا حيث **يقولُ**: «شَجَرةُ الصَّنَوْبَرِ تُثْمِرُ في ثلاثين سنةً، وشَجَرةُ الدُّبَّاءِ تَصْعَدُ في أسبوعَيْن فتُدْرِكُ الصنوبرَ، فتقولُ شَجَرةُ الدُّبَّاءِ: إنَّ الطريقَ التي قَطَعْتِ في ثلاثين سنةً، قد قطعتُها في أُسبوعينِ، فيُقالُ لك: شجَرةٌ، ويُقالُ لي: شجَرةٌ، فتقولُ شَجَرةُ الصَّنَوْبَرِ: مَهْلًا إلى أنْ تهُبَّ رِياحُ الخريفِ!»[(٢)]، **يعني**: أنها لن تَثْبُتَ لها.

وفي هذا المعنى **يقولُ سَعْدِي الشِّيرازيُّ**:

وَالقَوْلُ لَمْ تُعْمِلْ بِهِ التَّأَمُّلَا ... كَالثَّوْبِ مِنْ غَيْرِ قِيَاسٍ فُصِّلَا

قَلِيلُهُ مِنْ بَعْدِ إِعْمَالِ الفِكَرْ ... أَفْضَلُ مِنْ طُولِ الكَلَامِ في الهَذَرْ

لَا تَرْمِ آلَافَ السِّهَامِ خَائِبَا ... وَارْمِ إِذَا تَعْقِلُ سَهْمًا صَائِبَا

والخلاصةُ: أنَّ المطلوبَ من المبدعِ هو التمهُّلُ والتريُّثُ وعدمُ

---

(١) **انظر**: «جذوة المقتبس» (١/ ٢٩٩).
(٢) «اللطائف» (ص٢٢).

استعجالِ النتائجِ، وليس لِزَامًا أن يبقى المُبْدِعُ يُعالِجُ مسألةً واحدةً دَهْرَهُ كلَّهُ؛ فإن هذا ليسَ بلازمٍ، وإنما الشأنُ **كما قيلَ**:

خَيْرُ الأُمُورِ الوَسَطُ الوَسِيطُ وَشَرُّهَا الإِفْرَاطُ وَالتَّفْرِيطُ

رابعًا: الانصرافُ الكُلِّيُّ للعلمِ، ومُوَاصَلَةُ البحثِ فيه:

هذا الأمرُ من المهمَّاتِ لدى طالبِ العلمِ الذي يَنْشُدُ الإبداعَ، فينبغي أن يكونَ وقتُهُ كلُّهُ مُستَنْفَدًا في البحثِ والنظرِ، والتقييدِ والدرسِ، والقراءةِ والحفظِ... إلخ، فليس في قاموسِ المُبْدِعِ شيءٌ يُسمَّى فراغًا، بل ينبغي أن يكونَ وقتُهُ كلُّهُ مشغولًا بما ذَكَرتُ؛ فإن العالِمَ لا يُؤمِنُ بالرَّاحَةِ ولا يرتضيها؛ **ولهذا درَجَ السَّلَفُ على مقولةِ**: «لا يُستطاعُ العلمُ براحةِ الجسمِ»(١)؛ فكيفَ بالإبداعِ؟!

---

(١) هذه المقولة العظيمة توارد عليها عددٌ من العلماء، **ولعل أوَّل من قالها**: هو يحيى بن أبي كَثِير رحمه الله تعالى. **انظر**: «صحيح مسلم» (١/٤٢٨)، و«المحدِّث الفاصل» للرامهرمزي (ص٢٠٢)، و«جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (١/٩١)، وقد نظم هذه المقولة **بقوله**:

قَالَ الحَكِيمُ مَقَالًا لَيْسَ يَدْفَعُهُ ذُو العَقْلِ مَنْ كَانَ مِنْ عُجْمٍ وَمِنْ عَرَبِ
مَا إِنْ يَنَالُ الفَتَى عِلْمًا وَلَا أَدَبًا بِرَاحَةِ النَّفْسِ وَاللَّذَّاتِ وَالطَّرَبِ
نَعَمْ وَلَا بِاكْتِسَابِ المَالِ تَجْمَعُهُ شَتَّانَ بَيْنَ اكْتِسَابِ العِلْمِ وَالذَّهَبِ

و«الغنية» (ص١٥٤)، و«ترتيب المدارك» (٣/٣٨٦)، و«الإلماع» (ص٢٣٤)، و«إكمال المُعْلِم» (٢/٥٧٧)؛ أربعتها للقاضي عياض، و«شرح النووي على صحيح مسلم» (٥/١١٥) - وفيه وفي الذي قبله ذكرُ سببِ إدخالِ مسلم هذه الحكايةَ في «صحيحه»، مع أنه لا يذكُرُ في كتابه إلا أحاديثَ النبي ﷺ محضةً - و«علوم الحديث» لابن الصلاح (ص٢٦) وما دار في فلكه، و«التعريف بالقاضي عياض» لابنه محمد (ص٧٩).

كائنةٌ غريبةٌ: قال يحيى بن إسحاق: ذكر يحيى بن يحيى حديثًا يرويه عن يحيى بن أبي كَثِير، قال: «لا يستطاعُ العلمُ براحة الجسم»، **قال**: وإنَّ رجلًا ممَّن بلغه هذا الحديث من طلبة العلم، ذكره وهو على بَطْن امرأته، قبل أن يفضي إليها، فأخَذَ دفترًا من العلم ينظُرُ فيه!! «ترتيب المدارك» (٣/٣٨٦).

والشقاءُ في الطلبِ والتحصيلِ أمرٌ مُحبَّبٌ للنفوسِ الوَثَّابةِ؛ لأنه يُوْصِلُ إلى المُرَادِ، ولله درُّ أبي الفتحِ البُسْتيِّ **حيث يقولُ:**

يَقُولُونَ كَمْ تَشْقَى بِدَرْسٍ تُدِيمُهُ ... وَتُمْعِنُ فِيهِ دَائِبًا كُلَّ إِمْعَانِ؟!

فَقُلْتُ ذَرُونِي إِنَّمَا أَنَا كَادِحٌ ... لِأُكْمِلَ ذَاتِي أَوْ لِأَجْبُرَ نُقْصَانِي

إِذَا لَمْ يَكُنْ نُقْصَانُ عُمْرِي زِيَادَةً ... لِعِلْمِي فَإِنِّي وَالبَهِيمَةَ سِيَّانِ!

ولذا لم يَسْمَحِ العلماءُ لأيِّ إنسانٍ كائنًا مَنْ كان بتضييعِ شيءٍ من أوقاتِهم، أو شَغْلِهم عن الدَّرْسِ والبحثِ والتحصيلِ؛ **حتى إنَّ ابنَ الجَوْزيِّ كان يقولُ:** «لقد رأيتُ خلقًا كثيرًا يَجْرُونَ معي فيما قد اعتاده الناسُ مِنْ كثرةِ الزيارةِ، ويُسمُّونَ ذلك التردُّدَ خِدْمةً، ويطلبون الجلوسَ، ويجرونَ فيه أحاديثَ الناسِ وما لا يعني، وما يَتخلَّلُهُ غِيبَةٌ، وهذا شيءٌ يفعلُهُ في زمانِنا كثيرٌ من الناسِ، وربَّما طَلَبَهُ المَزُورُ وتَشَوَّقَ إليه، واستَوْحَشَ من الوَحْدةِ، وخصوصًا في أَيَّامِ التهاني والأعيادِ، فتراهم يمشي بعضُهم إلى بعضٍ، ولا يقتصرون على الهَنَاءِ والسلامِ، بل يَمْزُجُونَ ذلك بما ذكرتُهُ مِنْ تضييعِ الزمانِ، فلما رأيتُ أنَّ الزمانَ أشرفُ شيءٍ، والواجبُ انتهابُهُ بفعلِ الخيرِ، كَرِهْتُ ذلك، وبَقِيتُ معهم بين أمرين:

إنْ أنكرتُ عليهم وقَعَتْ وحشةٌ؛ لموضعِ قطعِ المألوفِ، وإن تَقَبَّلْتُهُ منهم ضاعَ الزمانُ؛ فصِرْتُ أدافعُ اللقاءَ جُهْدي، فإذا غُلِبتُ قَصَّرْتُ في الكلامِ؛ لأتعجَّلَ الفِرَاقَ، ثم أَعْدَدتُ أعمالًا لا تمنعُ من المحادثةِ لأوقاتِ لقائِهم؛ لئلَّا يمضيَ الزمانُ فارغًا، فجَعَلْتُ من المستَعَدِّ للقائِهم: قطعَ الكاغَدِ، وبَرْيَ الأقلامِ، وحَزْمَ الدفاترِ؛ فإنَّ هذه الأشياءَ لا بدَّ منها ولا تحتاجُ إلى فكرٍ وحضورِ قلبٍ، فأَرْصَدتُّها لأوقاتِ زيارتِهم؛ لئلَّا

يضيعَ شيءٌ من وقتي؛ نسألُ الله ﷻ أن يعرّفَنا شرفَ أوقاتِ العمرِ، وأن يُوفِّقَنا لاغتنامِهِ!»[١].

وأعجبُ من هذا حالُ الإمامِ أبي بكرِ ابنِ الأنباريِّ اللغويِّ المُفسِّرِ؛ فقد حدَّث عن نفسِهِ أنه مضى يومًا إلى سوقِ النَّخَّاسينَ، وجاريةٌ تُعْرَضُ حسنةٌ كاملةُ الوصفِ، **قال**: «فوَقَعَتْ في قلبي، ثم مضيتُ إلى أميرِ المؤمنينَ الراضي، فقال لي: أينَ كنتَ إلى الساعةِ؟ فعرَّفْتُهُ، فأمَرَ بعضَ أسبابِهِ، فمضى فاشتراها، وحمَلَهَا إلى منزلي، فجِئْتُ فوَجَدتُها، فعلمتُ الأمرَ كيف جرى، فقلتُ لها: كوني فوقُ إلى أَنْ أَسْتَبْرِئَكِ، وكنتُ أطلُبُ مسألةً قد أُحِيلَتْ عليَّ، فاشتَغَلَ قلبي، فقلتُ للخادمِ: خُذْها وامضِ بها إلى النَّخَّاسِ، فليس قَدْرُها أن تشغلَ قلبي عن علمي! فأخَذَهَا الغلامُ، فقالتْ: دعني أُكَلِّمْهُ بحرفَيْنِ، فقالت: أنتَ رجلٌ لك مَحَلٌّ وعقلٌ، وإذا أَخْرَجْتَني ولم تُعيِّنْ لي ذنبي، لم آمَنْ أن يَظُنَّ الناسُ فيَّ ظنًّا قبيحًا، فَعَرِّفْنِيهِ قبلَ أن تُخْرِجَني، فقلتُ لها: ما لكِ عندي عَيْبٌ غيرَ أنكِ شغلتِني عن علمي، فقالتْ: هذا أسهلُ عندي، فبلَغَ الراضيَ أمرُهُ، فقال: لا ينبغي أن يكونَ العلمُ في قلبِ أحدٍ أحلى منه في صدرِ هذا الرجلِ!»[٢].

فما بالُ الطُّلَّابِ اليومَ يرومون الإبداعَ والتفوُّقَ وقد شغلوا أنفُسَهم بتهاويلِ الأقاويلِ والحكايات، وتخاليطِ المواقعِ والمنتديات، فاستحقُّوا بذلك وصفَ (شيوخِ القَمْراءِ)![٣].

---

(١) «صيد الخاطر» (ص٣٨٥). (٢) «تاريخ بغداد» (٣/ ١٨٤ ـ ١٨٥).

(٣) **كان الأعمش يقول**: «إذا رأيت الشيخ ولم يكتُبِ الحديثَ فاصفَعْهُ؛ فإنه من شيوخ القَمْراء!»، قلت (القائل: سهل بن إسماعيل) لابن عقبة (أحد رواة الأثر): ما معنى شيوخ القَمْراء؟ قال: شيوخٌ دُهْرِيُّون يجتمعون في ليالي القمر، فيتحدَّثون بأيام الخلفاء، ولا يحسن أحدهم أن يتوضَّأ للصلاة! «المحدِّث الفاصل» (ص٣٠٦).

۞ **فينبغي للطالبِ الذي يَنْشُدُ الإبداعَ:** أنْ يجعلَ أنيسَهُ وجليسَهُ الكُتُبَ والأسفارَ؛ فإنه إذا اتَّخَذَ الكتابَ أنيسًا وجليسًا، كان ذلك أَعْوَدَ عليه بالفائدة، وأرجى لجميلِ العائدة.

ولْيَجْعَلْ قُدْوَتَهُ في هذا الإمامَ الآلوسيَّ حيثُ ذكَرَ في مقدِّمةِ تفسيرِهِ «روحِ المعاني» رحلتَهُ مع القرآنِ وتفسيرِهِ منذُ كان شابًّا يافعًا، **فقال:** «إني ـ وللهِ تعالى المِنَّةُ ـ مُذ مِيطَتْ عنِّي التمائمْ، ونِيطَتْ على رأسي العمائمْ، لم أَزَلْ متطلِّبًا لاستكشافِ سِرِّهِ المكتومْ، مترقِّبًا لارْتِشافِ رحيقِهِ المختومْ، طالما فَرَّقْتُ نومي لجمعِ شوارِدِهْ، وفارَقْتُ قومي لوصالِ خَرائِدِهْ، فلو رَأَيْتَني وأنا أُصافِحُ بالجبينِ صَفَحَاتِ الكتابِ من السَّهَرْ، وأُطالعُ ـ إنْ أَعْوَزَ الشمعُ يومًا ـ على ضوءِ القَمَرْ، في كثيرٍ من ليالي الشَّهَرْ، وأمثالي إذْ ذاكَ يَرْفُلُونَ في مَطَارِف اللَّهْو، ويُرْقِلُونَ في ميادينِ الزَّهْو، ويُؤْثِرُونَ مَسَرَّاتِ الأشباحْ، على لَذَّاتِ الأرواحْ، ويَهَبُونَ نفائسَ الأوقاتْ، لِنَهْبِ خسائسِ الشَّهَواتْ، وأنا مع حداثةِ سنِّي، وضيقِ عَطَني، لا تَغُرُّني حالُهم، ولا تُغيِّرُني أفعالُهم، كأنَّ لُبْنَى لُبانتي، ووِصَالَ سُعْدَى سَعَادتي، حتى وقَفْتُ على كثيرٍ من حقائِقِهْ، ووُفِّقْتُ لحلِّ وفيرٍ من دقائِقِهْ، وثَقَبْتُ ـ والثناءُ لله تعالى ـ مِنْ دُرِّهِ بقلمِ فكري دُرًّا مُثْمَنًا، ولا بِدْعَ؛ فأنا ـ مِنْ فضلِ الله ـ الشهابُ وأبو الثَّنَا، وقبلَ أن يَكْمُلَ سني عشرينَ جعَلْتُ أَصْدَحُ به وأَصْدَعْ، وشرَعْتُ أدفعُ كثيرًا من إشكالاتِ الأشكالِ وأَدْفَعْ، وأَتجاهَرُ بما ألهمنيه ربي ممَّا لم أَظْفَرْ به في كتابٍ من دقائقِ التفسيرْ، وأُعلِّقُ على ما أَغْلَقَ مما لم تَعْلَقْ به ظُفْرُ كلِّ ذي ذهنٍ خطيرْ، ولستُ أنا أوَّلَ مَنْ مَنَّ اللهُ تعالى عليه بذلكْ، ولا آخِرَ مَنْ سلَكَ في هاتيكَ المسالكْ، فكم وكم للزمانِ وَلَدٌ مثلي، وكم تفضَّلَ الفَرْدُ

ـ عز شأنُهُ ـ على كثيرٍ بأضعافِ فضلي»[١].

وبنحوِ ذلك سار الشهابُ الخفاجيُّ، كما أخبَرَ بذلك عن نفسِهِ[٢].

وليُحاوِلْ مريدُ التفوُّقِ أن يَصْدُقَ عليه **ما قاله الشاعرُ المصريُّ صالح جَوْدَت في وصفِ الباحثِ الطُّلَعَةِ**[٣]:

وَيَرَى فِي الكُتْبِ دُونَ النْـ	ـنَاسِ أَحْبَابًا وَسَامِرْ
عَاكِفًا كَالعَابِدِ الْخَا	شِعِ فِي ظِلِّ الشَّعَائِرْ
نَابِشًا بَيْنَ التَّوَارِيـ	ـخِ كَجَلَّابِ الحَفَائِرْ
غَارِقًا بَيْنَ القَوَامِيـ	ـسِ كَغَوَّاصِ الجَوَاهِرْ
يُرْضِعُ الأَوْرَاقَ بِالحِكْـ	ـمَةِ مِنْ ثَدْيِ المَحَابِرْ
وَيُضَحِّي لِكِتَابٍ	ذَاهِبِ الطَّبْعَةِ نَادِرْ
حَافِظًا كُلَّ قَدِيمٍ	دَارِسًا كُلَّ مُعَاصِرْ
هَاتِفًا يَا عُصْبَةَ الْمَا	لِ وَطُلَّابَ المَظَاهِرْ
كُلُّ مَا أَطْلُبُ مِنْ دُنْـ	ـيَاكُمُ بَعْضُ الدَّفَاتِرْ!

ولا يُفْهَمُ من هذا أنني أدعو إلى العُزْلةِ التامَّةِ عن الناسِ، والانطواءِ على النفسِ، كَلَّا! ولكنْ لا بُدَّ للإنسانِ من وقتٍ يخلو فيه بنفسِهِ؛ ليتدبَّرَ ويتمعَّنَ ويقرأَ ويبحثَ، أمَّا أنْ يَبْقَى وقتَهُ كلَّهُ أو جُلَّهُ مشغولًا مع مَنْ لا ينفعُ بما لا ينفعُ، فهذا فيه دَمَارُ الأعمارِ، وفواتُ الأوقاتِ؛ **كما قال الحُمَيْديُّ**[٤]:

---

(١) «روح المعاني» (١/ ٣).

(٢) **انظر**: «ريحانة الألبا، وزهرة الحياة الدنيا» (ص٤).

(٣) من ديوانه «ألحان مصرية» بشيءٍ من التصرف.

(٤) **انظر**: «الآداب الشرعية» لابن مفلح (٣/ ٤٥٦)، و«غذاء الألباب» للسَّفَّاريني (٢/ ٤٧٦).

لِقَاءُ النَّاسِ لَيْسَ يُفِيدُ شَيْئًا سِوَى الهَذَيَانِ مِنْ قِيلٍ وَقَالِ
فَأَقْلِلْ مِنْ لِقَاءِ النَّاسِ إِلَّا لِأَخْذِ العِلْمِ أَوْ إِصْلَاحِ حَالِ

خامسًا: التَّصَوُّرُ الصحيحُ للفَنِّ، والتخطيطُ السَّلِيمُ له:

إنَّ التَّصوُّرَ الصحيحَ للفنِّ والتخطيطَ السَّليمَ له، سبيلٌ لفهمِ ذلك الفنِّ والإبداعِ فيه؛ حيثُ يُعرِّفُ الراغبَ موالجَ الفنِّ ومَخارجَهْ، ويريه مَهَاوِيَ الطريقِ ومَعَارِجَهْ، ويُبصِّرُهُ أين يضعُ قدَمَهْ، ومتى يستلُّ قلَمَهْ، وما هي الثَّغْراتُ في ذلك العلمِ التي تحتاجُ إلى بحثٍ وتتبُّعٍ واستقراءٍ ليُحاولَ مَلْأَها، ولا يزالُ يسيرُ به سيرًا حثيثًا؛ حتى يتملَّكَ ذلك الفنَّ ويَتصرَّفَ فيه كيفما شاء.

ويُعِينُ على هذا الأمرِ الدراساتُ الوصفيَّةُ التي تَصِفُ الفنَّ وتَطَوُّرَهُ والمراحلَ التي مرَّ بها، وتصفُ كذلك المُصنَّفاتِ في ذلك الفنِّ، وكذلك الكتبُ التي تُعْنَىٰ بدراسةِ الشخصيَّاتِ البارزةِ في الفنِّ نفسِهِ.

والتصوُّرُ الصحيحُ للفَنِّ منذُ البدايةِ يُيسِّرُ على الدارسِ عدةَ أمورٍ:

١ ـ أنه يُسهِّلُ مواصلةَ السَّيْرِ في ذلك الفنِّ إلى النهايةِ؛ **كما قال الإمامُ الغزاليُّ**: «كلُّ علمٍ لا يستولي الطالبُ في ابتداءِ نظرِهِ على مَجَامِعِهِ ولا مَبَانيهْ، فلا مَطْمَعَ له في الظَّفَرِ بأسرارِهِ ومَبَاغِيهْ»[(١)].

٢ ـ أنه يُعِينُ الدارسَ على الاقتصادِ في الوقتِ والجهدِ، فإنَّ الذي يَتصوَّرُ الشيءَ جُمْلةً منذُ البدايةِ، لا شكَّ أنه لن يستغرقَ وقتًا طويلًا في فهمِ ذلك الفنِّ، والإحاطةِ به، ولن يستهلكَ كثيرًا مِنْ مواهبِهِ وجُهْدِهِ في دراستِهِ وفهمِهِ، بخلافِ ما لو أنه لم يَتصوَّرِ العلمَ تمامًا؛ فإنه سيقعُ في عناءٍ لا داعيَ له.

---

(١) «المستصفى» (١/ ٤).

وقد عانى مِنْ هذا الأمرِ كثيرٌ من العلماءِ، منهم العَلَّامةُ الطاهرُ بنُ عاشورٍ؛ **حيثُ يقولُ**: «إنِّي على يقينٍ أنَّني لو أُتِيحَ لي في فَجْرِ الشبابِ التشبُّعُ مِنْ قواعدِ نظامِ التعليمِ والتوجيهِ، لَاقْتَصَدْتُ كثيرًا من مواهبي، ولاكتَسَبْتُ جَمًّا من المعرفةِ، ولَسلِمْتُ من التطوُّحِ في طرائقَ تَبيَّنَ لي بعدَ حينِ الارتدادُ عنها!»(١).

وأزيدُ هذا الأمرَ جَلَاءً فأقولُ: إنَّ كثيرًا من العلومِ ـ خصوصًا علومَ الآلةِ ـ علومٌ سَهْلةٌ محصورةٌ، لكنَّ كَثْرةَ المُجادَلَاتِ والمُناقَشَات، والتفريعاتِ والافتراضات، هي التي نَفَخَتْها وَوَعَّرَتْها، وأنتَ واجدٌ ـ عندَ التحقيقِ ـ أنه لا جَدْوَى لجمهرةٍ غالبةٍ من مسائلِها، وأنه لا يَترتَّبُ عليها كبيرُ عَمَلٍ، **وما أصدقَ قولَ من قال**: «العِلْمُ نُقْطةٌ كثَّرَهَا الجاهلون!!»(٢).

---

(١) «أليس الصبح بقريب» (ص٩).

(٢) هذه المقالة البليغة تنسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقد اعتنى بها العلماء فأفردوا في شرحها مصنَّفاتٍ مستقلةً، منها: «زيادة البسطة، في بيان العلمُ نُقْطة» لعبد الغني النابلسي (ت١١٤٣هـ)، و«نثر الدر وبسطه، في بيان كون العلم نقطة» لأحمد بن محيي الدين الإغريسي الجزائري (ت١٣٢٠هـ).

أما معناها فقال بعض العلماء: **أي**: صاروا سببًا للكثرة حيث ما فهموا إجمالًا.

وقال بعضهم: **أي**: صاروا (**يعني**: الجاهلين) سببًا في التكثير لحصول التيسير، ومن ثمةَ احتاج الشرحُ إلى الشرح»، وهلمّ جرًّا.

ومن لطيف شعر عبد الغني النابلسي **قوله**:

أَنُقْطَةُ الْعِلْمِ نُقْطَةُ الخَالِ ... في الخَدِّ مِمَّا يَشِينُهُ الخَالِي
كَثَّرَهَا الجَهْلُ وَهْيَ وَاحِدَةٌ ... مَا مِثْلُهَا في زَمَانِنَا الخَالِي!

انظر: «سلك الدرر، في أعيان القرن الثاني عشر» للمرادي (٣/ ٣٦)، و«حلية البشر، في تاريخ القرن الثالث عشر» للبيطار (١/ ٣٠٥)، و«مرقاة المفاتيح، شرح مشكاة المصابيح» (٢/ ٦٨٢)، و«شرح نخبة الفكر» (ص١٥٠)؛ كلاهما لملا علي قاري، و«كشف الخفاء ومزيل الإلباس» للعجلوني (٢/ ٦٧)، و«إيضاح المكنون» (٣/ ٦٢١)، و«هدية العارفين» (١/ ٥٩٢)؛ كلاهما للبغدادي، و«تاج العروس» للزَّبيدي =

٣ ـ أنه يجعلُ الدارسَ في منأى عن التخبُّطِ والتخليطِ والدَّورانِ في حَلْقةٍ مُفْرَغةٍ؛ كما وقَعَ لجماعةٍ من العلماءِ دخَلُوا في علومٍ مذمومةٍ لم يتصوَّروها حقَّ التصورِ، ولم يُدْرِكُوا مراميَها وغاياتِها، فوَقَعُوا في الحَيْرَةِ والتخبُّطِ ولم يصلوا فيها إلى شيءٍ! وأقلُّ أحوالِهم أنهم ضيَّعوا أوقاتَهم فيما لا جَدْوَى من ورائِهِ، كما حصَلَ لبعضِ العلماءِ الذين دخلوا في علمِ الكلامِ المذمومِ، منهم: الجُوَيْنِيُّ، والرَّازِيُّ، وابنُ أبي الحَدِيدِ، والغزاليُّ، والشَّهْرَسْتانيُّ، والخُسْرُوشاهيُّ، والخُونَجِيُّ، والكَرَابيسيُّ، وابنُ واصلٍ الحَمَويُّ، والشوكانيُّ ـ في أولِ أمرِهِ ـ وغيرُهم[١].

فإذا تَمَّ لك ـ أيها الراغبُ ـ التصوُّرُ الصحيحُ للعلمِ المرادِ، فعليك بعدَ ذلك بالتخطيطِ السليمِ له؛ من حيثُ الكَمُّ والوَقْتُ والصاحبُ، على المدى البعيدِ، ولا تكُنِ ابنَ يَوْمِكَ فحَسْبُ، بل كُنِ ابنَ يَوْمِكَ وغَدِكَ، **واستَمِعْ إلى ابنِ عباسٍ** رضي الله عنهما يحكي لك كيف كان يَطْلُبُ العلمَ، وكيف خطَّطَ للمُستقبَلِ؛ فقد أخرَجَ الحاكمُ عنه أنه **قال**: «لمَّا قُبِضَ رسولُ اللهِ ﷺ قلتُ لرجلٍ من الأنصارِ: هلُمَّ فلْنَسْأَلْ أصحابَ رسولِ الله ﷺ؛ فإنَّهم اليومَ كثيرٌ، فقال: وا عجبًا لك يا ابنَ عباسٍ! أَتُرَى الناسَ يفتقرون إليك، وفي الناسِ مِنْ أصحابِ رسولِ الله ﷺ مَنْ فيهم؟! قال: فتَرَكْتُ ذاك، وأقبَلْتُ أسألُ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ، وإنْ كان يَبْلُغُني الحديثُ عن الرجلِ، فآتي بابَهُ وهو قائلٌ فأَتَوَسَّدُ ردائي على بابِهِ، تَسْفِي الرِّيحُ

= (٢٠/١٥٣)، و«حاشية لقط الدرر، بشرح متن نخبة الفكر» للعدوي (ص٢٦)، و«معجم المؤلفين» لكَحَّالة (٢/ ١٧٣)، و«التعالم» لبكر أبو زيد (ص٧).

(١) **انظر مقالاتهم في**: «درء تعارض العقل والنقل» لابن تيمية (١/ ١٥٩ـ ١٦٥)، و«شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (١/ ٢٤٣)، و«أدب الطلب» للشوكاني (ص١٨٩)، و«موسوعة أهل السُّنَّة» لعبد الرحمٰن دمشقية (٢/ ٧٤٢)، و«منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد» لعثمان علي حسن (٢/ ٧٤٠).

عليَّ من التُّرابِ، فيخرُجُ فيراني، فيقولُ: يا ابنَ عمِّ رسولِ اللهِ ﷺ! ما جاء بك؟ هَلَّا أرسلتَ إلَيَّ فآتِيَكَ؟ فأقولُ: لا، أنا أَحَقُّ أنْ آتِيَكَ، قال: فأَسْأَلُهُ عن الحديثِ، فعاشَ هذا الرجلُ الأنصاريُّ حتى رآني وقدِ اجتَمَعَ الناسُ حولي يسألونني، فيقولُ: هذا الفتى كان أَعْقَلَ مِنِّي!»[(١)].

أَمَّا إذا لم تستطعِ التخطيطَ لنفسِكَ، فاستَعِنْ بمَنْ سبقَكَ ومَنْ هو أعلمُ منك، خصوصًا مَنْ كان مِنْ أهلِ ذلك العلمِ المرادِ، فقد كانوا يسألون عن ذلك ويتطلَّبونَهُ، كما جاء عن يحيى بنِ مجاهدٍ الفَزَاريِّ **عندما قال**: «هذا أوانُ طلبي للعلمِ؛ إِذْ قَوِيَ فهمي، واستَحْكَمَتْ إرادتي»، قال بعضُ تلاميذِهِ: فقلتُ له: فعَلِّمْنا الطريقَ لعلَّنا ندركُ ذلك باستقبالِ أعمارِنا، **قال**: «نعم، كنتُ آخُذُ مِنْ كلِّ علمٍ طرفًا؛ فإنَّ سماعَ الإنسانِ قومًا يَتكلَّمونَ في علمٍ وهو لا يدري ما يقولونَ غُمَّةٌ عظيمةٌ»[(٢)].

ثم إذا حصَلَ لك ذلك ـ من التصوُّرِ الجيِّدِ، والتخطيطِ السليم ـ فالتَزِمْ به، وعَضَّ عليه بالنواجذِ، ولا تُضيِّعْ شيئًا منه، أو تُؤخِّرْهُ لأيِّ سببٍ كان، واجْعَلْهُ واجبًا عليك، وفرضًا لازمًا لا تنفكُّ عنه، ولا تَنْسَ أنَّ أَحَبَّ الأعمالِ إلى اللهِ ما كان ديمةً وإنْ قَلَّ، **وكان الإمامُ أحمدُ يقولُ**: «يُعْجِبُني أنْ يكونَ للرجلِ رَكَعاتٌ من الليلِ والنهارِ معلومةٌ؛ فإذا نَشِطَ طوَّلها، وإذا لم يَنْشَطْ خفَّفها»[(٣)].

وقد مَرَّتْ عليَّ أخبارُ نَفَرٍ من أهلِ العلمِ، كانوا يلتزمون بَرْنامجًا يوميًّا مُحدَّدًا، ولا يمكنُ أنْ يُؤَثِّرَ عليهم أيُّ مؤثِّرٍ في تسلسُلِ بَرْنامجِهم،

---

(١) «المستدرك» للحاكم (١/ ١٠٦) **وقال**: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري؛ وهو أصلٌ في طلب الحديث، وتوقير المحدِّث»، ووافقه الذهبي.

(٢) «جذوة المقتبس» للحُمَيْدي (٢/ ٦٠٥).

(٣) «غذاء الألباب» للسَّفَّاريني (٢/ ٥٠٧).

مهما كان ذلك المؤثِّرُ؛ منهم يحيى بنُ قاسمٍ القَيْسِيُّ الفقيهُ العالمُ العابدُ؛ فقد كان يغدو إلى المسجدِ لصلاةِ الصبحِ فيصلِّي فيه، ثم يَقْعُدُ في مُصلَّاهُ إلى الضحى، فيصلِّيها وينصرفُ إلى دارِهِ، فَيَقِيلُ إلى الظهرِ فيصلِّيها، ويصلِّي العصرَ، ويجلسُ في المسجدِ إلى المغربِ فيصلِّيها، ويصلِّي إلى العَتَمةِ. . . وتَزوَّجَ بامرأةٍ، فدخَلَتْ عليه في السَّحَرِ وقتَ خروجِهِ إلى المسجدِ، فسلَّم عليها ودعا لها، ثم خرَجَ، فلَزِمَ ترتيبَهُ ولم يدَعْهُ![1].

وقريبٌ من ذلك قصَّةُ أَدِيسُون؛ فإنَّهم بحثوا عنه في يومِ زَوَاجِهِ، فوجدوه منهمكًا على تجاربِهِ في المعملِ! وغيرُهم كثيرٌ.

لكنَّ الالتزامَ بالبَرْنامجِ الدقيقِ أصبَحَ من يُطَبِّقُهُ اليومَ ويُحافظُ عليه ـ وواأسفى ـ هم غيرَ المسلمينَ، أمَّا معظمُ المسلمينَ اليومَ فجُهُودُهم ـ في الغالبِ ـ مبعثرةٌ، وحياتُهم غيرُ منظَّمةٍ؛ **ولقد صدَقَ من قال**[2]:

دَرَجْنَا عَلَى فَوْضَى أَضَاعَتْ جُهُودَنَا وَغَالَوْا بِتَرْتِيبِ الجُهُودِ وَأَقْدَمُوا

وَقَدْ يَرْجِعُ الحَقُّ المُشَوَّشُ خَائِبًا وَيَنْتَصِرُ البُطْلَانُ وَهْوَ مُنَظَّمُ!

سادسًا: بقاءُ المُبْدِعِ في جَوٍّ علْميٍّ كاملٍ:

بحيثُ يكونُ المحيطُ الذي يعيشُ فيه محيطًا علميًّا؛ فإنَّ هذا أَرْجَى للإبداعِ والتفوُّقِ، وإن لم يكنْ كذلك فلْيُحَاوِلْ جُهْدَهُ أنْ يُطوِّعَ الواقعَ من حولِهِ ليكونَ كذلك.

ولذا نَجِدُ أنَّ الدولَ الكبرى تَحْرِصُ على أن تُنشئَ مُدُنًا جامعيةً متكاملةً، فيها المساكنُ والخِدْماتُ المعيشيةُ ووسائلُ الترفيهِ؛ حتى يبقى

---

(١) «ترتيب المدارك» للقاضي عياض (٤/٤٢٨).

(٢) «رباعيات مختارة» لإلياس قنصل (ص١١٧).

الأستاذُ والطالبُ طِيْلَةَ الأسبوعِ داخلَ هذه الدائرةِ العلميةِ.

ولقد كان العُلَماءُ قديمًا يَحْرِصُون ويتطلَّبون مثلَ هذه الأماكنِ المهيَّأَةِ للعلمِ مهما شَطَّتْ ونَأَتْ، وما الرِّحْلةُ في طلبِ العلمِ إلَّا خيرُ شاهدٍ على هذا، بل رُبَّما ترَكَ أحدُهم مَسْقَطَ رأسِهِ ومَحَلَّةَ قومِهِ، ورحَلَ إلى بلدٍ يبقى فيه حتى يموتَ، كما حصَلَ لجماعةٍ من العلماءِ؛ منهم: مَعْمرُ بنُ راشدٍ الصَّنْعانيُّ، فإنه بَصْريٌّ من الطارئينَ على اليَمَنِ، لكنَّه طاب له المقامُ فيها، فبقي فيها حتى تُوفِّي(١).

ومثلُهُ أبو الفضلِ المَرَاغِيُّ؛ حيث رحَلَ لطلبِ العلمِ في بَغْدادَ ـ وكانت بغدادُ في ذلك الوقتِ قاعدةَ الخِلَافةِ، وحاضرةَ الدنيا ـ فمكَثَ يطلُبُ العلمَ فيها خمسَ سنين، ثم رحَّل دَابَّتَهُ ووضَعَ عليها مَتَاعَهُ وخرَجَ إلى الحَلْبةِ يُرِيدُ طريقَ خُراسانَ لِيَرْجِعَ إلى بلدِهِ، وتَقدَّمَهُ الكَرِيُّ(٢) بالدَّابَّةِ، وأقام هو على فَامِيٍّ(٣) يبتاعُ طعامَهُ، فبينما هو يُحاولُ ذلك معه؛ إذْ سمعَهُ يقولُ لفاميٍّ آخرَ: أيْ فُلُ! (**يعني**: يا فلانُ) أمَا سَمِعْتَ العالمَ يقولُ: إنَّ ابنَ عباسٍ يُجوِّزُ الاستثناءَ ولو بعدَ سنةٍ، لقد اشتَغَلَ بالي بذلك منه منذُ سمعتُه يقولُ، وظَلِلْتُ فيه مفكِّرًا، ولو كان ذلك صحيحًا، لَمَا قال الله تعالى لأيوبَ: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤]، وما الذي يمنعُهُ من أنْ يقولَ له حينئذٍ: قُلْ إنْ شاءَ الله! فلمَّا سمعتُهُ يقولُ ذلك، قلتُ: بَلَدٌ يكونُ الفاميُّونَ به من العلمِ في هذه المرتبةِ أَخْرُجُ عنه

---

(١) «السير» للذهبي (٧/٨).

(٢) **الكَرِيّ**: هو الذي يُؤْجِرُكَ دابته، فَعِيل بمعنى مُفْعِل. **انظر**: «المعجم الوسيط» مادة: (ك ر ي).

(٣) **الفاميّ**: هو بائع الطعام من بُقُول وخبز ونحوها، مغيَّر عن فُومِيّ. **انظر**: «القاموس المحيط» مادة: (ف و م).

إلى المراغةِ؟![1] لا أفعلُهُ أبدًا، واقتفى أثَرَ الكَرِيِّ، وحَلَّلَهُ مِنَ الكِراءِ، وصرَفَ رَحْلَهُ، وأقام ببغدادَ حتى مات![2].

ولهذا لمَّا مَرَّ العزُّ بنُ عبدِ السلامِ بالكَرَكِ ـ بعدَ أنْ غَضِبَ عليه والي دمشقَ ـ تلقَّاه واليها بالتَّرْحابِ، وسأله الإقامةَ عندَهُ، **فقال له العِزُّ**: «بَلَدُكَ صغيرٌ على عِلْمي!»[3].

وعليه: فلْيَحْرِصْ طُلَّابُ الجامعاتِ على الاستفادةِ من كلِّ لحظةٍ يقضونها أثناءَ دراستِهم الجامعيةِ؛ لأن الفترةَ محدودةٌ؛ والوقتَ يمُرُّ مرَّ السحابِ.

سابعًا: الاستقصاءُ في البَحْثِ، والاستفادةُ ما أَمْكَنَ مِنَ الغيرِ، والبدايةُ مِنْ حيثُ انْتَهَوْا:

وهذا أمرٌ يَغْفُلُ عنه كثيرٌ ممَّن يُرِيدُ أنْ يُبْدِعَ؛ فإنَّ الإنسانَ لا يستطيعُ أنْ يُبْدِعَ في مسألةٍ أو علمٍ إلَّا إذا أحاط بجوانبِ الموضوعِ، وتملَّكَ ناصيتَهُ، عندها يكونُ طرحُهُ قويًّا ناضجًا، يُقِرُّ له فيه القاصي والدَّاني.

كذلك فإنَّه يجبُ على المبدعِ الاستفادةُ من كلِّ أحدٍ صغيرًا كان أم كبيرًا، فلا يحتقرُ أحدًا؛ لأنَّ الحكمةَ ضَالَّةُ المؤمنِ وقَصْدُهُ.

كما أنه ينبغي أنْ يَبْدَأَ مِنْ حيثُ وقف غيرُهُ، ولا يُكرِّرُ جُهودَ سَلَفِهِ، فيجترُّ المسائلَ كما هي، دونَ أن يُضِيفَ إليها شيئًا، بل عليه أن يَزِيدَ عليها، ويُضِيفَ إليها، ويسعى في تطويرِها وتحديثِها ما أمكنَ،

---

(١) **المراغة**: هي مدينة أذربيجان. «الروض المعطار» للحِمْيري (ص٥٣٥).

(٢) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٤٧).

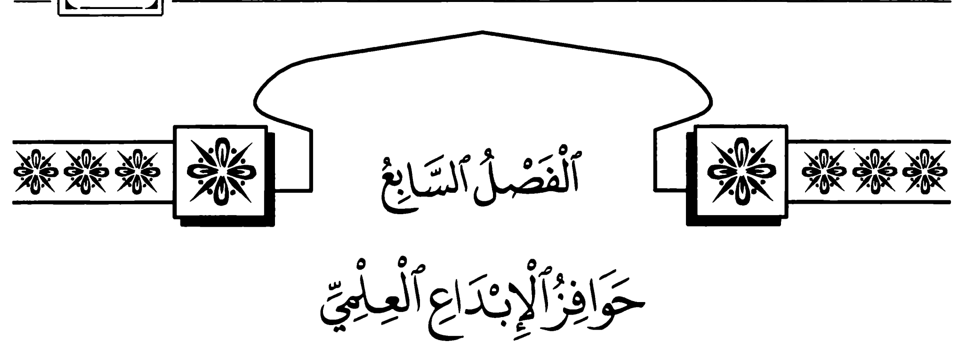
(٣) «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٨/ ٢١٠).

ولو أنْ يُعيدَ طَرْحَها في قوالبَ جديدةٍ تُناسِبُ عَصْرَهُ، وما (التكنولوجيا) المعاصرةُ وتَطَوُّرُها الحثيثُ إلَّا خيرُ شاهدٍ على هذا الأمرِ.

وليس عَيْبًا أنْ يستفيدَ الإنسانُ من جهودِ مَنْ سبقَهُ؛ فإنَّ شيخَ الإسلامِ ابنَ تيميَّةَ ربَّما قرأ في تفسيرِ الآيةِ الواحدةِ مئةَ تفسيرٍ قبلَ أن يُدْلِيَ فيها بِدَلْوِهِ؛ كما ذكر هو عن نفسِهِ![1]؛ هذا مع رسوخِ قَدَمِهِ في العلمِ وإمامتِهِ فيه؛ فكيف بمَنْ هو دُونَهُ؟!

❁ ❁ ❁

(١) **انظر**: «العقود الدرية» (ص٢٩).



الْفَصْلُ السَّابِعُ

حَوَافِزُ الْإِبْدَاعِ الْعِلْمِيِّ

حوافزُ الإبداعِ: هي الأمورُ التي تُسَاعِدُ الإنسانَ في عملِهِ الإبداعيِّ، وتُوصِلُهُ إلى أفضلِ النتائجِ، وأحسنِ العوائدِ، كما أنها تُحفِّزُهُ وتُنشِّطُهُ وتُعِينُهُ على المواصلةِ والمتابعةِ، **وهي:**

أولًا: توفيرُ الحوافزِ الماديَّةِ والمعنويةِ، سواءٌ أكانتْ من الدولةِ، أم من المجتمعِ، وتتمثَّلُ في الآتي:

١ - توفيرُ الضروريَّاتِ والحاجيَّاتِ والكَماليَّاتِ الشخصيةِ للمُبْدِعِ؛ مِنْ مالٍ وسكنٍ وأمنٍ وخِدْماتٍ وغيرِها؛ وذلك حتى يَتفرَّغَ للعملِ والإنتاجِ؛ فإنَّ الذِّهْنَ المشغولَ لا يُمْكِنُ أنْ يَتوفَّرَ على عملٍ، فضلًا عن أنْ يُبْدِعَ! **كما قال الشافعيُّ**[1]:

لَا يُدْرِكُ الحِكْمَةَ مَنْ عُمْرَهُ ... يَكْدَحُ فِي مَصْلَحَةِ الأَهْلِ

وَلَا يَنَالُ العِلْمَ إِلَّا فَتًى ... خَالٍ مِنَ الأَفْكَارِ وَالشُّغْلِ

---

(١) «الديوان» (ص٩١).

وفي «التكملة، لكتاب الصلة» للقضاعي (٤/ ٢٢٠) جاءت منسوبة إلى أبي محمد الديباجي، وفيها زيادة بيتٍ خامسٍ:

فَلَا تَلُومَنَّ أَخَا فَاقَةٍ ... وَعَيْلَةٍ أَنْ كَانَ ذَا جَهْلِ

وفي «رحلة الشتاء والصيف» للحسيني (ص٩٤) جاء البيت الأخير هكذا:

يُبْلَى بِفَقْرٍ وَعِيَالٍ لَمَا ... فَرَّقَ بَيْنَ التَّيْسِ وَالْبَغْلِ!

لَوْ أَنَّ لُقْمَانَ الحَكِيمَ الَّذِي ... سَارَتْ بِهِ الرُّكْبَانُ بِالفَضْلِ
بُلِيْ بِفَقْرٍ وَعِيَالٍ لَمَا ... فَرَّقَ بَيْنَ التِّبْنِ وَالبَقْلِ!

ثم لا بأسَ أن نَجْعَلَ منزلتَهُ في العلمِ وقُدْرَتَهُ على الإنتاجِ والإبداعِ هي المِقْياسَ في زِيَادةِ الحوافزِ الماديّةِ أو المعنويةِ أو تَقْلِيلِها، وهذا أمرٌ لا حَرَجَ فيه شرعًا؛ فقد قال النبيُّ ﷺ في ذِروةِ سَنَامِ الإسلامِ (الجهادِ): **(مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ، فَلَهُ سَلَبُهُ)**[1]، وقال ﷺ: **(مَنْ أَقَامَ البَيِّنَةَ عَلَى أَسِيرٍ، فَلَهُ سَلَبُهُ)**[2].

فأباح للمجاهدِ أَنْ يَنْفرِدَ بِسَلَبِ الأسيرِ والقتيلِ دُونَ البقيَّةِ؛ لزيادةِ عَمَلِهِ وجُهْدِهِ.

وفي «مسندِ الإمامِ أحمدَ»[3] أنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه خطَبَ الناسَ يومَ الجَابِيَةِ، **فقال**: «إنَّ اللهَ عز وجل جَعَلَني خازنًا لهذا المالِ وقاسمًا له، ثم قال: بلِ اللهُ يَقْسِمُهُ، وأنا بادئٌ بأهلِ النبيِّ ﷺ، ثم أَشْرَفِهم»؛ ففرَضَ لأزواجِ النبيِّ ﷺ عَشَرةَ آلافٍ، إلَّا جُوَيْرِيَةَ وصفيَّةَ وميمونةَ، فقالت عائشةُ رضي الله عنها: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يَعْدِلُ بيننا، فعدَلَ بينهنَّ عُمَرُ رضي الله عنه، **ثم قال**: «إنِّي بادئٌ بأصحابي المهاجرين الأوَّلين؛ فإنَّا أُخرِجْنا مِنْ دِيَارِنا ظُلْمًا وعُدْوانًا، ثم أَشْرَفِهم»؛ ففرَضَ لأصحابِ بَدْرٍ منهم خمسةَ آلافٍ، ولمن كان شَهِدَ بدرًا من الأنصارِ أربعةَ آلافٍ، ولِمَنْ شهدَ أُحُدًا ثلاثةَ آلافٍ،

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب الخمس: باب من لم يخمِّس الأسلاب (٣/ ١١٤٤) (٢٩٧٣)، ومسلم في «صحيحه»، كتاب الجهاد والسير: باب استحقاق القاتل سَلَب القتيل (٣/ ١٣٧٠) (١٧٥١).

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ٣٢٤) بهذا اللفظ، وقال الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٧٢): «صحيح».

(٣) (٢٥/ ٢٤٥) (١٥٩٠٥)، وقال محقِّقوه: «رجاله ثقات».

قال: «ومَنْ أَسْرَعَ في الهجرةِ أَسْرَعَ به العطاءُ، ومَنْ أبطَأَ في الهجرةِ أبطَأَ به العطاءُ؛ فلا يَلُومَنَّ رَجُلٌ إلَّا مُنَاخَ راحلتِهِ!»

ولا شكَّ أنَّ الاشتغالَ بالكسبِ والبحثِ عن لُقْمةِ العَيْشِ والصَّفْقِ في الأسواقِ، مُلْهٍ عن العلمِ، شاغلٌ عن التحصيلِ؛ فكيفَ بالإبداعِ والتفوقِ؟!

وقد أشار إلى هذا المعنى أبو هُرَيْرَةَ ﷺ؛ **حيثُ قال**: «إنَّكم تقولون: إنَّ أبا هُرَيْرَةَ يُكْثِرُ الحديثَ عن رسولِ اللهِ ﷺ وتقولون: ما بالُ المُهاجِرِينَ والأَنْصَارِ لا يُحَدِّثُونَ عن رسولِ الله ﷺ بمثلِ حديثِ أبي هُرَيْرَةَ؟! وإنَّ إخوتي من المهاجرين كان يَشْغَلُهم الصَّفْقُ بالأسواقِ، وكنتُ أَلْزَمُ رسولَ اللهِ ﷺ على مَلْءِ بطني، فأَشْهَدُ إذا غابوا، وأحفظُ إذا نَسُوا، وكان يَشْغَلُ إخوتي من الأنصارِ عَمَلُ أَمْوَالِهم، وكنتُ امْرَأً مِسْكِينًا مِنْ مَسَاكِينِ الصُّفَّةِ أعي حين يَنْسَوْنَ...»[١].

وكما بيَّن عُمَرُ ﷺ السَّبَبَ الذي جَعَلَهُ لا يَعْرِفُ سُنَّةَ الاستئذانِ - كما في قِصَّتِهِ مع أبي موسى الأَشْعَرِيِّ ﷺ - بأنه ألهاهُ الصَّفْقُ في الأسواقِ![٢].

إِذَنْ: فالاشتغالُ بالمالِ والكَسْبِ وضروريَّاتِ العَيْشِ شاغلٌ عن العِلْمِ والتحصيلِ، فينبغي ضَمَانُ هذا الأمرِ للعالمِ المُبْدِعِ؛ كيما يَتوفَّرَ على عَمَلِهِ دُونَ عَوَائِقَ أو صوارفَ.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب العلم: باب حفظ العلم (١/ ٥٥) (١١٨)، ومسلم في «صحيحه»، كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل أبي هريرة (٤/ ١٩٣٩) (٢٤٩٢).

(٢) القصة أخرجها البخاري في «صحيحه»، كتاب البيوع: باب الخروج في التجارة (٢/ ٧٢٧) (١٩٥٦)، ومسلم في «صحيحه»، كتاب الآداب: باب الاستئذان (٣/ ١٦٩٤) (٢١٥٣).

ولقد كان هذا دَيْدَنَ السلفِ أيضًا: فهذا عبدُ اللهِ بنُ المُبَارَكِ كان يُفرِّقُ المالَ على العُلَماءِ والمحدِّثين ليتفرَّغوا لنشرِ العلمِ، ليس في بلدِهِ فحَسْبُ، بل في سائرِ البُلْدانِ والأمصارِ، حتى عُوتبَ في ذلك، **فقال**: «إنِّي أَعْرِفُ مكانَ قومٍ لهم فضلٌ وصِدقٌ، طَلَبُوا الحديثَ فأَحْسَنُوا طَلَبَهُ، لحاجةِ الناسِ إليهم احتاجوا؛ فإنْ تركناهم ضاع عِلْمُهُم، وإنْ أعنَّاهم بَثُّوا العِلْمَ لِأُمَّةِ محمدٍ ﷺ، لا أعلمُ بعدَ النبوةِ أفضلَ من العلمِ»(١).

وهذا عبدُ اللهِ بنُ طاهرٍ أميرُ خُرَاسَانَ رَتَّب لأبي عُبَيْدٍ القاسمِ بنِ سَلَّامٍ في كلِّ شهرٍ عَشَرةَ آلافِ دِرْهَمٍ، لمَّا وضَعَ كتابَهُ في غريبِ الحديثِ، **وقال**: «إنَّ عَقْلًا يُعِينُ صاحبَهُ على عملِ هذا الكتابِ حقيقٌ ألَّا يُحْوَجَ المَعَاشَ!»(٢).

وغيرُ خافٍ ما كان يصنعُهُ سابقًا بعضُ خُلَفاءِ الدولِ الإسلاميةِ المختلفةِ؛ مِنَ التشجيعِ على العلمِ، والإنفاقِ عليه بسخَاءٍ، حتى كان بعضُهم يأخذُ الكتابَ الذي يُؤَلِّفُهُ له العالمُ بوزنِهِ ذهبًا!!

لذا؛ فإنه يَتوجَّبُ على حُكُوماتِ الدولِ الإسلاميةِ وأصحابِ الأموالِ فيها اليومَ، الإنفاقُ بسخاءٍ على مراكزِ البحوثِ، والمؤسَّساتِ والهيئاتِ العِلْمِيَّةِ، في كلِّ المجالاتِ والتخصُّصاتِ، والتنافسُ في إنشاءِ الكَرَاسي العِلْميَّةِ في الجامعاتِ؛ بحيثُ يعودُ رِيعُها لِخِدْمةِ البحثِ العلميِّ.

وبشيءٍ من الموازنةِ بين الواقعِ في البلادِ الإسلاميةِ والواقعِ في البُلْدانِ المتقدِّمةِ، نجدُ أن دولَ أوروبا وأمريكا والصينِ واليابانِ قد أَوْلَتْ

---

(١) «تاريخ بغداد» للخطيب (١٠/ ١٦٠)، و«السير» للذهبي (٨/ ٣٨٧).

(٢) «نزهة الألباء» لابن الأنباري (ص١١١)، و«إنباه الرواة» للقفطي (٣/ ١٦).

هذا الجانبَ عنايةً فائقةً؛ ولذا تَقدَّمتْ في مَجَالاتِ العلومِ وميادينِها التطبيقيَّةِ تَقدُّمًا هائلًا، وحَسْبُكَ أنْ تَعْلَمَ أنَّ مركزًا من المراكزِ العلميةِ الكثيرةِ في الولاياتِ المتحدةِ الأمريكيةِ، واسمُهُ مركزُ أبحاثِ الخَلْقِ (وهو مركزٌ يهتمُّ بالبحثِ عن أصولِ الإنسانِ وتطوُّراتِهِ) يَعْمَلُ في هذا المركزِ أكثرُ من أربعِ مئةٍ وخمسينَ عالمًا!! فما الفائدةُ التي ستجنيها الولايات المتحدة من هذا المركزِ الضخمِ في حَضَارَتِها الماديِّةِ المعاصرةِ؟! اللَّهُمَّ إلَّا تشجيعَ العلمِ والعلماءِ في كلِّ المجالاتِ.

ولهذا لا يُسْتَغْرَبُ أن يُؤدِّيَ هذا البذلُ والسخاءُ عندَهم إلى استنزافِ عقولٍ عربيةٍ وإسلاميةٍ كثيرةٍ هاجَرَتْ إلى بلادِ الغربِ؛ بحثًا عن هذه الحوافزِ التي لم يَتوفَّرْ لها أقلُّ القليلِ منها في بلادِها خصوصًا الماديةَ منها.

وهذه الهِجْرةُ إلى بلادِ الكُفَّارِ والاستقرارُ فيها ـ مع خطورتِها البالغةِ على الدينِ والأخلاقِ، ومفاسدِها الكثيرةِ[1] ـ تَتحمَّلُ الحكوماتِ الإسلاميةَ النصيبَ الأكبرَ مِنْ جريرةِ ضياعِ هذه العقولِ وهِجْرَتِها إلى الأعداءِ! فإلى متى يستمرُّ هذا النزيفُ؟!

«إنَّ العقلَ المسلمَ اليومَ والمهاراتِ والسواعدَ الإسلاميةَ، تُشكِّلُ مساحةً كبيرةً في آليةِ التقدُّمِ العلميِّ والتِّقْنيِّ في الغربِ[2]، وإنَّ مجموعةَ

---

(١) **انظر شيئًا من هذه المفاسد في:** مقدمة الدكتور عبد الله التركي لكتاب «هجرة العلماء من العالم الإسلامي» للدكتور محمد عبد العليم مرسي.

(٢) بل قد تستغلُّ هذه العقول والسواعد وتوجَّه ضدَّنا، كما حصل في قصة: القبطان أحمد بن ماجد السعدي، ومثله الحسن بن محمد الوزان الملقَّب بـ(ليون الإفريقي)، حيث استغلَّهما الإفرنج للنيل من الإسلام وأهله. **انظر قصتهما بالتفصيل في:** «تاريخ الأدب الجغرافي العربي» لكراتشكوفسكي (ص٤٨٨ و٦١٩)، و«الأعلام» للزركلي (١/ ٢٠٠) و(٢/ ٢١٧)، و«مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي» للطناحي (ص٢٠٨).

الأدمغةِ المهاجرةِ من العالمِ الإسلاميِّ لِسَبَبٍ أو لِآخَرَ، لو أُتِيحَتْ لها الظروفُ والشروطُ والمؤسَّساتُ المناسبةُ، لاستطاعَتْ أنْ تَخْتصِرَ مسافةَ التخلُّفِ، وتَرْدِمَ فَجْوتَهُ، بل تستطيعُ أن تُقدِّمَ شيئًا آخرَ لا يزالُ مفقودًا على مستوى الحضارةِ البشريةِ.

إنَّ هجرةَ الكفاءاتِ من البلادِ العربيةِ فقطْ، تُكلِّفُ الأمةَ ما يزيدُ على مئةِ مليونِ دولارٍ سنويًّا من رأسِ مالِها، عدا الخسارةَ الدائمةَ من عائدِ هذا الاستثمارِ، والتخلُّفَ الذي يُورِثُهُ على مُخْتَلِفِ الأصعدةِ»[١].

وقد أَظْهَرَتِ الإحصاءاتُ أنه في عامَيْ (١٩٦٩ و١٩٧٠م) بلغ عددُ المهاجرينَ إلى الولاياتِ المتحدةِ فقطْ أكثَرَ من ستةَ عَشَرَ ألفَ عالمٍ من البلادِ العربيةِ والإسلاميةِ، منهم أكثرُ من ثلاثةِ آلافِ طبيبٍ، وقد تزايدَ هذا العددُ كثيرًا جِدًّا بعدَ ذلك[٢]!

إنَّ هناك خَلَلًا كبيرًا في برامجِ التعليم لدى المسلمينَ، وخَلَلًا أكبرَ في استثمارِ تلكَ الأعدادِ الهائلةِ من المتعلِّمين ـ لا سيَّما ذوو الكفاءاتِ منهم ـ فيما يعودُ بالنفعِ والفائدةِ على بُلْدانِهم الإسلاميةِ، وما زالت تلك

---

(١) من مقدمة الأستاذ عمر عبيد حسنة، لكتاب «قضية التخلُّف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر» للدكتور زغلول راغب النجّار (ص١٨).
وانظر: «كتاب العلم وبناء الأمم» للدكتور راغب السرجاني (ص٣٠ فما بعد).

(٢) طِبْقًا لآخر دراسة أجرَتْهَا أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا في مصر، فقد هاجر من مصر وحدها أكثر من مليونَيْ عالم!! من بينهم (٦٢٠) عالمًا في علوم نادرة؛ على رأسهم (٩٤) عالمًا متميِّزًا في الهندسة النووية، و(٢٦) في الفيزياء الذرية، و(٧٢) في استخدامات الليزر، و(٩٣) في الإلكترونيات والميكروبروسيسور، و(٤٨) في كيمياء البوليمرات... إلخ. «مجلة المجتمع»، عدد (١٦٤٨) في ٢٣/٤/٢٠٠٥م.
وأُحِيلُ القارئ الكريم إلى قراءة كتابين قيِّمين في هذا الشأن، هما: كتاب «كارثة في العالم الإسلامي»، وكتاب «هجرة العلماء من العالم الإسلامي»؛ كلاهما للدكتور محمد عبد العليم مرسي.

البرامجُ العقيمةُ - في بعضِ تلك البلادِ - كما وُضِعَتْ قبلَ عَشَراتِ السنين، لم يَطْرَأْ عليها تغييرٌ ذو بالٍ![١].

٢ - توفيرُ الجَوِّ العِلْميِّ المُلائمِ للمُبْدِعِ؛ سواءٌ مِنْ حيثُ الزمانُ أو المكانُ أو المقدَّراتُ؛ لأنَّ هذا أَدْعَى إلى صَفَاءِ الذِّهْنِ، واجتماعِ الفكرِ عندَ المُبْدِعِ - كما سبَقَ التنبيهُ عليه في المقوِّماتِ - مع ما يُسانِدُ هذا من صِحَّةٍ في البدنِ، وهِمَّةٍ في النفسِ.

وقد كان هذا هو أُمْنِيَّةَ العلماءِ، كما تَحدَّثَ بلسانِهم ابنُ جُزَيٍّ الكَلْبيُّ صاحبُ التفسيرِ المشهورِ، **عندما قال**[٢]:

لِكُلِّ بَنِي الدُّنْيَا مُرَادٌ وَمَقْصِدٌ ... وَإِنَّ مُرَادِي صِحَّةٌ وفَرَاغُ

لِأَبْلُغَ فِي عِلْمِ الشَّرِيعَةِ مَبْلَغًا ... يَكُونُ بِهِ لِي لِلْجِنَانِ بَلَاغُ

فَفِي مِثْلِ هَذَا فَلْيُنَافِسْ ذَوُو النُّهَى ... وَحَسْبِيَ مِنْ دَارِ الغُرُورِ بَلَاغُ

وقد كانتْ هذه سِمَةً مِنْ سِمَاتِ الحضارةِ الإسلاميةِ السالفةِ؛ فقد

---

(١) **انظر**: ماذا صنَعَتِ الولاياتُ المتحدة الأمريكية بمناهجها التعليمية حينما فاجأها الاتحاد السوفييتي بإطلاق أول قمر صناعي (سبوتنيك) في الفضاء عام (١٩٥٨م)، حيث ثارت ثائرتها، وبادرت فسَنَّت قانونًا جديدًا يقضي بتحسين تدريس العلوم والرياضيات واللغات الحية في المدارس الابتدائية والثانوية، ورصَدَتْ لذلك مئات الملايين من الدولارات!! راجع كتاب «كارثة في العالم الإسلامي» للدكتور محمد عبد العليم مرسي (ص٢٠ - ٢٤).
يقول أحد المفكرين السعوديين: «إن نظامنا التعليمي الحالي لا يُعَدُّ الطالبُ فيه إلا لأحد أمرين: تولِّي وظيفة كتابيَّة صغيرة، أو إكمال دراسته الجامعيَّة!». «صحيفة عكاظ»، عدد (٩٩٢٤) (ص١٠).

(٢) **انظر الأبيات في**: «الإحاطة، في أخبار غرناطة» لابن الخطيب (٣/ ١٢)، و«الديباج المذهب، في معرفة أعيان علماء المذهب» لابن فَرْحُون (ص٢٩٦)، و«الدرر الكامنة، في أعيان المئة الثامنة» لابن حجر (٥/ ٨٩)، و«أزهار الرياض، في أخبار القاضي عياض» للمَقَّري (٣/ ١٨٦)، و«نفح الطيب» له (٥/ ٥١٥).

كان العلماءُ يُفرَّغونَ للعملِ في دُورِ العلمِ أو المدارسِ، وتُفْرَضُ لهم عَطَاءاتٌ تُغْنيهم، وتُوَفَّرُ الخِدْماتُ لهم، والشواهدُ على هذا كثيرةٌ على مَدَارِ التاريخِ، بل حَدَثَ ما هو أعجبُ؛ فهذا المستشرقُ (فيتشخل) **يقولُ**: «لقد كان في قُرْطُبةَ وَحْدَها حَانُوتٌ لنسخِ الكتبِ، يَسْتخدِمُ أكثرَ من مئتَيْنِ من الجَوَارِي في نَقْلِ المصنَّفاتِ لطُلَّابِ الكتبِ النادرةِ واستنساخِها، وهذه ظاهرةٌ لم تُعرَفْ بهذه المثابةِ في أيِّ حضارةٍ إنسانيةٍ غيرِ حضارةِ الإسلامِ، وهي تؤكِّدُ على حقيقةٍ: أنَّ المسلمينَ أمةٌ قارئةٌ كاتبةٌ، وأنَّ الإسلامَ دِينٌ يَحُثُّ معتنقيهِ على العلمِ والتحصيلِ، وتلك سمةُ الحضارةِ، وعَلَامةُ المتحضِّرين!»[(١)].

٣ ـ تمكينُ العَالِمِ مِنْ تَخصُّصِهِ الذي يَرْتَاحُ إليه ويُبْدِعُ فيه، والسَّمَاحُ لكلِّ إنسانٍ بالتأليفِ أو التدريسِ في المجالِ الذي يَجِدُ نَفْسَهُ فيه؛ فإنَّ هذا يُساعِدُ على الإبداعِ؛ فلا يصلُحُ أن يكونَ مبدأُ الحاجةِ أو الوَجَاهةِ أو الاتِّكَالِيَّةِ أو زيادةِ الحوافزِ هو المقدَّمَ، بل الرغبةُ والإقبالُ على ذلك العلمِ هو المُقَدَّمُ.

ويَحْضُرُني هنا قصةُ زَيْنِ الدِّينِ ابنِ أبي الحَرَمِ الدمشقيِّ، وهو من أقرانِ ابنِ سَيِّدِ الناسِ، وكان عِدَادُهُ في كبارِ الفقهاءِ والمفتينَ، ولكنَّه وَلِيَ درسَ الحديثِ في القُبَّةِ المنصوريةِ مِنْ قِبَلِ جمالِ الدِّينِ آقوش، فتكلَّمَ الناسُ في ذلك، وصار صِغَارُ الطَّلَبةِ يَنْقُلُونَ إلى ابنِ سَيِّدِ الناسِ ما يَحْصُلُ لهذا الرجلِ من أغلاطٍ، فيقولون: صَحَّفَ في كذا، ووَهِمَ في كذا وكذا؛ **حتى قال فيه الكَمَالُ جعفرٌ**:

---

(١) «صحيفة المدينة»، عدد (٥٩٤٩) في ١٤٠٣/٩/٢٧هـ، نقلًا عن كتاب «صفحات من صبر العلماء» لعبد الفتاح أبو غدة (ص٢١٠).

بِالجَاهِ تَبْلُغُ مَا تُرِيدُ فَإِنْ تُرِدْ ... رُتَبَ المَعَالِي فَلْيَكُنْ لَكَ جَاهُ

أَوَمَا تَرَى الزَّيْنَ الدِّمَشْقِيْ قَدْ وَلِيْ ... دَرْسَ الحَدِيثِ وَلَيْسَ يَدْرِي مَا هُوْ!

وكان زَيْنُ الدِّينِ هذا يَعْرِفُ ذلك من نفسِهِ، **فيقولُ**: «وَلَّوْنا ما يَضْحَكُ فيه الصِّبْيانُ منا، (**يعني**: دَرْسَ الحديثِ)، ومَنَعُونَا ما نَضْحَكُ فيه على الأشياخِ!»، (**يعني**: دَرْسَ الفقهِ؛ لأنه كان فيه ماهرًا)[1].

٤ ـ تقديرُ المُبْدِعِينَ، ورَفْعُ مَنْزِلَتِهم في الناسِ؛ بحيثُ يكونون في محلِّ الصدارةِ والتقدُّمِ على مَنْ سواهم، ويتمثَّلُ هذا في الرجوعِ إليهم في المُشْكِلات، وسُؤَالِهم عن المُعْضِلات، وتقديمِهم على مَنْ سواهم في الحوافزِ والمميِّزات؛ سواءٌ على المستوى العامِّ أو الخاصِّ، وإشعارِهم دائمًا بمكانتِهم العاليةِ في المجتمعِ، بحيثُ لا يُقدَّمُ عليهم غيرُهم في ذلك كلِّهِ؛ فإنَّ العَالِمَ المُبْدِعَ إنْ رأى تقصيرًا في هذه الأمورِ، ربَّما عاد عليه ذلك بالضَّرَرِ في عِلْمِهِ، كما حصَلَ ذلك لجماعةٍ من العلماءِ، منهم عبدُ المَلِكِ بنُ حَبِيبٍ القُرْطُبيُّ الفقيهُ المالكيُّ المشهورُ؛ فإنَّه لمَّا وَرَد زِرْيابٌ[2] المغنِّي الأندلسَ، وحصَلَ له من الحَفَاوةِ والاحتفالِ الشيءُ

---

(١) **انظر خبره في**: «الدرر الكامنة» لابن حجر (٣/ ١٦١ ـ ١٦٢).
عجيبةٌ: ذكر الحافظ ابن حجر في ترجمته أنه كان في خُلُقه زَعَارةٌ وشدَّة، فمن ذلك: أن طالبًا بحث معه، فطلَبَ منه النقل، فأخَذَ نَعْلَهُ وكشَفَ رأسَ الطالب، وصار يضربه، ويقول: هذا النقلُ الذي طَلَبْتَ!!

(٢) **هو**: علي بن نافع، أبو الحسن، الملقَّب بزرياب، مولى المهدي العباسي، كان شاعرًا مطبوعًا، حسن الصوت، عالمًا ببعض الفنون، عارفًا بأحوال الملوك وسير الخلفاء ونوادر العلماء، اجتمعت فيه صفات الندماء، وكان عند الملوك بالأندلس كالموصلي عند ملوك المشرق.
برَّز في صناعة الغناء، وتقدَّم فيها، وله فيها طرائق تنسب إليه، وهو الذي جعَلَ العُودَ خمسة أوتار، وكانت أوتاره أربعة، كما اختَرَعَ مضراب العود من قوادم النَّسْر، وكانوا يصنعونه من الخشب. =

الكثيرُ[(١)]، **قال هذا العَالِمُ يَنْدُبُ حَظَّهُ في ذلك المجتمعِ[(٢)]:**

= أخذ الغناء ببغداد عن إسحاق الموصلي وغيره، وسافر إلى الشام، ومنها إلى الأندلس، وقد سبَقَتْهُ إليها شُهْرَتُه، فركب عبد الرحمٰن بن الحكم الأموي بنفسه، لتلقِّيه!! واستغنى به عمّن عداه من الندماء والمغنين، كان عطاؤه (٤٠,٠٠٠) دينار ذهبًا في كلِّ سنة! سوى ما يأخذه عقب نزوات السلطان!! أقام بقرطبة وتوفِّي بها نحو سنة (٢٣٠هـ).

انظر: «بغية الملتمس» للضبي (ص٢٣٩)، و«الأعلام» للزركلي (٥/ ٢٨)، و«قادة فتح الأندلس» لمحمود شيت خطاب (١/ ١٩٥).

(١) من ذلك أنه غنَّى الخليفة عبد الرحمٰن بن الحكم يومًا صوتًا استحسنه، فقال: يؤمر الخُزَّانُ أن يدفعوا إليه ثلاثين ألف دينار!!! «تاريخ افتتاح الأندلس» (ص٨٣ ـ ٨٤).

ـ وذُكِرَ أن المأمون كان بدمشق، فركِبَ يُرِيدُ جبلَ الثَّلْج فمرَّ ببِرْكةٍ عظيمة من بِرَكِ بني أُميَّة وعلى جانبها أربع سَرَوات، وكان الماء يدخلها سيحًا ويخرج منها، فاسْتَحْسَنَ المأْمون الموضع، فدعا ببزمَاوردٍ (نوعٌ من الطعام) ورطل نبيذٍ، وذكر بني أُميَّة فوضع مِنْهم وتنقَّصهم، فأقبل علوية على العود واندفع فغنَّى:

أُولَـئِـكَ قَـوْمِـي بَـعْـدَ عِـزٍّ وَثَـرْوَةٍ ... تَـفَـانَـوْا فَـإِلَّا أَذْرِفِ الـدَّمْـعَ أُكْـمَـدَا

فضرَبَ المَأْمُونُ الطَّعَامَ بِرِجْلِهِ ووَثَب، وقال لعلوية: يا ابْن الفاعلة!! لم يكنْ لك وقتٌ تذكُرُ فيه مواليك إِلَّا في هذا الوَقْت! فقال: مولاكم زرياب عِنْد مواليَّ يركبُ في مِئَةِ غُلَام وأنا عندكُمْ أَمُوتُ من الجُوع؛ فغَضِبَ عليه عِشْرِينَ يَوْمًا ثُمَّ رضي عنه.

انظر: «كتاب بغداد» لابن طيفور (ص١٥٣)، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (٤٣/ ٣٥).

قلت: وما زال ضياعُ الأموالِ على أهل اللهو واللعب والمجون مستمرًّا، والله المستعان! فقد نشرت إحدى الصحف الخليجية في عددها رقم (١٠٦٧٤) تفاصيل حفل اعتزال أحد لاعبي كرة القدم!! حيث ذكَرَتْ أنه تمَّ استقدام أحد أندية أوروبا المشهورة خصيصًا لهذه المناسبة! أما الهدايا التي قُدِّمَتْ للاعب فهي كالتالي: (٤٨٠) ألف ريال نقدًا، وثلاث سيارات (لكزس)، وسيارة (ج م سي)، وأكثر من ثلاثين درعًا، وعشرون هدية خاصَّة، وهدايا مالية أخرى لم يُفْصِحْ عنها!!!

(٢) **انظر الأبيات في**: «طبقات النحويين واللغويين» للزبيدي (ص٢٦٠ ـ ٢٦١)، و«جذوة المقتبس» للحميدي (٢/ ٤٤٩)، و«بغية الملتمس» للضبي (٢/ ٤٩٢)، و«ترتيب المدارك» للقاضي عياض (٤/ ١٣٩)، و«إنباه الرواة» للقفطي (٢/ ٢٠٦)، و«المُغْرِب، في حلى المغرب» لعلي بن موسى (٢/ ٩٦)، و«البلغة، في تراجم أئمة النحو واللغة» للفيروزآبادي (ص١٨٧)، و«الديباج المُذْهَب» لابن فَرْحُون (ص١٥٦).

صَلَاحُ أَمْرِي وَالَّذِي أَبْتَغِي ... سَهْلٌ عَلَى الرَّحْمٰنِ فِي قُدْرَتِهْ
أَلْفٌ مِنَ الحُمْرِ وَأَقْلِلْ بِهَا ... لِعَالِمٍ أَوْفَى عَلَى بُغْيَتِهْ
زِرْيَابُ قَدْ يَأْخُذُهَا دُفْعَةً ... وَصَنْعَتِي أَشْرَفُ مِنْ صَنْعَتِهْ!

وكذا الحالُ بالنسبةِ لعبدِ القاهرِ الجُرْجانيِّ، **فقد قال عنه القِفْطيُّ**: «وأشعارُهُ كثيرةٌ في ذمِّ الزمانِ وأهلِهِ[1]، وكان هذا الأمرُ هو السببَ في تقصيرِهِ إذا صَنَّفْ؛ إذْ لم يَجِدْ راحةً ممَّن جمَعَ لهم وألَّفْ!»[2].

فالحاصلُ: أنه يجبُ توفيرُ جميعِ متطلَّباتِ العيشِ الكريمِ بحاجاتِهِ الخمسِ؛ كما جاءت في السُّلَّمِ الهَرَمِيِّ عندَ (أبراهام ماسلو) ـ أحدِ كبارِ العلماءِ في علمِ النفسِ الفَرْديِّ، وصاحبِ نظريةِ (سُلَّم الحاجاتِ) الذي سمَّاه بتحقيقِ الرَّغَباتِ الإنسانيةِ، ابتداءً من أسفلِ الهَرَمِ: الحاجاتِ (الفسيولوجيةِ) العضويةِ، ثم الحاجةِ إلى الأمنِ، ثم الحاجةِ إلى الانتماءِ

---

(١) **من ذلك قوله**:

أَيُّ وَقْتٍ هَذَا الَّذِي نَحْنُ فِيهِ؟! ... قَدْ دَجَا بِالقِيَاسِ وَالتَّشْبِيهِ
كُلَّمَا سَارَتِ العُقُولُ لِكَيْ تَقْـ ... ـطَعَ تِيهًا تَوَغَّلَتْ فِي تِيهِ!

وقوله:

كَبِّرْ عَلَى العِلْمِ يَا خَلِيلِي! ... وَمِلْ إِلَى الْجَهْلِ مَيْلَ هَائِمْ
وَعِشْ حِمَارًا تَعِشْ سَعِيدًا ... فَالسَّعْدُ فِي طَالِعِ البَهَائِمْ!

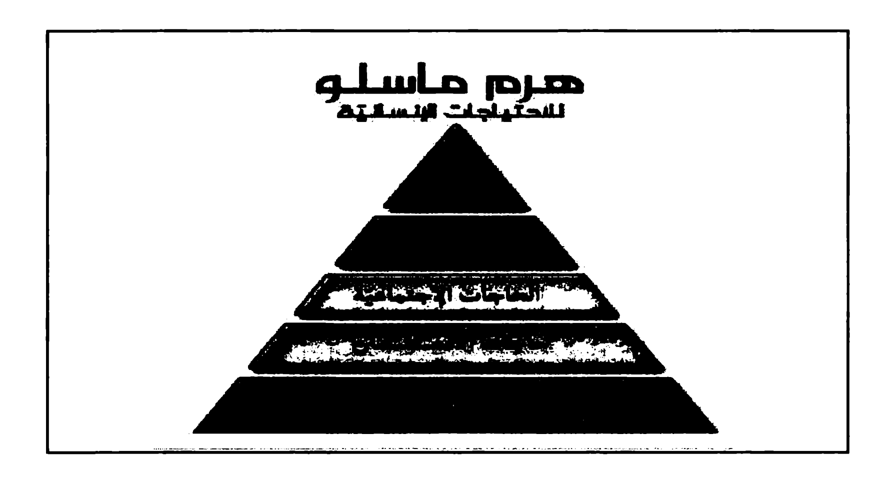
وقوله:

وَمَا لَكَ مَطْمَعٌ فِي المَرْءِ إِلَّا ... إِذَا مَا أَنْكَرَ الأَمْرَ القَبِيحَا
فَأَمَّا وَهْوَ يَجْهَلُ بَيْنَ قُبْحٍ ... وَبَيْنَ الحُسْنِ فُرْقَانًا صَحِيحَا
فَإِنَّكَ فِي رَجَاءِ الخَيْرِ مِنْهُ ... بِأَجْوَازِ الفَلَاةِ تَكِيلُ رِيحَا!

انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي (٣٢/ ٣١)، و«المنتخب من معجم شيوخ السمعاني» للسمعاني (ص١٥٠٩)، و«الوافي بالوفيات» للصفدي (١٩/ ٣٥)، و«البلغة، في تراجم أئمة النحو واللغة» للفيروزآبادي (ص١٨٦).

(٢) «إنباه الرواة» للقفطي (٢/ ١٩٠).

والاجتماعِ، ثم الحاجةِ إلى تقديرِ الذاتِ، ثم الحاجةِ إلى تحقيقِ الذاتِ[١].



ثانيًا: المنافسةُ الشريفةُ:

وهذا أمرٌ محمودٌ حثَّ عليه الشرعُ في الخيرِ؛ فقال تعالى في صفةِ المؤمنينَ أصحابِ الجنةِ: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٥، ٢٦].

وقد نافَسَ النبيُّ ﷺ بين الصَّحَابةِ في غيرِ ما حَادِثَةٍ، وكان الصحابةُ يتنافسون في مجالِ الخَيْرِ، ومِنْ ذلك تلك القصةُ المشهورةُ التي رواها الترمذيُّ عن أبي بكرٍ وعُمَرَ رضي الله عنهما، عندما أمرهم النبيُّ ﷺ بالصدقةِ، فجاء عمرُ بنصفِ مالِهِ، وجاء أبو بكرٍ بمالِهِ كلِّهِ، فقال عمرُ: واللهِ لا أَسْبِقُهُ إلى شيءٍ أبدًا![٢].

فالمقصودُ: أنَّ توظيفَ عُنْصُرِ التنافسِ بين العلماءِ والباحثينَ أمرٌ

---

(١) **انظر**: «علم نفس النمو من الجنين إلى الشيخوخة» لعادل الأشول (ص٤١٧).

(٢) «سنن الترمذي»، كتاب المناقب: باب في مناقب أبي بكر وعمر (٥/ ٥٧٤) (٣٦٧٥).

محمودٌ يُساعدُ على تَقدُّمِ العلمِ والإبداعِ فيه، وزيادتِهِ باستمرارٍ واطِّرَادٍ؛ لأنَّ عنصرَ التنافسِ بين ذوي الطُّمُوحاتِ العاليةِ ليس موجودًا في النفسِ فحَسْبُ، بل هو مُترسِّخٌ فيها، فإشعالُهُ وشَحْذُهُ وإذكاؤُهُ باستمرارٍ؛ كفيلٌ بتحقُّقِ الإبداعِ وحصولِهِ، وما الردودُ والمُناظَراتُ والمُجادَلاتُ والمُكاتَباتُ بين العلماءِ إلَّا مَظْهَرٌ من تلك المظاهرِ.

ومن شواهدِ ذلك: المنافسةُ التي كانت بين أبي العباسِ بنِ سُرَيْجٍ القاضي، وأبي بكرٍ محمَّدِ بنِ داودَ الظاهريِّ الإمامِ المشهورِ، فقد كان بينهما منازعاتٌ لطيفةٌ[1]، فكانا يتناظرانِ ويَترادَّانِ في الكتبِ، لكنَّ ابنَ سُرَيْجٍ عندما مات أبو بكرٍ الظاهريُّ أَسِفَ على موتِهِ وحَزِنَ، وجلَسَ في عزائِهِ على الترابِ، وأخذ يبكي **ويقولُ:** «ما آسى إلَّا على لسانٍ أَكَلَهُ الترابُ مِنْ أبي بكرٍ»[2].

---

(١) **من ذلك:** أن أبا العباس ابن سُرَيْج قال للظاهري يومًا: أنت تقول بالظاهر، وتُنْكِرُ القياس؛ فما تقول في قول الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، من يعمل مثقال نصف ذرة، ما حكمه؟ فسكت محمد طويلًا، وقال: أَبْلِعْنِي رِيقِي، قال له أبو العباس: أَبْلَعْتُكَ دِجْلة!! قال: أَنْظِرْني ساعة، قال: أنظَرْتُكَ إلى قيامِ الساعة!! وافترقا ولم يكنْ بينهما غيرُ ذلك. **انظر:** «وفيات الأعيان» لابن خلكان (١/ ٦٦)، و«البرهان، في علوم القرآن» للزركشي (١/ ٤٨٥)، و«الجواهر المضية، في طبقات الحنفية» للقرشي (١/ ٤٢٠).
- وقال أبو بكرٍ لابن سُرَيْجٍ يومًا: أكلِّمُكَ مِنَ الرِّجْلِ فتجيبني مِنَ الرأس! فقال له: هكذا البَقَرُ إذا حَفِيَتْ أظلافُها دُهِنَتْ قرونُها!! «وفيات الأعيان» (١/ ٦٦)، و«شذرات الذهب» لابن العماد (٢/ ٢٤٤).
- وقال له ابن سريج مرةً: أنت بكتاب «الزهرة» (كتابٌ أَلّفه أبو بكر في الأدب) أشهَرُ منك بهذا (**يعني:** الفقه)، فقال له: تعيّرني بكتاب «الزهرة»، وأنت لا تُحْسِنُ تستتمُّ قراءته، وهو كتابٌ جمعناه هزلًا؛ فاجْمَعْ أنتَ مثلَهُ جِدًّا! «البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ٧٥٩).

(٢) «تاريخ الإسلام» للذهبي (٢٢/ ٢٦٤)، و«طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٣/ ٢٤)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ٧٦٠).

ويُحْكَى عنه ـ وهذا هو الشاهدُ ـ أنه لمَّا بَلَغَتْهُ وفاتُهُ كان يكتُبُ شيئًا، فألقى الكُرَّاسةَ من يدِه، وقال: مات مَنْ كنتُ أُحُثُّ نفسي وأُجْهِدُها على الاشتغالِ بمناظرتِهِ ومقاومتِهِ![١].

ثالثًا: الصَّدْمةُ النفسيةُ:

وهو أمرٌ ربَّما حصَلَ للإنسانِ في موقفٍ عابرٍ، أو مجلسٍ حافلٍ، فيُوقِظُ إحساسَهُ إيقاظًا قويًّا، ويَهُزُّ شعورَهُ هزًّا عنيفًا، فيكونُ سببًا لإبداعِهِ وتألُّقِهِ وتفوُّقِهِ؛ لأنَّ النفسَ الإنسانيةَ فيها طاقاتٌ هائلةٌ، ربَّما بَقِيتْ خامدةً هامدةً، حتى يأتيَ ما يُثِيرُها ويُخْرِجُها عن سكونِها، وهذه الصَّدْمةُ سلاحٌ ذو حَدَّيْن، ربَّما أَهْلَكَتْ صاحبَها، وربَّما كانت دافعًا له إلى الإبداعِ والتألُّقِ إذا كان متحلِّيًا بالشجاعةِ، وقد مرَّ شيءٌ من ذلك في أسسِ الإبداعِ.

يقولُ الفيزيائيون ـ وهو القانونُ الأولُ من قوانينِ الحَرَكةِ ـ: «إنَّ الجِسْمَ يبقى في حالةِ سكونٍ، أو في حالةِ حركةٍ مستقيمةٍ منتظمةٍ، ما لم يُؤثِّرْ عليه مُؤثِّرٌ خارجيٌّ، يُجْبِرُهُ على التحوُّلِ عن حالتِهِ من سكونٍ أو حركةٍ»[٢].

ولذا؛ فإنَّ أجملَ القصائدِ وأبدعَ المقطوعاتِ الشعريةِ هي التي يَقُولُها صاحبُها بعدَ معاناةٍ نفسيةٍ حادَّةٍ، أو عَقِبَ صَدْمةٍ شعوريةٍ عنيفةٍ، **كما قيل لأعرابيٍّ:** «ما بالُ المراثي أجودُ أشعارِكم؟ قال: لأنَّا نقولُها

---

(١) «الوافي بالوفيات» للصفدي (٣/ ٦٠) **وانظر:** «مجموعة الرسائل الكمالية» لمحمد سعيد كمال (٥/ ١٧٢).

(٢) **انظر:** «أعلام الفيزياء في الإسلام» لعبد الله الدفاع (ص٨٧).
وهذا القانون ينسب إلى نيوتن، **والصحيح:** أن ابن سينا قد سبَقَ إليه في كتابيه: «الإشارات والتنبيهات»، و«الشفاء».

وأكبادُنا تحترقُ!»(١).

وممَّن جَرَى له شيءٌ من هذا: الكسائيُّ؛ **قال عنه الخطيبُ**: «تعلَّم النحوَ على كِبَرٍ؛ وسَبَبُهُ: أنه جاء إلى قومٍ وقد أعيا، فقال: قد عَيِيتُ، فقالوا له: تجالسُنا وأنت تَلْحَنُ؟! قال: وكيف لَحَنْتُ؟ قالوا: إن كنتَ أَرَدْتَ مِن انقطاعِ الحِيلَةِ، فقُلْ: عَيِيتُ، وإنْ أَرَدتَ من التعبِ، فقل: أَعْيَيْتُ؛ فأَنِفَ من هذه الكلمةِ، وقام مِنْ فَوْرِهِ، وسأل عمَّن يُعلِّمُ النحوَ، فأُرْشِدَ إلى مُعَاذٍ الهَرَّاءِ، فلزمَهُ حتى أنفَدَ ما عندَهُ، ثم خرَجَ إلى البصرةِ فلقيَ الخليلَ، وجلَسَ في حلقتِهِ، فقال له رجلٌ من الأعرابِ: تَرَكْتَ أسدَ الكوفةِ وتميمًا وعندَهما الفصاحةُ، وجئتَ إلى البصرةِ!! فقال للخليلِ: مِنْ أين أَخَذْتَ عِلْمَكَ هذا؟ فقال: مِنْ بوادي الحجازِ ونَجْدٍ وتِهَامَةَ، فخرَجَ ورجَعَ؛ وقد أنفدَ خمسَ عشرةَ قِنِّينةً حِبْرًا في الكتابةِ عن العربِ، سوى ما حَفِظَ، فقَدِمَ البصرةَ فوجَدَ الخليلَ قد مات وفي موضعِهِ يُونُسُ، فجَرَتْ بينهما مسائلُ أقرَّ له فيها يونسُ، وصَدَّرَهُ في موضعِهِ»(٢).

وكذلك سيبويهِ؛ **قال نصرُ بنُ عليٍّ**: «كان سيبويهِ يستملي من حَمَّادِ بنِ سَلَمَةَ يومًا: قال رسولُ الله ﷺ: **(مَا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِي إِلَّا وَقَدْ أَخَذْتُ عَلَيْهِ، لَيْسَ أَبَا الدَّرْدَاءِ)**، فقال سيبويهِ: «ليس أبو الدرداءِ»، فقال: لَحَنْتَ يا سيبويهِ، فقال سيبويه: لا جَرَمَ! لَأَطْلُبَنَّ علمًا لا تُلحِّنُني فيه أبدًا، فطلبَ النحوَ، ولم يَزَلْ يلازمُ الخليلَ»(٣).

---

(١) **انظر**: «البيان والتبيين» للجاحظ (٢/ ٢١٨)، و«العقد الفريد» لابن عبد ربه (٣/ ١٨٣)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» للنويري (٥/ ١٦٥).

(٢) **انظر**: «بغية الوعاة» للسيوطي (٢/ ١٦٣).

(٣) **انظر**: «مقدمة ما تلحن فيه العامة» للكسائي (ص١٢)، و«إنباه الرواة» للقفطي (٢/ ٣٥٠).

وقال أبو محمدٍ عبدُ اللهِ بنُ محمدِ بنِ العَرَبيِّ: «أخبرني ابنُ حَزْمٍ أنَّ سببَ تَعلُّمِهِ الفقهَ أنه شَهِدَ جِنَازةً، فدخَلَ المسجدَ، فجلَسَ ولم يَرْكَعْ، فقال له رجلٌ: قم فَصَلِّ تحيةَ المسجدِ ـ وكان ابنَ ستٍّ وعشرينَ سنةً! ـ قال: فقُمْتُ وركَعْتُ، فلمَّا رَجَعْنا من الجنازةِ، جئتُ المسجدَ، فبادرتُ بالتحيةِ، فقال لي: اجْلِسْ ليس ذا وقتَ صلاةٍ، **يعني**: بعدَ العصرِ! فانصَرَفْتُ حزينًا، وقلتُ للأستاذِ الذي ربَّاني: دُلَّني على دارِ الفقيهِ أبي عبدِ اللهِ بنِ دَحُّون، فقصدْتُه وأعلمتُهُ بما جرى عليَّ، فدَلَّني على «الموطَّأ»، فبدأتُ عليه قراءةً، ثم تتابَعَتْ قراءتي عليه وعلى غيرِهِ ثلاثةَ أعوامٍ، وبدأتُ بالمناظرةِ!!»[1].

وكما حصَلَ لأديسونَ أيضًا، حيثُ فُصِلَ من المدرسةِ؛ لأنَّ مُدرِّسِيهِ قالوا: إنه أَبْلَهُ، ضعيفُ العقلِ، لا يَصْلُحُ للتعلُّمِ! فلم يَفُتَّ ذلك في عَضُدِهِ، بل اتجه عندَها للميكانيكا، فنبَغَ فيها، وما مات حتى سُجِّلَ باسمِهِ (١٠٩٣) اختراعًا!! كما تقدَّم.

رابعًا: الزمانُ والمكانُ:

وهما عنصرانِ مساعدانِ، وليسا أساسيين.

ولقائلٍ أن يقولَ: لماذا لم تُقدِّمِ الوقتَ أو الزمنَ في الأُسُسِ رَغْمَ أهميَّتِهِ، وجعلتَهُ عاملًا مساعدًا فقط؟ **وجوابًا عن هذا الملحظِ أقولُ**:

إنَّ كثيرًا من الناسِ يُخْطِئُونَ في فهمِ الزمانِ، ظنًّا منهم أنه هو صانعُ الحركةِ، وأنَّ الحركةَ لا تَحْدُثُ إلا بقوةِ الزمانِ، فإذا قلتَ لأحدِهم: اعْمَلْ أوِ اجتهدْ أو ثابرْ، قال: ليس عندي وقتٌ كافٍ، أو قال:

---

(١) «تذكرة الحفاظ» للذهبي (٣/ ٢٢٩).

إنَّ الوقتَ لم يَعُد فيه بَرَكةٌ كما كان عندَ السَّلَفِ... إلى غيرِ ذلك من المَقُولاتِ، فنتَجَ عن هذا أنْ حَمَّلَ الناسُ الزمانَ عُيُوبَهم وتَخَاذُلَهم، وجعلوه مِشْجبًا يُعلِّقونَ عليه أخطاءَهم وتكَاسُلَهم.

نَعِيبُ زَمَانَنَا وَالعَيْبُ فِينَا وَمَا لِزَمَانِنَا عَيْبٌ سِوَانَا!

وهذا الفهمُ إنْ لم أَقُلْ: إنَّه قد قتَلَ رُوحَ الطُّمُوحِ والإبداعِ، وأَثْخَنَ العزائمَ والهِمَمَ، فإنَّني لا أَشْتَطُّ في الحكمِ إنْ قلتُ: إنه ليس أَضَرَّ على العالِمِ وطالبِ العلمِ منه!

إنَّ الحركةَ هي المسيطرةُ على الزمانِ وليس العكسَ؛ فإنَّ الإنسانَ لا يعيشُ كميَّةَ وقتٍ، ولكنَّه يعيشُ كيفيةَ حركةٍ، والمرءُ لا يعيشُ وقتًا يستوعبُ أعمالًا، وإنما يعيشُ أعمالًا تستغرِقُ مُدَدًا؛ ولهذا نجدُ بعضَ العلماءِ يعيشون ثلاثينَ أو أربعينَ سنةً؛ ولكنَّهم يَحْيَوْنَ قُرونًا متطاولةً بِعِلْمِهم وفِكْرِهم وإبداعِهم.

وهذا الزمنُ هو ما يُسمَّى بالزمنِ الاجتماعيِّ؛ لأن **الزمنَ ثلاثةُ أنواعٍ**:

- **زمنٌ رياضيٌّ**: وهو ما نَحْسُبُهُ بالساعةِ واليومِ والشهرِ.
- **زمنٌ بُيولوجيٌّ**: وهو التغيُّرُ الذي يطرأُ على جسمِ الإنسانِ حَسَبَ مراحلِ العمرِ المختلِفةِ.
- **زمنٌ اجتماعيٌّ**: وهو الذي نَحْسُبُهُ بنوعِ الثقافةِ والخِبْرةِ التي تمرُّ على الإنسانِ.

فقياسُ العمرِ بمقياسِ الزمنِ الرياضيِّ لا شكَّ أنه قياسٌ خادعٌ غيرُ صحيحٍ؛ إِذِ المهمُّ هو قياسُهُ بالزمنِ الاجتماعيِّ[1].

---

(١) **انظر**: «جريدة الشرق الأوسط»، العدد (٥٠٣٧).

خلاصةُ القولِ: أنَّ الزَّمَنَ لا يَحُولُ دونَ الحَرَكَةِ، بل المسؤولُ عن الحَرَكَةِ هو الطاقةُ المُنْتِجةُ للحركةِ، **وأضربُ على ذلك مثالًا**: وهو ذلك العَدَّاءُ الذي يجري مئةَ مترٍ في عشرينَ ثانيةً، فلو أنه ضاعف جُهْدَهُ وزاد مِنْ حركتِهِ، لربَّما قَطَعَ تلك المسافةَ في عشرِ ثوانٍ أو أقلَّ[١].

فالحَرَكةُ هي التي تقتضي الوقتَ، ولكنَّها لا تُسبِّبُهُ، وهي رهنٌ لوجودِهِ، وليس هو رهنًا لوجودِها[٢].

وربَّما وقَعَ في أذهانِ بعضِ الناسِ لَبْسٌ حولَ مسألةِ **بَرَكَةِ الوقتِ** بسببِ ما جاء في حديثِ أبي هريرةَ ﷺ مرفوعًا: (**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى... يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ**)؛ رواه البخاريُّ[٣]، وبما رواه أبو هريرةَ أيضًا مرفوعًا: (**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، فَتَكُونَ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَيَكُونَ الشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ، وَتَكُونَ الجُمُعَةُ كَاليَوْمِ، وَيَكُونَ اليَوْمُ كَالسَّاعَةِ، وَتَكُونَ السَّاعَةُ كَاحْتِرَاقِ السَّعْفَةِ**)[٤].

فربَّما احتجَّ هؤلاءِ بهذا الحديثِ وفَهِمُوهُ فهمًا خاطئًا، لا سيَّما وقد ذهَبَ بعضُ شُرَّاحِ الحديثِ إلى أنَّ المقصودَ بتقاربِ الزمانِ هو قِلَّةُ البَرَكةِ فيه!

قال ابنُ حَجَرٍ تأييدًا لهذا القولِ: «الذي تضمَّنه الحديثُ قد وُجِدَ

---

(١) وقد حصل هذا بالفعل، فقد قطَعَ أحدُ العدَّائين الأمريكيين مسافة الـ(١٠٠) متر في تسع ثوانٍ فقط! **أي**: بمعدل ثانية واحدة تقريبًا لكلِّ عشرة أمتار!!!

(٢) **انظر**: «نظرية الإيقاع العربي» لمحمد العياشي (ص٥٨ فما بعد).

(٣) «صحيح البخاري»، كتاب الاستسقاء: باب ما قيل في الزلات والآيات (١/ ٣٥٠) (٩٨٩).

(٤) أخرجه أحمد في «المسند» (١٦/ ٥٥٠) (١٠٩٤٣)، وقال الهيثمي: «رجاله رجال الصحيح»، وقال ابن كثير: «إسناده على شرط مسلم»، وصححه الألباني والأرناؤوط، **وانظر**: «أشراط الساعة» للوابل (ص١٢٠).

في زمانِنا هذا؛ فإنا نجدُ مِنْ سُرْعةِ مَرِّ الأيامِ ما لم نكنْ نجدُهُ في العصرِ الذي قبلَ عصرِنا هذا، وإنْ لم يكنْ هناك عيشٌ مستلذٌّ!»(١).

فأقولُ جوابًا عن هذا اللبسِ:

أولًا: هذا اجتهادٌ لبعضِ العُلَماءِ الذين شَرَحُوا الحديثَ، وإلَّا فقد فَسَّرَهُ آخرونَ بغيرِ هذا؛ كما هو مزبورٌ في كتبِ شروحِ الحديثِ(٢).

ثانيًا: أنَّ هذا مِنْ عَلاماتِ الساعةِ الصغرى، وعلاماتُ الساعةِ الصغرى والكبرى لا يَعْلَمُ أحدٌ متى ستقعُ، وإنَّما المعلومُ أنها قبلَ قيامِ الساعةِ فقطْ، ولا يُدْرَى هل ظهَرَتْ هذه العلامةُ قبلَ زمانِنا هذا، أو في زمانِنا، أو أنها ستظهرُ بعدَ زمانِنا؛ هذا كلُّهُ من علمِ الغيبِ.

ثالثًا: أنَّ الحَرَكةَ تبقى حركةً، والزمنَ يبقى زمنًا، ولكنَّ الذي تغيَّر هو مقدارُ الزمنِ، فلا يَلْزَمُ من تناقصِ الزمنِ تناقصُ الحَرَكةِ، وعليه فينبغي أن نُضاعِفَ الجُهْدَ لتداركِ نقصِ الزمنِ بزيادةِ الحركةِ؛ خصوصًا أنَّ التطوُّرَ التِّقْنِيَّ المعاصرَ قد سَدَّ كثيرًا من هذا النقصِ الزمنيِّ، فقد كان العَالِمُ في السابقِ ربَّما رحَلَ في طلبِ المسألةِ الواحدةِ أو الحديثِ الواحدِ شهرًا كاملًا، بينما قد يَقْطَعُ الآنَ تلكَ المسافةَ في سُوَيْعاتٍ، وربَّما لا يحتاجُ للرحلةِ أصلًا، فقد تَيسَّرَتِ المعلومةُ وأصبحتْ في متناولِ كلِّ أحدٍ وهو جالسٌ في بيتِهِ، عن طريقِ وسائلِ الاتصالِ الحديثةِ، لا سيَّما (الإنترنت) الذي يُعَدُّ بحقٍّ آيةَ هذا العصرِ.

لِكُلِّ زَمَانٍ مَضَى آيَةٌ ... وَآيَتُنَا الْيَوْمَ يَا قَوْمُ (نِتْ)!!

وربَّما مكَثَ العالِمُ في ذلك الوقتِ يبحثُ عن مسألةٍ واحدةٍ أيامًا

---

(١) «فتح الباري» (١٣/١٦).

(٢) **انظر تلك الأقوال ومناقشتها في:** «فتح الباري» لابن حجر (١٣/١٦ فما بعد).

متطاولةً، أو في نَسْخِ كتابٍ واحدٍ شهورًا عدةً، أمَّا الآنَ فقد أصبح الأمرُ مُتيسِّرًا جِدًّا؛ حيثُ يستطيعُ الواحدُ منا أنْ يَصِلَ لما يُرِيدُ خلالَ ثوانٍ قليلةٍ ـ بعدَ ظهورِ الموسوعاتِ العلميةِ الحاسوبيةِ الضَّخْمةِ ـ كما أصبحتِ الكتبُ متوفِّرةً بطبعاتٍ متعدِّدةٍ، مخدومةً بفهارسَ متنوِّعةٍ، فهذا مما يُعِينُ على زيادةِ الحَرَكةِ، ومحاولةِ كسبِ المزيدِ من الوقتِ حتى وإنْ قَلَّتْ فيه البَرَكةُ عما كان في السابقِ.

رابعًا: أنَّ البَرَكةَ التي تكونُ في الوقتِ ليستْ ذاتيةً محضةً، فما كان العلماءُ السابقون يَخْلُدُونَ للراحةِ والخمولِ مُعْتَمدين على بَرَكةِ الوقتِ! وإنما كانوا يسهرون الليالِيَ، ويَبْذُلُونَ غايةَ الجهدِ في الطلبِ والتحصيلِ.

فهذا الإمامُ البخاريُّ ـ رحمه الله تعالى ـ كان ربَّما قام في الليلةِ الواحدةِ نحوًا من عشرينَ مرَّةً لتسجيلِ ما يَسْنَحُ له من الفوائدِ![(١)].

وهذا الإمامُ النوويُّ لمَّا وردَ دمشقَ، وسكنَ المدرسةَ الرواحيّةَ، مكَثَ قريبًا من سنتينِ لا يَضَعُ جنبَهُ على الأرضِ، وكان يقرأُ في اليومِ اثنَيْ عشرَ درسًا على المشايخِ شرحًا وتصحيحًا؛ في: «المهذَّبِ»، و«الوسيطِ» درسان، و«الجمعِ بين الصحيحين»، و«صحيحِ مسلمٍ»، و«أسماءِ الرجالِ»، و«اللمعِ» لأبي إسحاقَ في أصولِ الفقهِ، و«اللُّمَعِ»

---

(١) **قال محمد بن يوسف البخاري:** «كنت مع محمد بن إسماعيل بمنزله ذات ليلة، فأحصَيْتُ عليه أنه قام وأَسْرَجَ يستذكرُ أشياء يعلِّقها في ليلةٍ ثماني عشرة مرة!».

وقال محمد بن أبي حاتم الوراق: «كان أبو عبد الله، إذا كنتُ معه في سفر، يجمعنا بيت واحد، إلا في القيظ أحيانًا، فكنتُ أراه يقوم في ليلةٍ واحدةٍ خمسَ عشرةَ مرةً إلى عشرينَ مرةً، في كل ذلك يأخذ القَدَّاحة، فيوري نارًا، ويُسْرِج، ثم يخرج أحاديث، فيعلِّم عليها». «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٢/ ٤٠٤).

لابنِ جِنِّيْ في النحوِ، و«إصلاحِ المنطقِ» لابنِ السِّكِّيتِ في التصريفِ، و«المُنْتَخَبِ» في أصولِ الفقهِ، وكتابٍ آخرَ في الأصولِ لم يسمُّوه. وكان لا يأكُلُ في اليومِ والليلةِ سوى أكلةٍ بعدَ العشاءِ، ولا يَشْرَبُ شَرْبةً إلا في وقتِ السحرِ، وكان كثيرَ السهرِ في العبادةِ والتلاوةِ والتصنيفِ[1].

وربَّما مشى الطالبُ في ذلك الوقتِ آلافَ الأميالِ في طلبِ العلمِ، حتى إنَّ بَعْضَهم بال الدَّمَ من كثرةِ الإجهادِ والتَّعَبِ! كما حصَلَ لأبي الفضلِ ابنِ طاهرٍ القَيْسرانيِّ[2].

ولا أكادُ أُحْصِي أولئكَ العلماءَ الذين كانوا يقرؤون الكتابَ الواحدَ عَشَراتِ المراتِ، بل مئاتِ المراتِ، وربَّما أعاد بعضُهم قراءةَ الكتابِ الواحدِ ألفَ مرةٍ!![3].

---

(١) **انظر**: «تاريخ الإسلام» للذهبي (١٥/ ٣٢٥)، و«مرآة الجنان» لليافعي (٤/ ١٣٨)، و«طبقات الشافعيين» لابن كثير (ص٩١٠)، و«فوات الوفيات» لابن شاكر الكتبي (٤/ ٢٦٥).

(٢) تذكرة الحفاظ» للذهبي (٤/ ١٢٤٢).
وقد كان ابن طاهرٍ هذا يمشي في الليل والنهار عشرين فرسخًا (نحو مئة كيلو متر!!).
انظر: «صفحات من صبر العلماء» لأبي غدة (ص٣٣٤).

(٣) فهذا مجد الدين أبو الفداء إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن الفرّاء الحرّاني ثم الدمشقي الفقيه الحنبلي، يقال: إنه قرأ (المقنع) مئة مرة!
«تاريخ ابن الوردي» (٢/ ٢٨١)، و«شذرات الذهب» لابن العماد (٨/ ١٥٥).
ـ وهذا أبو نصر الفارابي: **قال ابن خَلِّكان**: «يقال: إنه وُجِدَ «كتاب النَّفْس» لأرسطاليس، وعليه مكتوب بخط أبي نصر الفارابي: إني قرأت هذا الكتاب **مئتي مرة**! ونُقِلَ عنه أنه كان يقول: قرأت «السماع الطبيعي» لأرسطاليس الحكيم **أربعين مرة**». «وفيات الأعيان» لابن خَلِّكان (٥/ ١٥٤).
ـ وقال الكتاني في «الحِطَّة»، نقلًا عن السيد جمال الدين المحدِّث عن أستاذه السيد أصيل الدين؛ **أنه قال**: «قرأت صحيح البخاري نحو مئة وعشرين مرةً في الوقائع والمهمات لنفسي، وللناس الآخرين، فبأيِّ نيةٍ قرأتُهُ حصَلَ المراد، وكفى المطلوب»!!
وفي ترجمة الحافظ برهان الدين الحلبي من «الضوء اللامع»، للسخاوي: أنه قرأ البخاري أكثر من **ستين مرة**، ومسلمًا نحو **العشرين**. =

. . . .

= وفي ترجمة الحَجَّار من «تاريخ الحافظ ابن حجر»: أنه حدَّث بالصحيح أكثر من **سبعين مرة** بدمشق وغيرها. . . **وقد قال الحافظ السخاوي**: «حكى الحافظ الذهبي عن الحافظ شرف الدين أبي الحسن اليونيني أنه سمعه يقول: إنه قابَلَ نسخته من «صحيح البخاري»، وأسمعه **في سنةٍ إحدى عشرة مرة**». **انظر**: (الشهاب الهاوي، على منشئ الكاوي).

وفي «طبقات الخواص» للشهاب أحمد الشرجي اليمني، في ترجمة سليمان بن إبراهيم العلوي: أنه أتى على البخاري نحوًا من **مئتين وثمانين مرة**، قراءةً وسماعًا وإقراء. . .

ووجدتُ في ثَبَتِ الشهاب أحمد بن قاسم البُونِيّ: «رأيت خط الفيروزآبادي في آخر جزء من «صحيح الإمام البخاري»، قال: إنه قرأ «صحيح البخاري» أزيَدَ من **خمسين مرة**». «فهرس الفهارس والأثبات» (٢/ ١٠٤٥ فما بعد).

ـ **وقال المزني**: «قرأت الرسالة **خمس مئة مرة**، ما من مرةٍ إلا واستفدتُّ منها فائدة جديدة!!».

وفي رواية عنه **قال**: «أنا أنظُرُ في الرسالة من خمسين سنةً، ما أعلَمُ أني نظرتُ فيها مرة إلا واستفدتُّ شيئًا لم أكنْ عرفته». «المجموع شرح المهذب» (١/ ٩).

ـ **وقال ابن بشكوال**: «قرأت بخطّ بعض أصحابنا أنه سَمِعَ أبا بكر بن عطيَّة يذكُرُ أنه كرَّر «صحيح البخاري» **سبع مئة مرة**»!!

«الصلة في تاريخ أئمة الأندلس» لابن بشكوال (ص٤٣٣)، و«العبر، في خبر من غبر» (٢/ ٤١١)، و«تذكرة الحفاظ» (٤/ ٤٥)، و«تاريخ الإسلام» (١١/ ٢٩٥)، و«مرآة الجنان» لليافعي (٣/ ١٦٩)، و«شذرات الذهب» لابن العماد (٦/ ٩٦)، و«الغنية في شيوخ القاضي عياض» (ص١٨٩).

ـ **قال الكتاني تعليقًا على هذا**: «مع أن غالبًا المذكور عاش (٧٨ سنة)، خُذْ منها ما قبل بلوغه إلى وفاته، يبقى عندك ستين سنة، فعلى هذا كان يقرؤه في كل سنةٍ نحو **عشر مرات**، في كل شهر مرةً تقريبًا!!». «فهرس الفهارس والأثبات» (٢/ ١٠٤٥).

ـ **وقال الزَّبيدي**: «القِيرِيُّ، بالكسر: قرية باليمن من أعمال كَوْكَبَان، منها أوحد عصره الفقيه المحَدِّث عبد المنعم بن عبد الرحمٰن بن حسين بن أبي بكر النزيلي الشافعي، سمع الحديث من جماعة، ووالده شيخ الديار اليمنية، وعمه عبد القديم بن حسين، درس «العُبَاب» في الفقه **ثمان مئة مرة**»!!

«تاج العروس» (١٣/ ٥٠١) و(٣٠/ ٤٨٧).

ـ **وقال أبو العرب**: «حدَّثني أبي أحمدُ بن تَمِيم رَحِمَهُ اللَّهُ، أنهم ربَّما وجدوا في آخر بعض كتب عباس بن الوليد الفارسي المحدِّث: **دَرَسْتُهُ ألفَ مرة**»!!

«طبقات علماء إفريقية» (ص٢٥٤)، و«المحن» لأبي العرب التميمي (ص٢٩٢). =

فهل حَلَّتِ البركةُ في أوقاتِهم لأنَّهم كانوا متقدِّمين من حيثُ الزَّمَنُ فحَسْبُ؟ كَلَّا! ولكنْ من أجلِ الحَرَكةِ والمثابَرةِ التي بذلوها، فلا غروَ حينئذٍ إنْ تحرَّكَ الواحدُ منا اليومَ، واجتَهَدَ أنْ يَكْتسِبَ ما اكتَسَبُوا، ويُحصِّلَ ما حصَّلوا، فالجِدُّ والهِمَّةُ والاستعانةُ باللهِ وصِدْقُ التوكُّلِ عليه هي التي بارَكَتْ في أعمارِهم وأوقاتِهم؛ وإلَّا فماذا يستفيدُ الإنسانُ ـ ولو أنه عُمِّرَ ما عُمِّرَ نُوحٌ عليه السلام ـ إذا لم يَجِدَّ ويجتهدْ؟!

ثم انظرْ إلى حالِ ابنِ حَجَرٍ نفسِهِ ـ الذي قال هذا الكلامَ ـ ماذا صنَعَ؟ هل قعَدَ وتقاعَسَ عن العملِ والحَرَكةِ؟ أم أنه جدَّ واجتَهَدَ، وبذَلَ وكافح حتى أخرَجَ لنا هذه المصنَّفاتِ العظيمةَ، التي لو كُلِّفَ أحدُنا نسْخَ بعضِها ما استطاع، ولَتَصَرَّمَ عُمْرُهُ دونَ ذلك! فكيف بتلك التحريراتِ الدقيقةِ، والتحقيقاتِ العجيبةِ التي رَقَمَها في كتبِهِ، لا سيَّما كتابُهُ «فتح الباري»، ولا هِجْرةَ بعدَ الفتحِ![1].

= ـ وهذا ابن هشام ذُكِرَ عنه أنه ختم (الألفية) على بعض شيوخه **ألف مرة!!**

انظر: «الوفيات» لابن قنفذ (ص٣٧٧)، و«عجائب الآثار» للجبرتي (٢/ ١٥٠)، و«حلية البشر، في تاريخ القرن الثالث عشر» للبيطار (ص١٤٠٦).

ـ وقال أبو محمد عبد الله بن إسحاق المعروف بابن التَّبَّان: «كنتُ أول ابتدائي أَدْرُسُ الليل كله، فكانت أمي تنهاني عن القراءة بالليل، فكنت آخذ المصباح فأجعله تحت الجفنة، وأتعمَّد النوم، فإذا رَقَدَتْ أخرجتُ المصباح، وأقبلت على الدرس» ـ وكان كثير الدرس ـ ذُكِرَ أنه درَسَ كتابًا **ألف مرة!!** «ترتيب المدارك، وتقريب المسالك» (٦/ ٢٤٨).

ولما جرَتْ له المسألة التي تكلَّم فيها في الإيمان، وخالفه أبو محمد ابن أبي زيد رحمه الله، والقابسي، والسبائي، والجماعة رضي الله عنهم، وحدَثَ بينهم وبين بعضهم وَحْشةٌ بسببها، جعل موعدًا للإلقاء، وألقى عليهم كتاب الوضوء، فخالفوه في مسألة، فقال لهم: اسمعوا ما أقول: دَرَسْتُ هذا الكتاب **ألف مرة!!** فأَبَوْا إلَّا مخالفتَهُ، فقام بهم إلى داره، وأخرج الكتاب وأراهم المسألة كما قال.

المصدر نفسه (٦/ ٢٥٠).

(١) **قال الكتاني ـ لما نقل صاحب «الحِطَّة»، عن ابن خلدون: أن شرحَ «صحيحِ البخاري»** =

ولقد بلَغَتْ مؤلَّفاتُهُ كما ذكَرَ الدكتورُ شاكر محمود عبد المنعم[1]: اثنين وثمانينَ ومئتي مصنَّفٍ!!

خامسًا: أنه يُوجَدُ في عَصْرِنا هذا الذي نعيشُهُ علماءُ وباحثون آمنوا بضرورةِ الحَرَكةِ، ولم يلتفتوا إلى الزمنِ، فأبدعوا وأنتجوا ومَلَؤُوا الدنيا علمًا وعملًا، وجهادًا ودَعْوةً، حتى جاوَزَتْ مؤلَّفاتُ بعضِهم المئةَ! وهم ـ بحمدِ الله ـ كثيرٌ، وقد عَمَّ نفعُهم الصغيرَ والكبيرَ.

سادسًا: أنَّ الحَرَكةَ هي التي تُحدِّدُ طُولَ الزمانِ وقِصَرَهُ، وهذا أمرٌ مُقرَّرٌ من الناحيةِ النفسيةِ؛ فَلَيْلُ الأسيرِ في سجنِهِ ليس كليلِ النائمِ الحالمِ على فراشِهِ عندَ حبيبِهِ! وهذا هو ما يُسمَّى بـ(الزمنِ البسيكولوجيِّ)؛ فهذا أبو فِرَاسٍ الحَمْدانيُّ **يصفُ حالَهُ في السجنِ لمَّا أَسَرَتْهُ الرُّومُ**[2]:

وَأَسْرٍ أُقَاسِيهِ وَلَيْلٍ نُجُومُهُ أَرَى كُلَّ شَيْءٍ غَيْرَهُنَّ يَزُولُ

تَطُولُ بِيَ السَّاعَاتُ وَهْيَ قَصِيرَةٌ وَفِي كُلِّ دَهْرٍ لَا يَسُرُّكَ طُولُ

بينما نجدُ شاعرًا غَزَلِيًّا كعُمَرَ بنِ أبي ربيعةَ **يقولُ عن ليلِهِ مع محبوبِهِ**[3]:

= **دَيْنٌ على هذه الأمة ـ**: «ذلك الدَّيْنُ أُدِّيَ بشرح الحافظ ابن حجر؛ ولذلك لما قيل لشيخ شيوخنا الكاملين مولانا محمد بن علي بن محمد الشوكاني: أما تَشْرَحُ الجامع للبخاري كما شرحه الآخرون من العلماء؟ قال: لا هِجْرَةَ بعد الفَتْح! **يعني به**: «فتح الباري» للحافظ ابن حجر العسقلاني، ولا يخفى ما فيه من اللطف». انتهى.
«فهرس الفهارس» للكتاني (١/ ٣٢٢). **وانظر**: «الحِطَّة، في ذكر الصحاح الستة» لصديق حسن خان (ص٧١).

(١) **في كتابه النفيس**: ابن حجر العسقلاني مصنَّفاته ودراسة في منهجه وموارده في كتابه «الإصابة» (١/ ١٧٣ ـ ٣٨٦).

(٢) **انظر**: «يتيمة الدهر» للثعالبي (١/ ٨٨)، و«التذكرة الحمدونية» لابن حمدون البغدادي (٥/ ٨٠).

(٣) **انظر**: «خزانة الأدب» للبغدادي (٥/ ٣١٩)، و«زَهْر الأَكَم، في الأمثال والحكم» لِلْيُوسِيِّ (٢/ ١٧٨).

فَبِتُّ قَرِيرَ الْعَيْنِ أُعْطِيتُ حَاجَتِي أُقَبِّلُ فَاهَا فِي الخَلَاءِ فَأُكْثِرُ
فَيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ تَقَاصَرَ طُولُهُ وَمَا كَانَ لَيْلِي قَبْلَ ذَلِكَ يَقْصُرُ!

فالزمنُ في كلا الحالَيْنِ واحدٌ، لكنَّ الحَرَكَةَ والشعورَ طوّلا ذاك وقصَّرا هذا[1].

فهذا ما يتعلَّقُ بالزمانِ.

ـ **أمَّا المكانُ**: فهو عاملٌ مساعدٌ أيضًا[2]؛ لأنَّ اختيارَ المكانِ

---

(١) **وانظر**: «نظرية الإيقاع العربي» للعياشي (ص٦١).

(٢) لا يلزم أن يكون المكان بالضرورة رائقًا جميلًا؛ فهناك كتبٌ كثيرةٌ ألَّفها أصحابها في أماكن المحنة والابتلاء ـ كالسجن مثلًا ـ وأبدعوا فيها، ولهذا جعلتُهُ عاملًا مساعدًا فحسبُ؛ ومن تلك الكتب التي ألَّفها أصحابها في السجن:
ـ كتاب **«المبسوط»** لأبي بكر السرخسي رَحِمَهُ اللَّهُ.
قال القرشي: «أملى «المبسوط» نحو خمسة عشر مجلدًا وهو في السجن بأُوزْجَنْد محبوسْ، وعن أسباب الخلاص في الدنيا مأيوسْ، بسبب كلمةٍ كان فيها من الناصحينْ، سالكًا فيها طريقَ الراسخينْ، ليكونَ له ذخيرةً إلى يوم الدينْ، وإنما يتقبَّل الله من المتقينْ، وهو يتولَّى الصالحينْ، ولا يهدي كيد الخائنينْ، ولا يُضِيعُ أجرَ المحسنينْ».
وقد ذكَرَ في مواضع من كتابه هذا تشكِّيه من السجن، **وذلك كَمِثْلِ قوله عند فراغه من شرح العبادات**: «هذا آخِرُ شرح العباداتْ، بأوضح المعاني وأوجز العباراتْ، أملاه المحبوسُ عن الجمعةِ والجماعاتْ!».
وقوله في آخر شرح الإقرار: «انتهى شرحُ كتابِ الإقرارْ، المشتمل من المعاني على ما هو سِرُّ الأسرارْ، أملاه المحبوسُ في موضعِ الأشرارْ، مصلِّيًا على النبي المختارْ!» رحمه الله تعالى ورضي عنه. **انظر**: «**الجواهر المضية، في طبقات الحنفية**» (٧٨/٣ فما بعد).
ـ وابن سينا كتب رسالته عن (**القُولَنْج**)، ورسالة (**حي بن يقظان**)؛ وهو في السجن.
ـ وشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ كتَبَ أكثر كتبه وهو في السجن، كما في «العقود الدرية» (ص٦٧ و٨٠)، وغيرها؛ فمن ذلك:
ـ كتاب **«درء تعارض العقل والنقل»**، المطبوع في أحد عشر مجلدًا، والعجيب أنه ألَّفه بعد أن أُخِذَتْ منه جميع كتبه، ولم يكن لديه مصادرُ يستمدُّ منها!!
ـ وكتاب **«التسعينية»**، ألّفه (سنة ٧٠٦هـ) في سجن مصر حين طلبوا منه أن يكتُبَ لهم =

المناسبِ والارتياحَ له يُحدِثُ في النفسِ قُوَّةً، وفي الهِمَّةِ نشاطًا، ويُساعدُ القوةَ النفسيةَ على بُلُوغِ غايتِها، وعلى الثباتِ والتمكُّنِ؛ ولذا تَجِدُ أنَّ الناسَ يَحِنُّونَ إلى أوطانِهم؛ لأنَّهم يجدونَ فيها من الرَّاحةِ النفسيةِ ما لا يَجِدُونَهُ في غيرِها، وهذا أمرٌ جُبِلَتْ عليه النفوسُ، كما أنَّك تجدُ كلَّ أحدٍ يَحرِصُ على اختيارِ المُقَامِ والمكانِ الذي يرتاحُ فيه ويأْمَنُ، وإذا تَتبَّعْتَ سِيَرَ العلماءِ، وَجَدت أنَّ بعضَهم قد أبدعوا في بعضِ مؤلَّفاتِهم؛ لأنَّهم ألَّفوها في أماكنَ هادئةٍ جميلةٍ.

فقد ذُكِرَ عن الفارابيِّ أنه كان مُدَّةَ مُقامِهِ في دمشقَ لا يكونُ غالبًا إلَّا عندَ مجتمعِ ماءٍ، أو مُشْتَبَكِ رياضٍ، وألَّف هناك كُتُبَهُ[1].

وكذلك الإمامُ الذَّهَبِيُّ: فقد ذُكِرَ أنَّه ألَّفَ أعظمَ مؤلَّفاتِهِ، وهو «تاريخُ الإسلامِ»، و«سِيَرُ أعلامِ النُّبَلاءِ»، وغيرها، مُدَّةَ إقامتِهِ في (كَفْر بَطْنا)،

= ورقةً فيها نفي الجهة، وأنَّ الله يتكلَّم لا بحرف وصوت... إلخ حتى يخرجوه من السجن، فرَدَّ عليهم بهذا الكتاب العظيم. **انظر**: «مقدمة الكتاب»، بتحقيق الدكتور العجلان (ص٥٩ ـ ٦٢)، و«موقف ابن تيمية من الأشاعرة» للدكتور عبد الرحمٰن المحمود (١/ ٢١٠).

ـ وكتاب «**تفسير آياتٍ أَشْكَلَتْ على كثير من العلماء**»، ألَّفه في السجن في آخر حياته؛ كما يظهر من كلام ابن عبد الهادي، **انظر**: «مقدمة التحقيق» (ص٩٥).

ـ وكتاب «**النبوات**»، قيل: إنه ألَّفه في السجن، وهو مِنْ آخر ما صنَّفه رحمه الله تعالى.

ـ وكتاب «**الرَّدِّ على الأخنائي**»، وكتاب «**معارج الوصول**»... وغيرها.

ـ كتاب «**الأزهار، في فقه الأئمة الأخيار**» لأحمد بن يحيى بن المرتضى بن المفضَّل بن منصور الحسني (ت٨٤٠هـ)، ألَّفه صاحبه في السجن؛ لخوفه نسيان ما حفظه من الفقه!

انظر: «مطلع البدور» (٢/ ١٠١)، و«الأعلام» للزركلي (١/ ٢٦٩).

ـ تفسير «**في ظلال القرآن**» لسيد قُطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ألَّفه صاحبه في السجن.

ـ كتاب «**مختصر صحيح مسلم**»، للألباني، ذكر صاحبُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه ألَّفه في السجن خلال ثلاثة أشهر.

(١) «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٥/ ١٥٦).

وهي قريةٌ من قُرى غُوطَةِ دمشقَ، التي هي أحدُ أجملِ بقاعِ الدنيا في ذلك الوقتِ[١].

وربَّما انْتَجَعَ العلماءُ هذه الأماكنَ الهادئةَ المُريحَةَ ليُجدِّدوا نَشَاطَهم، ويَسْتجِمُّوا ويُحْرِزُوا قُوّتَهم؛ **كما قال ابنُ الفَرَضيِّ عن سعيدِ بنِ عثمانَ التُّجِيبِيِّ ـ أحدِ المُحدِّثين الكبارِ، البصيرين بعِلَلِ الحديثِ ـ**: «كان له أقاربُ بِفِرِّيش[٢]، فكان ينتجعُهُ في كلِّ عامٍ ليُحْرِزَ قُوَّتَهُ، وفيها توفِّي سنةَ (٣٠٥هـ)»[٣].

وكذلك صنَعَ ابنُ خُزَيْمةَ، فكان يَخْرُجُ بِطُلَّابِهِ إلى بعضِ المتنزَّهاتِ ليستجمُّوا، وقد عَمِلَ مرةً دعوةً عظيمةً لا يَتَهيَّأُ مثلُهَا إلا لسلطانٍ[٤].

بل إنَّ ابنَ حَزْمٍ قد ذهَبَ إلى ما هو أبعدُ من ذلك، فهو يرى أنَّ الإقليمَ له تَعلُّقٌ بالذكاءِ والفهمِ! **فهو يقولُ في مَعْرِضِ مدحِ قُرْطُبةَ:**

---

(١) وكانت بداية إقامته فيها سنة (٧٠٣هـ)، وفيها تولَّى الخَطَابة.
انظر: «التبيان، في شرح الديوان» المنسوب للعكبري (٤/ ٢٥١)، و«البداية والنهاية» (١٨/ ٣٢)، و«سير أعلام النبلاء» (المقدمة/ ٤١).

(٢) بكسر أوله وثانيه، وسكون ثالثه، ثم شين معجمة: مدينة بالأندلس غربي فحص البلوط بين الجوف والغرب من قرطبة... يكون بها الرُّخَام الأبيض الجَيِّد، وفيها البندق الكثير والشجر، وبها معادن الحديد. **انظر:** «معجم البلدان» (٤/ ٢٥٩)، و«الروض المعطار، في خبر الأقطار» (ص٤٤٠).

(٣) «تاريخ علماء الأندلس» لابن الفرضي (١/ ٢٩٦).

(٤) نقل الحاكم أنَّ ابن خُزَيْمةَ عَمِلَ دعوةً عظيمةً عديمةَ النظيرِ في بُسْتان، فمَرَّ في الأسواق يعزمُ عَلَى التُّجّار، وعلى الناس، ليخرجوا معه، فكانوا يبادرون فرحين مسرورين حاملين ما أمكنهم من الشواء والحلوى والطيبات، حتى لم يتركوا في المدينة شيئًا من ذلك، واجتَمَعَ عالَمٌ لا يُحْصَوْنَ، وكان يومًا مشهودًا بكثرة الخَلْق، لم يتهيأ مثله إلَّا لسلطانٍ كبير!!
انظر: «تاريخ الإسلام» (٢٣/ ٤٢٥)، و«تذكرة الحفاظ» (٢/ ٢١٢)، و«السير» للذهبي (١٤/ ٣٧٨)، و«طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٣/ ١١٩)، و«تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة (ص١٢٩من الحاشية).

«وأمَّا في قسمِ الأقاليم: فإنَّ (قُرْطُبةَ) ـ مَسْقَطُ رؤوسنا، ومَعَقُّ تمائِمِنا ـ مع (سُرَّ مَنْ رأى)[١] في إقليمٍ واحدٍ، فلنا مِنَ الفَهْمِ والذكاءِ ما اقتضاه إقليمُنا، وإنْ كانتِ الأنوارُ لا تأتينا إلَّا مُغرِّبةً عن مطالعِها على الجُزْءِ المعمورِ[٢]؛ وذلك عندَ المُحْسِنِينَ للأحكامِ التي تَدُلُّ عليها الكواكبُ ناقصٌ من قوى دلائلِها، فلها مِنْ ذلك على كلِّ حالٍ حَظٌّ يفوقُ حَظَّ أكثرِ البلادِ بارتفاعِ أحدِ النَّيِّرَيْنِ بهَا تسعينَ دَرَجَةً، وذلك من أدلَّةِ التمكُّنِ في العلومِ، والنفاذِ فيها عندَ مَنْ ذَكَرْنا»[٣].

خامسًا: الاهتمامُ بالصِّحةِ والنشاطِ:

ومِنْ ذلك: الاعتناءُ بالطعامِ والرياضةِ، وقد تَقدَّمَ شيءٌ من هذا عندَ الكلامِ على (القُوَّةِ الجِسْميةِ)، **بَيْدَ أنِّي أُضِيفُ هنا ثلاثةَ أمورٍ**:

---

(١) **سُرَّ مَنْ رأى**: ويقال لها أيضًا: سَامَرَّاء، مدينةٌ بناها المعتصم بالعراق سنة عشرين ومئتين، ونزلها بأتراكه، كانت بين بغداد وتَكْرِيت على شرقيِّ دِجْلة، حسنة الهواء، مُحكمة البناء، وقد خَرِبَتْ من قديم.

انظر: «البلدان» لليعقوبي (ص٥٢ فما بعد)، و«آكام المرجان، في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان» للمنجم (ص٣٦)، و«صورة الأرض» لابن حوقل (١/ ٢٤٤)، و«معجم البلدان» للحموي (٣/ ١٧٣)، و«مراصد الاطلاع» للقطيعي (٢/ ٦٨٤).

فائدة: قال البكري: «سُرَّ مَنْ رأى»: بضَمِّ أوَّله وثانيه، قال محمَّد بن بشَّار: حدَّثني أحمد بن يحيى، عن ابن الأعرابي، أنَّ السُّرَّ عند العرب: السُّرُورُ بعينه، فمعنى هذا الاسم سُرُورُ مَنْ رأى. قال: ويجوز لك في بنائه وإعرابه من الوجوه ما جاز في حضرموتَ وبعلبكَّ ونظرائهما؛ فإنْ جعلت «سُرّ» فعلًا ماضيًا، ألزمت الفتح، وكذلك إن قلت: «سَرَّ مَنْ رأى» بفتح السين، ويجوز إعراب «سرّ» على الوجهين؛ أجاز الفَرَّاء: (هذا تَأَبَّط شرًّا)، و(مَرَرْتُ بتأَبَّطِ شرٌّ) على الإضافة». «معجم ما استعجم» (٣/ ٧٣٤).

(٢) **يعني**: المشرق.

(٣) «رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها» لابن حزم، ضمن «رسائل ابن حزم الأندلسي» (٢/ ١٧٤).

١ ـ أنه ينبغي للإنسانِ أن يعتنيَ بِصِحَّتِهِ وقُوَّتِهِ؛ فينتقي لبدنِهِ من الطعامِ الحَلَالَ الطَّيِّبَ دُونَ إسرافٍ ولا تقتيرٍ، ويَتجنَّبُ الأطعمةَ التي تُضْعِفُ الحفظَ، وتُفْسِدُ المِزَاجَ ـ وهي مذكورةٌ في كتبِ الطِّبِّ، وأدبِ الطَّلَبِ[١] ـ ويُقبِلُ على الأطعمةِ التي تُصْلِحُ ذهنَهُ، وتقوِّي خاطرَهُ

---

(١) **من الأشياء التي ذكروا أنها تقوِّي الحفظ، وتصفِّي الذهن**: الكندر، وتسمِّيه العامة: حصى لبان، وأكل الزبيب على الريق، وقلب الفستق، وشرب العسل، والجَلَّاب، والبَلَاذُر، واللبان الذكر.

انظر: «الطب النبوي» للذهبي (ص١٥١)، و«طب النبي» للمستغفري (ص٨)، و«الآداب الشرعية، والمنح المرعية» لابن مفلح (٢/ ٤٠٤)، و«الطب النبوي» لابن طولون (ص٢٢٧)، و«المقاصد الحسنة» للسخاوي (ص٦٩٢)، و«كشف الخفاء» للعجلوني (١/ ٥١٢)، و«المعيد، في أدب المفيد والمستفيد» للعلموي (ص١٠٠)، و«السعاية، في كشف ما في شرح الوقاية» للكنوي (ص٥٣٢).

ـ ومن الأشيـاء التي ذكروا أنها تضعف الحفظ، وتُورِثُ النسيان والبلادة وضعف الحواس: أكل الكُزْبَرة الخضراء، والتفاح الحامض، وسؤر الفأر، والجبن، والجُلْجُلان، والباقلاء، وشرب الخل، وكثرة تناول الألبان والأسماك، ومضغ العلك، وإدمان أكل لحم الجمل، ومخّ التيس الكبير.

انظر: «الكامل» لابن عدي (٢/ ٤٨٣)، و«الطيوريات» للسِّلَفي (٣/ ٩٥٦)، و«الحث على حفظ العلم» لابن الجوزي (ص٣٩)، و«النصيحة الكافية، لمن خصه الله بالعافية» لزروق (ص٢)، و«محاضرات الأدباء» للراغب (١/ ٦١)، و«ميزان الاعتدال» للذهبي (١/ ٥٧٣)، و«الطب النبوي» له (ص١٥١)، و«طب النبي» للمستغفري (ص٨)، و«زاد المعاد» لابن القيم (٤/ ٣٥٥)، و«الطب النبوي» لابن طولون (ص٢٢٨)، و«المقاصد الحسنة» للسخاوي (ص٦٩١)، و«نزهة المجالس، ومنتخب النفائس» للصفوري (٢/ ١٦١)، و«روض الأخيار، المنتخب من ربيع الأبرار» للأماسي (ص٣٨٩)، و«الديباج المذهب» لابن فرحون (ص١٣٣)، و«المعيد، في أدب المفيد والمستفيد» للعلموي (ص١٠٠)، و«غذاء الألباب» للسفاريني (٢/ ٥١).

وقد جمع الشيخ علم الدين السخاوي ما يُورِثُ النسيان في أبيات **قال فيها**:

تَوَقَّ خِصَالًا خَوْفَ نِسْيَانِ مَا مَضَى ... قِرَاءَةَ أَلْوَاحِ الْقُبُورِ تُدِيمُهَا

وَأَكْلَكَ لِلتُّفَّاحِ مَا كَانَ حَامِضًا ... وَكُزْبَرَةً خَضْرَاءَ فِيهَا سُمُومُهَا

كَذَا الْمَشْيُ مَا بَيْنَ الْقِطَارِ وَحَجْمُكَ الْـ ... ـقَفَاءَ وَمِنْهَا الْهَمُّ وَهْوَ عَظِيمُهَا =

وتَشْحَذُهُ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا لم يُراعِ هذا الجانبَ ربَّما أُصِيبَ بمرضٍ، أو شَلَّ تفكيرُهُ شَلَلًا يُبْطِلُ نشاطَهُ وقُوَّتَهُ، **قال القَرَافيُّ**: «إنَّ أكلَ لحومِ الحَيَوانِ من فروضِ الكفايةِ؛ لئلا تَضْعُفَ العقولُ عن العلومِ، والأجسادُ عن مُلاقاةِ الأعداءِ، فتُستأْصَلَ شَأْفَةُ الإسلام، وتُفْقَدَ هُداةُ الأنام»[(١)].

وهذا الإمامُ النَّسَائيُّ صاحبُ «السُّنَنِ» كان قُوتُهُ كلَّ يومٍ كما قيل: رطلَ خُبْزٍ جيدٍ، يُؤْخَذُ له مِنْ سويقةِ العَرَّافين لا يأكُلُ غَيْرَهُ، وكان يُكْثِرُ أكلَ الدُّيُوكِ الكبارِ، تُشْتَرَى له وتُسمَّنُ، ثم تُذْبَحُ، فيأكُلُ منها كلَّ يومٍ دِيكًا، ويشربُ عليه نَقِيعَ الزبيبِ الحلالِ، وكان يُؤْثِرُ لباسَ البُرُودِ النُّوبيةِ الخُضْرِ، **ويقولُ**: هذا عِوَضٌ من النَّظَرِ إلى الخُضْرةِ من النباتِ فيما يُرَادُ لقوةِ البصرِ[(٢)].

وذُكِرَتْ أشياءُ من هذا القبيلِ عن ابنِ المُبَارَكِ، وابنِ الجوزيِّ، وغيرِهم.

٢ ـ أنَّ كثيرًا من العلماءِ كانوا يستعملون بعضَ الوَصَفاتِ الغذائيَّةِ والدوائيةِ؛ لزيادةِ الحفظِ، أو لِشَحْذِ الذهنِ، كما تركوا أشياءَ أُخرى؛ لأنها تُؤثِّرُ على الذِّهْنِ والبَدَنِ؛ ذلك لأن بعضَ الأطعمةِ تُساعِدُ على جفافِ البَلْغَمِ، مما يُساعدُ على الحِفْظِ والفَهم[(٣)].

= **وَمِنْ ذَاكَ بَوْلُ المَرْءِ في المَاءِ رَاكِدًا ... كَذَلِكَ نَبْذُ القَمْلِ لَسْتَ تُقِيمُهَا**
وَلَا تَنْظُرِ المَصْلُوبَ في حَالِ صَلْبِهِ ... وَأَكْلُكَ سُؤْرَ الفَأْرِ وَهْوَ تَمِيمُهَا
«حياة الحيوان الكبرى» للدَّميري (٢/ ٢٧٣).

(١) «الأمنيّة، في إدراك النيّة» للقرافي (ص٢٩).

(٢) **انظر**: «تهذيب الكمال» للمزي (١/ ٣٣٧).

(٣) **قال الزَّرْنُوجي**: «كلُّ ما يقلِّل البلغم والرطوبات يزيدُ في الحفظ، وكلُّ ما يزيدُ في البلغم يورث النسيان». «تعليم المتعلم، طريق التعلم» (ص٦١).

ولهذا؛ فإنَّك تجدُ أنَّ أحسنَ الأوقاتِ للحفظِ وصَفَاءِ الذِّهْنِ، هي التي تَعْقُبُ النومَ؛ لأنَّ البَلْغَمَ يكونُ جافًّا بَعْدَهُ؛ **قال الشافعيُّ**: «ما رأيتُ صاحبَ بَلْغَمٍ أحفظَ من الحُمَيْدِيِّ، كان يحفظُ لِسُفْيانَ بنِ عُيَيْنَةَ عَشْرةَ آلافِ حديثٍ!»[1].

وقال الحاكمُ: «حدَّثنا أبو زكريا العَنْبَرِيُّ، حدَّثنا أحمدُ بنُ سَلَمةَ، سمعتُ إسحاقَ، يقولُ: قال لي عبدُ اللهِ بنُ طاهرٍ: بَلَغني أنكَ شَرِبْتَ البَلَاذُرَ[2] للحفظِ! قلتُ: ما هَمَمْتُ بذلك، ولكنْ أخبرني معتمرُ بنُ سليمانَ، قال: أخبرنا عثمانُ بنُ ساجٍ، عن خُصَيْفٍ، عن عِكْرِمةَ، عن ابنِ عباسٍ، قال: خُذْ مِثْقالًا مِنْ كُنْدُرٍ[3]، ومثقالًا من سُكَّرٍ، فدُقَّهما،

(١) «السير» للذهبي (١٠/٦١٨).

(٢) **البَلَاذُر**: نباتٌ طِبِّيٌّ من فصيلة البُطْمِيَّات، وشجرته تنبت بأرض الهند والصين، وهو يشبه القسطل لونًا وشكلًا، ويُطلق عليه أيضًا (حَبُّ الفَهْم) و(الكاشو)، ذكروا أنه جيد لفساد الذهن والنسيان وذهاب الحفظ، لكنه مضرٌّ جدًّا كما سيأتي. **انظر**: «القانون في الطب» لابن سينا (٢/ ١٠٠)، و«المعتمد في الأدوية المفردة» للتركماني (ص٣١)، و«معجم اللغة العربية المعاصرة» لأحمد مختار عمر (١/ ٢٣٧)، و«تكملة المعاجم العربية» لدوزي (٨/ ٢٢٢).

ـ وقد شربه جماعةٌ من العلماء لزيادة الحفظ ـ حتى إن بعضهم قد نُسِبَ إليه ـ منهم:

١ ـ أبو داود الطيالسي: كان كثير الحفظ، شَرِبَ البَلَاذُر؛ فحفظ أربعين ألف حديث. «المنتظم» لابن الجوزي (١٠/ ١٣٣).

٢ ـ عبد الرحمٰن بن مهدي: شرب البلاذر للحفظ؛ فحفظ عشرة آلاف حديث. «المنتظم» لابن الجوزي (١٠/ ١٣٣).

٣ ـ إبراهيم بن محمد بن شِنْظِير الأموي: من أهل طُلَيْطِلة، اختصر «المدوَّنة»، و«المستخرجة»، وكان يحفظهما ظاهرًا، ويلقي المسائل من غير أن يمسك كتابًا، ولا يقدِّم مسألة ولا يؤخِّرها. «الصلة» لابن بشكوال (ص٩٣).

٤ ـ عبد الله بن إبراهيم بن حَجَّاج الكتامي السَّبْتي: كان من أهل الحفظ والمعرفة بالفقه وعلم التوحيد والاعتقاد، يقال: إنه شرب البلاذر للحفظ؛ فانتفع به، وأورثه حِدَّة في خُلُقه. «الصلة» لابن بشكوال (ص٢٨٧). وغيرهم كثيرٌ كما سيأتي.

(٣) **الكُنْدُر بالضم**: ضَرْبٌ من العِلْك، نافعٌ لقطع البَلْغَمِ جِدًّا. «القاموس» (ك ن د ر).

ثم اقتحمهما على الرِّيقِ؛ فإنَّه جيدٌ للنسيانِ والبولِ. فدعا عبدُ اللهِ بِقِرْطاسٍ فكتبه»[١].

وقال المغامي: كانتْ لابنِ حَبِيبٍ قارورةٌ قد أذاب فيها اللُّبَانَ في العسلِ، يشربُ منها كلَّ غداةٍ على الرِّيقِ؛ للحفظِ[٢].

لكنّ أعظمَ وصفةٍ عندهم كانت شُرْبَ ماءِ زَمْزَمَ؛ فقد شَرِبَهُ جماعةٌ من العلماءِ لحفظِ العلم؛ عملًا بحديثِ جابرٍ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، قال: **(مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ)**[٣]؛ منهم: الشافعيُّ[٤]، وابنُ خُزَيْمةَ[٥]، والحاكمُ[٦]،

---

(١) «سير السلف الصالحين» للأصبهاني (ص١٠٧٥)، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي (١١/ ٣٦٨).

(٢) «ترتيب المدارك» للقاضي عياض (٤/ ١٣٨)، و«الديباج المذهب» لابن فرحون (ص١٥٦).

(٣) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٣/ ١٤٠) (١٤٨٤٩)، وابن ماجه في «سننه»، كتاب المناسك: باب الشرب من زمزم (٢/ ١٠١٨) (٣٠٦٢) وغيرهما، وقد حسَّنه ابن القيم، والمنذري، وقواه ابن حجر، والألباني.

(٤) ذكر الفاسي أن الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ شربه للعلم؛ فكان فيه غايته، وللرمي؛ فكان يصيب العشرة من العشرة، والتسعة من العشرة. **انظر**: «شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام» (١/ ٣٣٨).

(٥) قيل لابن خزيمة يومًا: «مِنْ أين أوتيت العلم؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: **(ماءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ له)**، وإني لمَّا شَرِبْتُ ماءَ زمزمَ، سألتُ اللهَ علمًا نافعًا».
انظر: «تاريخ الإسلام» (٢٣/ ٤٢٣)، و«تذكرة الحفاظ (٢/ ٢٠٨)، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٤/ ٣٧٠)، و«طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٣/ ١١٠)، و«الوافي بالوفيات» للصفدي (٢/ ١٣٨)، و«طبقات الشافعيين» لابن كثير (ص٢٢١).

(٦) **ذُكر عنه أنه قال**: «شربتُ ماءَ زمزمَ، وسألتُ الله أن يرزقني حُسْنَ التصنيف»؛ فبلَغَتْ تصانيفُهُ في أيدي النَّاسِ ألفًا وخمسَ مئةِ جُزْءٍ!!
انظر: «الصلة» لابن بشكوال (ص٥١٥)، و«تاريخ الإسلام» (٢٨/ ١٢٩)، و«تذكرة الحفاظ» (٣/ ١٦٥)، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٧/ ١٧١)، و«طبقات الفقهاء الشافعية» لابن الصلاح (١/ ١٩٩)، و«طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٤/ ١٥٩)، و«طبقات الشافعيين» لابن كثير (ص٣٦٠).

والخطيبُ البغداديُّ(١)، وابنُ العَرَبيِّ(٢)، وابنُ الغَمَّازِ(٣)، والأنصاريُّ(٤)،

---

(١) يُذْكَرُ عنه أنه لما حَجَّ، شَرِبَ من ماء زمزم ثلاث شَرْبات، **وسأل الله ثلاثَ حاجات**: **الأولى**: أن يحدِّث بتاريخ بغداد. **والثانية**: أن يملي بجامع المنصور. **والثالثة**: أن يدفن إذا مات عند بشر الحافي؛ فحصَلَتْ له الثلاثة.

انظر: «المنتظم» لابن الجوزي (١٦/ ١٣٤)، و«معجم الأدباء» للحموي (١/ ٣٨٥)، و«تاريخ الإسلام» (٣١/ ٩٥)، و«تذكرة الحفاظ» (٣/ ٢٢٣)، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٨/ ٢٧٩)، و«طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٤/ ٣٥)، و«الوافي بالوفيات» للصفدي (٧/ ١٢٧)، و«شذرات الذهب» لابن العماد (١/ ٣٩).

(٢) **قال ابن العربي**: «كنتُ بمكة مقيمًا في سنة (٤٨٩هـ)، وكنتُ أشربُ من ماء زمزم كثيرًا، وكلَّما شربتُ نويتُ العلمَ والإيمان؛ ففتَحَ الله لي ببركته في المقدار الذي يسَّره لي من العلم، ونسيتُ أن أشربه للعمل! ويا ليتني شربته لهما حتى يفتح الله لي فيهما، ولم يقدَّر، فكان صَفْوِي للعلمِ أكثَرَ منه للعمل». **انظر**: «العواصم من القواصم» (ص١٦).

(٣) **هو**: أبو الربيع سليمان بن هشام بن وليد بن كُلَيْب المقرئ، المعروف: بابن الغَمَّاز؛ **قال ابن حيان**: «حكى لي أبو محمد بن الحسين، عن أبي الربيع هذا أنه قال: حَجَجْتُ على شدة فقرٍ، فوَرَدتُّ زمزم، وقد رُوِّيتُ الحديثَ في مائها أنه لِمَا شُرِبَ له، فكَرَعْتُ حتى تضلَّعتُ، ثم دعوتُ الله فأخلصتُ، وقلتُ: اللَّهُمَّ إني مصدِّقٌ ما أدَّاه رسولُكَ الأمين، في بَرَكَةِ هذا الشِّرْبِ المَعين، من أنه لِماَ شُرِبَ له؛ فقد شربتُ اللَّهُمَّ بنية الدعاء، واثقًا باستجابتك، وإني أسألك غنى فقري في دَعَةٍ، وإسماءَ اسمي فيما أنتحلُهُ بحقيقة، ثم الشهادةَ في سبيلك، والزلفى بها لديك؛ قال: فما أبعدتُ أن تعرَّفْتُ الاستجابة في الثنتين، وإني لمنتظر الثالثة.

أما القرآن: فما أحسبُ أنَّ بأرضي أعلَمَ به مني، وأمَّا الغنى: فقد نلتُ منه حاجتي ـ وقد كان نوَّه به سليمان بن الحكم المستعين، وأجلسه للإقراء بالمسجد الجامع بقرطبة، وأصاب ثراءً ورفعة ـ وأرجو ألَّا يحرمني الله الثالثة مع نفاري عنها! فخرج مع سليمان يقيمُ له صلاتَهُ على رَسْمِهِ مع مَنْ قِبَلَهُ من الأمراء، فأصيب في وجهه معه في الهزيمة بعقبة البقر في صدر شوال سنة أربع مئة رَحِمَهُ ٱللَّهُ». «الصلة» لابن بشكوال (١/ ٣١٠).

(٤) **هو**: يحيى بن أحمد بن مسعود الأنصاري من علماء قُرْطُبة، حَكَىٰ أنه شرب ماء زمزم لحفظ القرآن، فتيسَّر عليه حفظه في أقرب مدة، وكان حسن الصوت به والإيراد له، يستدعيه الولاة لصلاة الأشفاع بهم في رمضان. **انظر**: «التكملة لكتاب الصلة» لابن الأَبَّار (٤/ ١٨٨).

وابنُ حَجَرٍ[١]، والسُّيُوطيُّ[٢]، وغيرُهم.

وكلُّهم ـ بفضلِ اللهِ ـ قد استفادَ من شُرْبِهِ، وحصَلَ له ما تمنَّى؛ **قال النوويُّ**: «وجاء: **(مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ)، معناه**: مَنْ شَرِبَهُ لحاجةٍ نالها، وقد جَرَّبَهُ العلماءُ والصالحون لحاجاتٍ أخرويةٍ ودنيويةٍ؛ فنالوها بحمدِ الله تعالى، وفضلِهِ»[٣].

٣ ـ ينبغي للإنسانِ أن يقتصدَ في هذا الأمرِ ولا يُسْرِفَ، خصوصًا في الأدويةِ، حتى وإنْ كانتْ طبيعيةً؛ **فإنَّ الإمامَ الشافعيَّ يقولُ**: «أخذتُ (اللُّبَانَ) سنةً؛ للحفظِ، فأعقبني صبَّ الدَّمِ سنةً!»[٤].

وقال أبو الخَطَّابِ بنُ دِحْيَةَ: «كان ابنُ حَزْمٍ قد بَرَصَ من أكلِ (اللُّبَانِ)، وأصابتهُ زَمَانَةٌ»[٥].

---

(١) ذكر السخاوي أن ابن حجر شرب ماء زمزم ليصلَ إلى مرتبة الذهبيِّ في الحفظ والفِطْنة. «الإعلان بالتوبيخ» (ص٤٧٢)، **وانظر**: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (المقدمة ص/٥٣).

(٢) **قال السيوطي**: «لما حَجَجْتُ شربتُ من ماء زمزم لأمورٍ: منها أن أصلَ في الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البُلْقيني، وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر». «حسن المحاضرة» (١/ ٣٣٨)، و«تاريخ الخلفاء» (ص٦).

لطيفة: قال ابن المقرئ: «كنا عند ابن عُيَيْنة، فجاءه رجل، فقال: يا أبا محمد! ألستم تزعمون أن النبي ﷺ قال: **(ماءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ له)**؟ قال: نعم، قال: فإني قد شربتُهُ لتحدِّثني بمئتي حديث!! قال: اقعُدْ، فحدَّثه بها». «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٤٥/ ٣٠٨).

(٣) «تهذيب الأسماء واللغات» (٣/ ١٣٩).

(٤) «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١٥٠)، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (٥١/ ٣٠٠)، و«العبر، في خبر من غبر» (١/ ٢٦٩)، و«سير أعلام النبلاء» (١٠/ ١٥) و(١٨/ ١٩٨)، و«تذكرة الحفاظ» للذهبي (١/ ٢٦٥)، و«مرآة الجنان» لليافعي (٢/ ١٩)، و«شذرات الذهب» لابن العماد (٣/ ١٩)، و«بغية الطلب، في تاريخ حلب» لابن العديم (٣/ ١٠٦٦).

(٥) «تاريخ الإسلام» (٣٠/ ٤١٠)، و«سير أعلام النبلاء» (١٨/ ١٩٨)، و«تذكرة الحفاظ» للذهبي (٣/ ٢٢٩).

كذلك فقد تأذَّى طائفةٌ من العلماءِ بشربِ البَلَاذُرِ؛ حيثُ شَرِبُوهُ من أجلِ الحفظِ؛ فأبو داودَ الطَّيَالِسِيُّ أصابه الجُذَامُ، وعبدُ الرحمٰنِ بنُ مَهْدِيٍّ أصابه البَرَصُ[١].

والبَلَاذُرِيُّ ـ صاحبُ كتابِ «فتوحِ البلدانِ» ـ وَسْوَسَ في آخرِ عمرِهِ وفسَدَ عقلُهُ؛ بسببِ شربِهِ، فشُدَّ بالبِيمَارِسْتَانِ إلى أن تُوُفِّيَ[٢].

ومختارُ بنُ عبدِ الرحمٰنِ الرُّعَيْنِيُّ يقالُ: إنه شَرِبَ البَلَاذُرَ للحفظِ، فأورثَهُ سُوءَ مزاجٍ، فلم يَزَلْ به إلى أن أهلكَهُ[٣].

وعبدُ الرحمٰنِ بنُ محمَّدٍ الفارسيُّ البغداديُّ أكلَ البَلَاذُرَ فتَغيَّرَ عقلُهُ[٤].

وابنُ الجوزيِّ شَرِبَ حَبَّ البَلَاذُرِ ـ على ما قيل ـ فسقَطَتْ لحيتُهُ، فكانت قصيرةً جِدًّا[٥].

وشعبانُ بنُ محمَّدِ بنِ داودَ المصريُّ، اتفَقَ أنه شَرِبَ البَلَاذُرَ، فحصَلَ له طرفُ نِشَافٍ، وأقام مدةً عاريًا من الثيابِ والعمامةِ، ثم تماثَلَ قليلًا، وطلبَ العلمَ[٦].

---

(١) **انظر خبرهما في:** «الثقات» للعِجْلي (ص٢٠١)، و«بيان الوهم والإيهام» لابن القطان (٥/ ٦٣٢)، و«الحث على حفظ العلم» لابن الجوزي (ص٦٧)، و«التقييد، لمعرفة رواة السنن والمسانيد» لابن نقطة (ص٢٧٨)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (١٣/ ٢٨٤)، و«البدر المنير» لابن الملقن (١/ ٢٦٢)، و«شذرات الذهب» لابن العماد (٣/ ٢٦).

(٢) «تاريخ الإسلام» للذهبي (٢٠/ ٢٨٩).

(٣) «ترتيب المدارك» للقاضي عياض (٨/ ٨٩)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٢٩/ ٤٢٢).

(٤) «تاريخ الإسلام» للذهبي (٣٦/ ٥٠٦).

(٥) «تاريخ الإسلام» للذهبي (٤٢/ ٣٠٤)، و«تذكرة الحفاظ» (٤/ ٩٥)، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢١/ ٣٧٨).

(٦) «إنباء الغمر، بأبناء العمر» لابن حجر (٣/ ٣٥٣).

وجابرُ بنُ داودَ البَلَاذُرِيُّ وَسْوَسَ في آخرِ أيامِهِ، فشُدَّ في المارستانِ ومات فيه، وكان سببَ وسوستِهِ أنه شَرِبَ ثمرَ البَلَاذُرِ على غيرِ معرفةٍ فلَحِقَهُ ما لحقه[1].

وأبو الحسنِ بنُ أبي خازنٍ شربَ البلاذرَ، فكمدَ وجهُهُ، واخْتَلَّ عقلُهُ[2].

وأحمدُ بنُ محمدِ بنِ عليٍّ العَبَّاديُّ الشافعيُّ المُقْرِئُ[3]، وغيرُهم.

---

(١) «معجم الأدباء» للحموي (٢/ ٥٣١).
وقيل: إن الذي خولط هو حفيده أبو بكر أحمد بن يحيى بن جابر، فالله أعلم.
انظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٣/ ١٦٢)، و«الوافي بالوفيات» للصفدي (٨/ ١٥٥)، و«فوات الوفيات» للكتبي (١/ ١٥٥).

(٢) **قال ابن العديم**: «حكى لي شيخنا الصاحب قاضي القضاة أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم، قال: كان أبو الحسن بن أبي خازن شابًّا ذكيًّا، وكان يقرأ عليَّ الفقهَ بالموصل هو وجماعةٌ معه، فشاورني يومًا في أكل ثمر البَلَاذُرِ، فنهيته عن ذلك، فمضى هو ورفيقان له واشتَرَوْا منه شيئًا ودقُّوه وجعلوه في هريسةٍ وأكلوها، فجاءني أبو الحسن بن أبي خازن ووجهُهُ قد أكمد، فوقَفَ معي في صحن المدرسة، وأخبرني أنه أكل ثمر البلاذر، فلم أنكر عليه خوفًا أن يستشعر ويتوهَّم، فهوَّنتُ الأمر عليه، فجعل يحادثني ونحن نمشي، ثم دخل إلى بيته في المدرسة، فأخرج الجرة والإبريق والكانون وجميع حوائجه، فعلمت أنه قد أثَّر معه، فسكَّنته، ثم أقمتُ عليه من يعالجه ويطعمه الهريسة في كل يوم، فواظب ذلك إلى أن سكَنَ عنه».
«بغية الطلب، في تاريخ حلب» (١٠/ ٤٣٩٨).

(٣) **قال السخاوي**: «لم يزل متقدِّمًا في الذكاء وسرعة الحفظ إلى أن تعاطى حَبَّ البلاذر وأكثر منه، بحيث كانت سلامته على غير القياس! قال: ومِنْ ثَمَّ صرتُ لا أحفظُ إلا بتكلُّفٍ زائدٍ، وأعقبني ذلك في السنة المستقبلة حرارةً خرَجَ في بدني منها أزيد من مئة دُمّلٍ، واحمرَّتْ واستمرَّت الدماميل تعتريني كل قليلٍ، بل انقطعتُ عن القراءة بسبب تعاطيه مدةً». «الضوء اللامع» (٢/ ١٤٨).
ضميمةٌ: **قال القاضي ابن خَلِّكان**: «قال لي بعض أصحابنا: سمعته (**يعني**: صاحب الترجمة) يومًا وهو يحكي للجماعة الحاضرين عنده، قال: لمَّا كنا في المدرسة النِّظَامِيَّةِ ببغداد، اتفق أربعة أو خمسة من الفقهاء المشتغلين على استعمال حَبِّ البلاذر، لأجل سرعة الحفظ والفهم، فاجتمعوا ببعض الأطباء، وسألوه عن مقدار =

ولذا قال الزَّجْرَاجِيُّ:

شَرِبَ (البَلَاذُرَ) عُصْبَةٌ كَيْ يَحْفَظُوا وَنَسُوا الَّذِي فِي ذِكْرِهِ مِنْ قَالِ
أَوَمَا رَأَوْا أَنَّ (البَلَا) شَطْرُ اسْمِهِ وَ(الضُّرُّ) آخِرُهُ بِقَلْبِ الذَّالِ![1]

وقال محمدُ بنُ الحسنِ: «لا يَصْلُحُ في هذا الشأن (يعني: طلبَ العلمِ) إلَّا مَنْ أحرَقَ قَلْبَهُ البنُّ»[2].

= ما يَستعمِلُ الإنسانُ منه وكيف يستعمله، ثم اشتروا القَدْرَ الذي قال لهم الطبيب، وشربوه في موضعٍ خارجٍ عن المدرسة، فحصَلَ لهم الجنون، وتفرَّقوا وتشتَّتوا ولم يُعْلَمْ ما جرى عليهم! وبعد أيام جاء إلى المدرسة واحدٌ منهم، وكان طويلًا، وهو عُرْيان ليس عليه شيء يستر عورته، وعلى رأسه بقيار كبير له عذبة طويلة خارجة عن العادة، وقد ألقاها وراءه فوصَلَت إلى كعبه، وهو ساكت، عليه السكينة والوقار، لا يتكلَّم ولا يعبث، فقام إليه مَنْ كان حاضرًا من الفقهاء وسألوه عن الحال، فقال لهم: كنا قد اجتمعنا وشربنا حَبَّ البلاذر، فأما أصحابي: فإنهم جُنُّوا وما سَلِمَ منهم إلا أنا وحدي! وصار يُظْهِرُ العقل العظيم والسكون، وهم يضحكون منه وهو لا يشعر بهم، ويعتقد أنه سالم مما أصاب أصحابه، وهو على تلك الحالة لا يفكِّر فيهم ولا يلتفت إليهم!!» «وفيات الأعيان» (٧/ ٩٤).

وانظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي (٤٦/ ١٣٥)، و«كنوز الذهب، في تاريخ حلب» لسبط ابن العجمي (١/ ٢٩٠)، و«مرآة الجنان» لليافعي (٤/ ٦٦).

(١) «تهذيب الفروق والقواعد السنية» لمحمد علي المالكي (١/ ٢١٥).

(٢) «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١٥٠).
وهو غير البُنِّ المعروف الذي تصنع منه القهوة الآن!
قال البيهقي: «البُنّ فيما بلغني: كامَخٌ (إدامٌ) يصنع بالشامات ومصر من عكر المُرِّي يتأدَّم به الغرباء». المصدر نفسه (٢/ ١٥٠).
وقد أنشد أبو البركات بن عبد المحسن التنوخي لنفسه بالمعرَّة يصف فقره:

هَمُّ الوَرَى فِي العِيدِ قَطْعُ ثِيَابِهِمْ جُدُدًا وَأَكْثَرُ هَمِّنَا الصَّابُونُ
وَالبُنُّ وَالزَّيْتُونُ جُلُّ طَعَامِنَا فِيهِ وَأَيْنَ البُنُّ وَالزَّيْتُونُ؟!

«بغية الطلب، في تاريخ حلب» لابن العديم (١٠/ ٤٣٣١).

إضاءةٌ: قال ابن العماد في حوادث سنة (٩٠٩هـ): «فيها توفي الشيخ الصالح العارف بالله تعالى أبو بكر بن عبد الله الشاذلي المعروف بالعيدروس، مبتكر القهوة المتَّخذة من البُنِّ المجلوب من اليمن.
وكان أصل اتخاذه لها أنه مَرَّ في سياحته بشجر البن، فاقتات من ثمره حين رآه متروكًا =

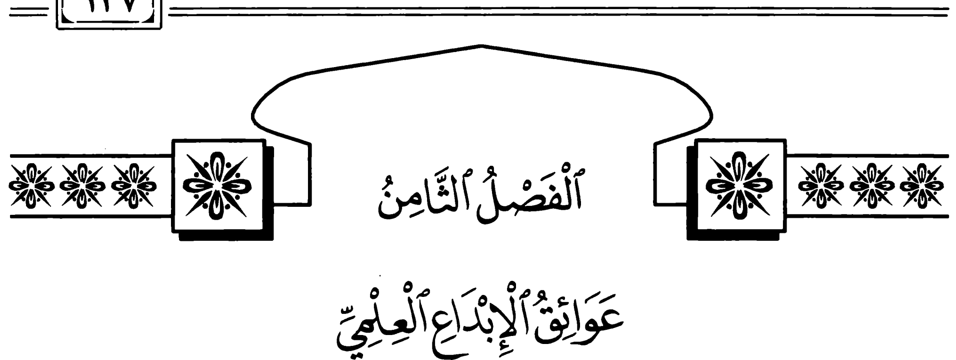
وعلى كلِّ حالٍ: فالأمرُ يَخْضَعُ للتجربةِ والذَّوْقِ والاستعدادِ.



= مع كثرته، فوجد فيه تجفيفًا للدماغ، واجتلابًا للسهر، وتنشيطًا للعبادة، فاتخذه قوتًا وطعامًا وشرابًا، وأرشَدَ أتباعه إلى ذلك، ثم انتشَرَتْ في اليمن، ثم في بلاد الحجاز، ثم في الشام ومصر، ثم سائر البلاد.

واختَلَفَ العلماء في أوائل القرن العاشر في القهوة حتَّى ذهب إلى تحريمها جماعةٌ، منهم الشيخ شهاب الدين العيثاوي الشافعي، والقطب ابن سلطان الحنفي، والشيخ أحمد بن عبد الحق السنباطي، تبعًا لأبيه، والأكثرون ذهبوا إلى أنها مباحة.

قال النجم الغَزيُّ في «الكواكب السائرة»: «وقد انعقد الإجماعُ بعدَ مَنْ ذكرناه على ذلك، وأما ما ينضم إليها من المحرَّمات فلا شبهة في تحريمه، ولا يتعدَّى تحريمه إلى تحريمها حيث هي مباحة في نفسها»». «شذرات الذهب» (٨/ ٣٩).



الْفَصْلُ الثَّامِنُ

عَوَائِقُ الْإِبْدَاعِ الْعِلْمِيِّ

عوائقُ الإبداعِ: هي الأمورُ التي تُسْهِمُ في تعطيلِ المُبْدِعِ في عَمَلِهِ، وتُعِيقُ عمليةَ إبداعِهِ، أو أنها تُكدِّرُ عمليةَ الإبداعِ ـ على الأقلِّ ـ وتُؤخِّرُها.

وهذه المعوِّقاتُ بعضُها بسببٍ من المُبْدعِ نفسِهِ، وبعضُها يَرْجِعُ إلى طبيعةِ الواقعِ والمجتمعِ الذي يعايشُهُ.

وجميعُ ما تقدَّمَ من الأسسِ والمقوِّماتِ والحوافزِ يَصْلُحُ عَكْسُها لأنْ يكونَ عائقًا للإبداعِ؛ **لكنَّني أَخُصُّ هنا أمورًا بالحديثِ عنها؛ لأهميَّتِها**:

أولًا: عدمُ تقديرِ المُبْدِعِ:

إنَّ العالِمَ له مَشَاعِرُ وأحاسيسُ، فإذا لم يُكْرَمْ ويُنْزَلْ منزلتَهُ اللائقةَ به، ربَّما أدَّى ذلك إلى أمورٍ تُعِيقُ إبداعَهُ ـ كما سيأتي ـ ذلك لأنَّ خِدْمةَ العلمِ وأهلِهِ شَرْطٌ على المجتمعِ الذي يعيشُ فيه المُبْدِعُ؛ بدءًا بالطلابِ، فمَنْ فوْقَهم من الجهاتِ والهيئاتِ والمؤسَّساتِ، وقد كان طائفةٌ من العلماءِ يَدْعُونَ بهذا لِطُلَّابِهم، فيقولون: يا فلانُ، خدَمَكَ العلمُ كما خَدَمْتَهُ! بل إنَّ الإمامَ الشافعيَّ رَحِمَهُ اللهُ قد جعله شَرْطًا لمن خدَمَ العلمَ؛ **حيثُ يقولُ**[1]:

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (١/ ٣٠٠).

الْعِلْمُ مِنْ شَرْطِهِ لِمَنْ خَدَمَهْ أَنْ يَجْعَلَ النَّاسَ كُلَّهُمْ خَدَمَهْ!

وقال عليٌّ الجُرْجانيُّ[١]:

وَلَمْ أَبْتَذِلْ فِي خِدْمَةِ العِلْمِ مُهْجَتِي لِأَخْدُمَ مَنْ لَاقَيْتُ لَكِنْ لِأُخْدَمَا
أَأَشْقَى بِهِ غَرْسًا وَأَجْنِيهِ ذِلَّةً إِذَنْ فَاتِّبَاعُ الجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمَا

ولقد تَذمَّر العلماءُ وأَبْدَوْا نُفُورَهم من المجتمعاتِ التي يعيشون فيها ولا يَجِدُونَ فيها المكانةَ اللائقةَ بهم؛ كما هو حالُ أبي هِلَالٍ العَسْكَريِّ العالمِ اللُّغَوِيِّ مثلًا؛ حيث قال[٢]:

إِذَا كَانَ مَالِي مَالَ مَنْ يَلْقُطُ الْعَجَمْ وَحَالِيَ فِيكُمْ حَالَ مَنْ حَاكَ أَوْ حَجَمْ
فَأَيْنَ انْتِفَاعِي بِالأَصَالَةِ وَالحِجَا؟! وَمَا رَبِحَتْ كفِّي عَلَى العِلْمِ وَالحِكَمْ؟!
وَمَنْ ذَا الَّذِي في النَّاسِ يُبْصِرُ حَالَتِي فَلَا يَلْعَنُ القِرْطَاسَ وَالحِبْرَ وَالقَلَمْ؟!

وقال أيضًا[٣]:

جُلُوسِيَ في سُوقٍ أَبِيعُ وَأَشْتَرِي دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الأَنَامَ قُرُودُ!
وَلَا خَيْرَ فِي قَوْمٍ تُذَلُّ كِرَامُهُمْ وَيَعْظُمُ فِيهِمْ نَذْلُهُمْ وَيَسُودُ
وَيَهْجُوهُمُ عَنِّي رَثَاثَةُ حَالَتِي هِجَاءً قَبِيحًا مَا عَلَيْهِ مَزِيدُ

وكذا القاضي عبدُ الوَهَّابِ المالكيُّ؛ حيثُ يقولُ[٤]:

مَتَى يَصِلُ العِطَاشُ إِلَى ارْتِوَاءٍ إِذَا اسْتَقَتِ البِحَارُ مِنَ الرَّكَايَا؟!
وَمَنْ يَثْنِي الأَصَاغِرَ عَنْ مُرَادٍ وَقَدْ جَلَسَ الأَكَابِرُ فِي الزَّوَايَا؟!

---

(١) «معجم الأدباء» للحموي (١٧٩٨/٤)، و«طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٤٦٠/٣).

(٢) «معجم الأدباء» للحموي (٩١٩/٢). (٣) المصدر نفسه.

(٤) «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٢٢١/٣)، و«الوافي بالوفيات» للصفدي (٢٠٨/١٩).

وَإِنَّ تَـرَفُّـعَ الـوُضَـعَـاءِ يَـوْمًـا عَلَى الرُّفَعَاءِ مِنْ إِحْدَى البَلَايَا
إِذَا اسْتَوَتِ الأَسَافِلُ وَالأَعَالِي فَـقَـدْ طَابَـتْ مُـنَادَمَـةُ الـمَـنَايَا!

وهذا أبو الحسنِ محمدُ بنُ محمدِ بنِ لَنْكَك البصريُّ، **قال عنه الثعالبيُّ**: «فَرْدُ البصرةِ، وصَدْرُ أدبائِها، وبَدْرُ ظُرَفَائِها في زمانِهِ، والمرجوعُ إليه في لطائفِ الأدبِ وظرائفِهِ طولَ أيامِه، وكانتْ حِرْفةُ الأدبِ تمسُّهُ وتَجْشُمُهْ، ومحنةُ الفضلِ تُدْرِكُهُ فتَخْدِشُه! ونفسُهُ تَرْفَعُه، ودهرُهُ يضعُهْ... وأكثرُ شعرِهِ مُلَحٌ وظُرَفٌ، خفيفةُ الأرواحِ، تأخُذُ من القلوبِ بمجامعِها، وتقعُ من النفوسِ أحسنَ مَوَاقِعِها، وجُلُّها في شكوى الزمانِ وأهلِه، وهجاءِ شُعَراءِ أهلِ عصرِه...»[١].

والسببُ في عَدَمِ تقديرِ العَالِمِ يَعُودُ ـ واللهُ أعلمُ ـ إلى أمورٍ عدةٍ؛ منها:

١ ـ **الحَسَدُ**، وهذه آفةُ الآفاتِ، وما سَلِمَ منها حتى العُلَماءُ على فَضْلِهم، وجَلَالةِ قَدْرِهم! بل وقَعَتْ بينهم قديمًا وحديثًا[٢]، وهؤلاءِ

---

(١) «يتيمة الدهر» (٢/٣٤٧ فما بعد).
ومن شعره في ذلك قوله:

زَمَانٌ رَأَيْنَا فِيهِ كُلَّ العَجَائِبِ وَأَصْبَحَتِ الأَذْنَابُ فَوْقَ الذَّوَائِبِ
لَوَ انَّ عَلَى الأَفْلَاكِ مَا في نُفُوسِنَا تَهَافَتَتِ الأَفْلَاكُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ!

وقوله أيضًا:

مَضَى الأَحْرَارُ وَانْقَرَضُوا وَبَادُوا وَخَلَّفَنِي الزَّمَانُ عَلَى عُلُوجِ
وَقَالُوا قَدْ لَزِمْتَ البَيْتَ جِدًّا فَقُلْتُ لِفَقْدِ فَائِدَةِ الخُرُوجِ
لِمَنْ أَلْقَى إِذَا أَبْصَرْتُ فِيهِمْ قُرُودًا رَاكِبِينَ عَلَى السُّرُوجِ!
زَمَانٌ عَزَّ فِيهِ الجُودُ حَتَّى تَعَالَى الجُودُ في أَعْلَى البُرُوجِ!!

وله أشعارٌ أخرى كثيرةٌ في ذمِّ الزمان، أفحَشَ فيها القولَ.

(٢) **انظر نماذج من ذلك في**: كتاب «التحاسد بين العلماء».
ومن لطيف ما يُذْكَرُ هنا: قصةُ أبي العلاء صاعد بن الحسين بن عيسى البغدادي اللغوي، =

الحُسَّادُ عطَّلوا مصلحةً عامَّةً للأمةِ تُستفادُ مِنْ هذا العالِم، لقاءَ منفعةٍ خاصَّةٍ بهم ـ إن سمَّينا ذلك منفعةً تجوُّزًا ـ والناسُ كثيرًا ما يُؤْلِمُهُمْ مرأى النُّبُوغِ؛ **كما قال الشاعرُ**[1]:

فَجُّ التَّفَوُّقِ مَا فِي بَابِهِ حَرَسٌ ... لَـكِـنَّـهُ دَرْبُ أَرْزَاءٍ وَأَخْـطَـارِ

= التي حصَلَتْ له بين يدي المنصور بن أبي عامر أمير الأندلس، فقد أُحْضِرَتْ إلى الأمير وردةٌ في غير وقتها لم يستتمَّ فتحُ ورقها، **فقال فيها صاعدٌ مرتجلًا**:

أَتَـتْـكَ أَبَـا عَـامِـرٍ وَرْدَةٌ ... يُـذَكِّـرُكَ الـمِـسْـكُ أَنْـفَـاسَـهَـا
كَـعَـذْرَاءَ أَبْـصَـرَهَـا مُـبْـصِـرٌ ... فَـغَـطَّـتْ بِـأَكْـمَـامِـهَـا رَاسَـهَـا!!

فسُرَّ بذلك المنصور، وكان ابنُ العريف حاضرًا فحسَدَهُ وجرى إلى مناقضته، وقال لابن أبي عامر: هذان البيتان لغيره، وقد أنشدنيهما بعضُ البغداديِّين بمصر لنفسه، وهما عندي على ظهر كتاب بخطِّه! فقال له المنصور: أرنيه.

فخرَجَ ابن العريف وركِبَ وحرَّك دابته حتى أتى مجلس ابن بَدْر ـ وكان أحسَنَ أهل زمانه بديهةً ـ فوصَفَ له ما جرى، **فقال هذه الأبيات ودَسَّ فيها بَيْتَيْ صاعد**:

عَـشَـوْتُ إِلَـى قَـصْـرِ عَـبَّـاسَـةٍ ... وَقَـدْ جَـدَّلَ الـنَّـوْمُ حُـرَّاسَـهَـا
فَـأَلْـفَـيْـتُـهَـا وَهْـيَ فـي خِـدْرِهَـا ... وَقَـدْ صَـرَّعَ الـسُّـكْـرُ أُنَـاسَـهَـا
فَـقَـالَـتْ أَسَـارٍ عَـلَـى هَـجْـعَـةٍ؟ ... فَـقُـلْـتُ بَـلَـى فَـرَمَـتْ كَـاسَـهَـا
وَمَـدَّتْ يَـدَيْـهَـا إِلَـى وَرْدَةٍ ... يُـحَـاكِـي لَـكَ الطِّـيـبُ أَنْـفَـاسَـهَـا
كَـعَـذْرَاءَ أَبْـصَـرَهَـا مُـبْـصِـرٌ ... فَـغَـطَّـتْ بِـأَكْـمَـامِـهَـا رَاسَـهَـا
وَقَـالَـتْ خَـفِ الـلَّـهَ لَا تَـفْـضَـحَـنْـ ... ـنَ فِـي ابْـنَـةِ عَـمِّـكَ عَـبَّـاسَـهَـا
فَـوَلَّـيْـتُ عَـنْـهَـا عَـلَـى غَـفْـلَـةٍ ... وَمَـا خُـنْـتُ نَـاسِـي وَلَا نَـاسَـهَـا!

فطار ابن العريف بها، وعلَّقها على ظهر كتابٍ بخطٍّ مصريٍّ ومداد أشقر! ودخَلَ بها على المنصور، فلما رآها، اشتدَّ غيظه على صاعد، فخَجِلَ صاعد، وحلَفَ فلم يقبل منه، وافترَقَ المجلسُ على أنه سرقها!!

انظر ما نظرتَ والتتمّةَ في: «جذوة المقتبس» للحميدي (ص١٩٥)، و«بغية الملتمس» للضبي (ص٢٦٨)، و«معجم الأدباء» للحموي (٣/ ١١٦٥)، و«الوافي بالوفيات» للصفدي (١٦/ ١٣٣)، و«البلغة» للفيروزآبادي (ص١٢٤)، و«بدائع البدائه» لابن ظافر (ص١٦٣)، و«معاهد التنصيص» للعباسي (١/ ٦٧)، و«نفح الطيب» للمَقَّري (٣/ ٧٩).

(١) «رباعيات مختارة» لإلياس قنصل (ص٣٩).

وَالنَّاسُ يُؤْلِمُهُمْ مَرْأَى النُّبُوغِ وَإِنْ تَقَدَّمُوا نَحْوَهُ بِالمَدْحِ وَالغَارِ
كَمْ مِنْ أَدِيبٍ قَضَى وَالجُوعُ يَأْكُلُهُ وَمُجْرِمٍ حَوْلَهُ نَهْرُ الغِنَى جَارِي!
الْعَبْقَرِيَّةُ حِرْمَانٌ وَتَضْحِيَةٌ وَلَيْسَ يَخْلُدُ إِلَّا كُلُّ جَبَّارِ!

٢ ـ عدمُ فَهْمِ الناسِ لتلكَ الابتكاراتِ الجديدةِ وقيمتِها العِلْميَّةِ، إمَّا لِدِقَّتِها على أفهامِهم ـ كما مرَّ معنا في قصةِ الخليلِ ـ وإمَّا لأنَّ المُبْدِعَ يسيرُ في وادٍ، والمجتمعُ يسيرُ في وادٍ آخَرَ، **حتى قال بعضُهم**: «كلَّما رَقَى مَنْ له هِمَّةٌ عاليةٌ إلى مركزٍ عالٍ. . . قَلَّتْ أشكالُهُ المعنويةُ، انظُرْ إلى أصحابِ العقولْ، الموجبةِ لكثرةِ المعقولْ، لمَّا تحقَّقوا دقَّقوا، فعَزَّتْ مَدَارِكُ حقائقِهم على العوامّْ، وجَلَّتْ نفائسُ دَقَائِقِهم على غالبِ الأفهامْ؛ فلذلك أوجَبَ لهم قِلَّةَ الأصحابِ والأتباعْ؛ لغلَبَةِ الجهلِ على الطِّبَاعْ، ولله دَرُّ بعضِ الحُكَماءِ **حيثُ قال**:

لِكُلِّ امْرِئٍ شَكْلٌ مِنَ النَّاسِ مِثْلُهُ فَأَكْثَرُهُمْ شَكْلًا أَقَلُّهُمُ عَقْلَا
وَكُلُّ أُنَاسٍ آلِفُونَ لِشَكْلِهِمْ فَأَكْثَرُهُمْ عَقْلًا أَقَلُّهُمْ شَكْلَا[١]

وعدمُ تقديرِ المُبْدِعِ يُؤدِّي إلى الإضرارِ بالمُبْدِعِ نفسِهِ، كما يؤدِّي إلى الإضرارِ بعمليةِ الإبداعِ أيضًا، ثُمَّ يعودُ الضررُ على الأمةِ كلِّها؛ فإمَّا أنْ يُؤدِّيَ به ذلك إلى الضَّنِّ بِعِلْمِهِ وكَتْمِهِ، فيَضُرَّ نفسَهُ وغَيْرَهُ، كما صرَّح أبو عليٍّ القالي ـ الذي رحَلَ من المشرقِ إلى الأندلسِ ـ في مقدمةِ كتابِهِ «المقصور والممدود»؛ بأنه ضَنَّ بعلمِهِ في المشرقِ؛ لأنه لم يَجِدْ أحدًا مِنْ وَلَدِ العباسِ للعِلْمِ طالبًا، ولا في الأدبِ راغبًا، وأخَذَ يَمْتدِحُ الحكَمَ الأَنْدَلُسِيَّ الذي هيَّأَ له التَّكْرِمةَ وشجَّعه على العلمِ»[٢].

---

(١) «فيض القدير» للمناوي (٤/ ٢٦٩).

(٢) **انظر خبر ذلك في**: «تاريخ علماء الأندلس» لابن الفرضي (١/ ١٣٨)، و«جذوة =

بل إنَّ مِنَ العلماءِ مَنْ سمَّى كتابَهُ: «المَضْنُونَ به على غيرِ أهلِهِ»![1].

= المقتبس» للحميدي (١/ ٢٥٢)، و«بغية الملتمس» للضبي (١/ ٢٨٢).

(١) **المَضْنُونُ**، اسم مفعول، مأخوذٌ من قولهم: ضَنِنْتُ بالشيء أَضَنُّ، وضَنَنْتُ أَضِنُّ، ضِنًّا وضِنَّةً ومَضِنَّةً وَضَنَانَةً، أي: بَخِلْتُ، وعِلْقُ مَضِنَّةٍ ومَضَنَّةٍ: نَفِيسٌ مَضْنونٌ به يُتنافَس فِيهِ، **والضِّنُّ**: الشيءُ النفيسُ المضنونُ به.

انظر: «المحكم والمحيط الأعظم» لابن سيده (٨/ ١٥٦)، و«لسان العرب» لابن منظور (١٣/ ٢٦١)، و«تاج العروس» للزبيدي (٣٥/ ٣٤١).

ومن تلك الكتب التي ضَنَّ بها أصحابُها على غير أهلها:

١ - «المضنون به على غير أهله» لأبي حامد الغزالي، تقديم رياض العبد الله، مطابع الحكمة، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤١٧هـ).

وقد اضطرب فيه مؤلِّفه كثيرًا، ونحا فيه منحى الفلاسفة؛ لذا فقد رَدَّ عليه القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن مَنْظُور الْقَيْسِيُّ الأندلسي في «السحب الواكفه، والظلال الوارفه، في الرد على ما تضمَّنه (المضنون به على غير أهله) من اعتقاد الفلاسفه».

انظر: «الإحاطة، في أخبار غرناطة» للسان الدين ابن الخطيب (٢/ ١٠٢)، و«الدرر الكامنة» لابن حجر (٥/ ٢٨٨)، و«إيضاح المكنون» (٤/ ٥)، و«هدية العارفين» للبغدادي (٢/ ١٥٦)، و«معجم المؤلفين» لكحالة (١٠/ ٢٥٠).

لكن هناك مَنْ شَكَّكَ في نسبته إليه:

قال ابن الصلاح: «كتاب «المضنون...» المنسوب إليه، مَعَاذَ الله أن يكون له، وقد شاهدتُّ على ظهر كتاب نسخة منه بخط الصدر المكين القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري أنه موضوعٌ على الغزالي، ومخترع من كتاب «مقاصد الفلاسفة»، الذي نقضه بكتاب «تهافت الفلاسفة»! وأنه نفذ في طلب هذا الكتاب إلى البلاد البعيدة، فلم يقف له على خبر». «طبقات الفقهاء الشافعية» لابن الصلاح (١/٢٦٣).

ومما يؤيِّد قول ابن الصلاح: أنَّ الكتاب قد اشتَمَلَ على: التصريح بقدم العالم، ونفي علم الله بالجزئيات، ونفي الصفات!! وكلُّ واحدة من هذه يُكفِّرُ الغزاليُّ قائلَها هو وأهل السُّنَّة أجمعون، فكيف يُتصوَّرُ أنه يقولها؟! **وانظر**: «تاريخ الإسلام» للذهبي (٣٥/ ١٢٤)، و«طبقات الشافعيين» لابن كثير (ص٥٣٦)، و«كشف الظنون» لحاجي خليفة (٢/ ١٧١٣)، و«عيون الرسائل، والأجوبة على المسائل» لعبد اللطيف آل الشيخ (١/ ٤٠٣)، و«الدرر السنية، في الأجوبة النجدية» (٣/ ٣٢٥).

وقال ابن العماد: «ينسب إليه تصنيفان ليسا له، بل وُضِعَا عليه؛ وهما: السِّرُّ المكتوم، والمضنون به على غير أهله». «شذرات الذهب» (٦/ ١٩). =

وإمَّا أنْ يُؤدِّيَ به ذلك إلى إتْلافِ كُتُبِهِ ومؤلَّفاتِهِ حتى لا ينتفعَ بها أهلُ عَصْرِهِ! كما حصَلَ لجماعةٍ من العلماءِ؛ حيثُ أَحْرَقوا كُتُبَهُمْ أو غَسَلُوها أو دفنوها لهذا السبب[(١)].

وإمَّا أنْ يُؤدِّيَ به ذلك إلى الهِجْرةِ مِنْ ذلك البلدِ؛ كما حصَلَ لجماعةٍ من العلماءِ، منهم: **عبدُ الوَهَّابِ بنُ عليٍّ المالكيُّ، والنَّضْرُ بنُ شُمَيْلٍ، وغيرُهما:**

أمَّا الأولُ: فكان يعيشُ في بغدادَ، فما وجَدَ مِنْ أَهْلِها إكرامًا ولا احتفاءً، **فقال يصفُ حالَهُ بها:**

بَغْدَادُ دَارٌ لِأَهْلِ المَالِ طَيِّبَةٌ ... وَلِلْمَفَالِيسِ دَارُ الضَّنْكِ وَالضِّيقِ
ظَلِلْتُ حَيْرَانَ أَمْشِي فِي أَزِقَّتِهَا ... كَأَنَّنِي مُصْحَفٌ فِي بَيْتِ زِنْدِيقِ!

وقال أيضًا يُبيِّنُ سببَ خروجِهِ منها:

سَلَامٌ عَلَى بَغْدَادَ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ ... وَحَقَّ لَهَا مِنِّي السَّلَامُ المُضَاعَفُ
لَعَمْرُكَ مَا فَارَقْتُهَا عَنْ مَلَالَةٍ ... وَإِنِّي بِشَطَّيْ جَانِبَيْهَا لَعَارِفُ
وَلَكِنَّهَا ضَاقَتْ عَلَيَّ بِرَحْبِهَا ... وَلَمْ تَكُنِ الأَرْزَاقُ فِيهَا تُسَاعِفُ

= ٢ ـ «المضنون به على غير أهله» لعز الدين الزنجاني، وهو مختارات شعرية.

وقد شرحه عُبَيْد الله بن عبد الكافي بن عبد المجيد العُبَيْدي في: «شرح المضنون به على غير أهله»، فرغ من تأليفه سنة (٧٢٤هـ)، طبع في مكتبة دار البيان بغداد، دار صعب، بيروت. **انظر**: «الأعلام» للزركلي (٤/ ١٧٩) و(٤/ ١٩٤)، و«صفحات من صبر العلماء» لأبي غدة (ص١١٧).

٣ ـ «المضنون به على العَامَّة» في علم الكلام، للقاضي أبي بكر محمد بن عبد الله بن مَنْظُور القَيْسِيّ الأندلسي. **انظر**: «هدية العارفين» (٢/ ١٥٧).

(١) كنتُ نشَرْتُ مقالاتٍ عدَّة عن هذه الظاهرة الغريبة، وذكَرْتُ طائفةً من العلماء الذين فعلوا ذلك في ملحق «ألوان من التراث» الذي كانت تصدره صحيفة المدينة السعودية، العدد (٩٣٥٤) في ١٤١٣/٦/٣٠هـ فما بعد، ولعلِّي أُخرِجُها ـ إن شاء الله تعالى ـ في كتابٍ مستقلٍّ.

فَكَانَتْ كَخِلٍّ كُنْتُ أَهْوَى دُنُوَّهُ   وَأَخْلَاقُهُ تَنْأَى بِهِ وَتُجَانِفُ!

ثم إنَّ عبدَ الوَهَّابِ هذا، لمَّا خرَجَ من بغدادَ ووصَلَ إلى ظاهرِها، تَبِعَهُ الفُقَهاءُ والأشرافُ مِنْ أهلِها، وقالوا له: واللهِ يَعِزُّ علينا فِرَاقُكَ! فقال لهم: لو وَجَدتُّ بين ظَهْرَانَيْكُمْ رغيفَيْنِ كلَّ غداةٍ وعشيةٍ، ما عَدَلْتُ عن بَلَدِكم، فما وجَدَ أحدًا يَتكفَّلُ له بذلك!! وفي روايةٍ أنه قال: واللهِ لو وَجَدتُّ في بَلَدِكم كِيلَجَتَيْنِ من ذُرَةٍ، ما خرَجْتُ منها، ولقد تَرَكَ أبي جُمْلَةَ دنانيرَ ودارًا، أنفقتُها كلَّها على صعاليكِ مَنْ كان ينهضُ بالطلبِ عندي؛ فنكَّس كلُّ واحدٍ منهم رأسَهُ، ثم أمرَهُمْ بالانصرافِ، فانصرفوا، وأنشدَ:

لَا تَطْلُبَنَّ إِلَى المَجْبُوبِ أَوْلَادَا   وَلَا السَّرَابِ لِتَسْقِيْ مِنْهُ وُرَّادَا
وَمَنْ يَرُومُ مِنَ الأَنْذَالِ مَكْرُمَةً   كَمَنْ يُوَتِّدُ فِي الأَتْبَانِ أَوْتَادَا!

فذهَبَ إلى مِصْرَ فأَكْرَمَهُ أهلُها غايةَ الإكرامِ، وحصَلَ له شيءٌ من المالِ، وحَسُنَ حالُهُ، ويُقالُ: إنه بعدَ وصولِهِ إليها بيسيرٍ مات مِنْ أُكْلَةٍ اشتهاها، فقال وهو يَتقلَّبُ على فِرَاشِ الموتِ: لا إلٰه إلا الله، لمَّا عِشْنا مِتْنا!![1].

---

(١) انظر خبره في: «وفيات الأعيان» لابن خَلِّكان (٣/ ٢٢٠)، و«ترتيب المدارك» للقاضي عياض (٧/ ٢٢٣)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١٥/ ٦٤٠)، و«الذخيرة، في محاسن أهل الجزيرة» للشنتريني (٨/ ٥٢٥)، و«الديباج المذهب» لابن فرحون (ص١٦٠)، و«مقدمة تحقيق كتاب التلقين في الفقه المالكي» (ص١٤ ـ ٢٥).
لطيفةٌ: اجتاز القاضي عبد الوَهَّاب في طريقه بِمَعَرَّة النُّعْمان، فأضافه شاعرُها الشهيرُ أبو العلاء المعري، فأسمعه القاضي أشياءَ من أشعاره، فأُعْجِبَ بها أبو العلاء كثيرًا، وفي ذلك يقول يمدحه:

وَالمَالِكِيُّ ابْنُ نَصْرٍ زَارَ في سَفَرٍ   بِلَادَنَا فَحَمِدْنَا النَّأْيَ وَالسَّفَرَا
إِذَا تَفَقَّهَ أَحْيَا مَالِكًا جَدَلًا   وَيَنْشُرُ المَلِكَ الضِّلِّيلَ إِنْ شَعَرَا!

قلتُ: هو أهلٌ لهذا المدح؛ فإنَّ له أشعارًا كثيرةً لطيفةً سوى ما تقدّم، منها أبياته الذائعة ـ وقد ضمّنها بعض المصطلحات الفقهية، **وأحسَنَ إعمالها** ـ: =

وأمَّا النَّضْرُ بنُ شُمَيْلٍ: فإنَّه لمَّا ضاقتْ عليه المعيشةُ بالبَصْرةِ، خرَجَ منها إلى خُرَاسَانَ، فشيَّعه مِنْ أَهْلِها نحوُ ثلاثةِ آلافِ رجلٍ ما فيهم إلَّا مُحدِّثٌ أو نحويٌّ، أو لُغويٌّ أو عَرُوضيٌّ أو أخباريٌّ، فلمَّا صار بالمِرْبَدِ، جلس فقال: يا أهلَ البَصْرةِ! يَعِزُّ عليَّ فِرَاقُكم، وواللهِ لو وَجَدتُّ كلَّ يومٍ كِيلَجَةَ بَاقِلَّاءَ ما فَارَقْتُكُم، قال: فلم يكنْ أحدٌ فيهم يَتكلَّفُ له ذلك!!

ثم إنَّه خرَجَ إلى مَرْوٍ من خُرَاسانَ، فأَثْرَى وصار ذا مالٍ طائلٍ، وصَحِبَ الخليفةَ المأمونَ، وحَظِيَ عندَهُ(١).

= وَنَائِمَةٍ قَبَّلْتُهَا فَتَنَبَّهَتْ ... فَقَالَتْ تَعَالَوْا وَاطْلُبُوا اللِّصَّ بِالحَدِّ
فَقُلْتُ لَهَا إِنِّي فَدَيْتُكِ غَاصِبٌ ... وَمَا حَكَمُوا فِي غَاصِبٍ بِسِوَى الرَّدِّ!
خُذِيهَا وَكُفِّي عَنْ أَثِيمٍ ظِلَابَةٍ ... وَإِنْ أَنْتِ لَمْ تَرْضَيْ فَأَلْفًا عَلَى الْعَدِّ!
فَقَالَتْ قِصَاصٌ يَشْهَدُ الْعَقْلُ أَنَّهُ ... عَلَى كَبِدِ الْجَانِي أَلَذُّ مِنَ الشَّهْدِ!
فَبَاتَتْ يَمِينِي وَهْيَ هِمْيَانُ خَصْرِهَا ... وَبَاتَتْ يَسَارِي وَهْيَ وَاسِطَةُ الْعِقْدِ
فَقَالَتْ أَلَمْ أُخْبَرْ بِأَنَّكَ زَاهِدٌ ... فَقُلْتُ بَلَى مَا زِلْتُ أَزْهَدُ فِي الزُّهْدِ!!

انظر: «الوافي بالوفيات» للصفدي (١٩/ ٢٠٧)، وبعض المصادر السابقة.

(١) من ذلك أنه كان يومًا عند المأمون، **فقال المأمون**: «حدَّثنا هُشَيْم، عن مجالد، عن الشَّعْبي، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: (**إذا تَزَوَّجَ الرجلُ المرأةَ لِدِينِهَا وجَمَالِهَا، كان فيه سَدَادٌ مِنْ عَوَزٍ**)، وفتَحَ سين «سَدَاد»، فأعاد النضرُ الحديثَ، وكسَرَ السين، فاستوى المأمون جالسًا، وقال: تلحِّنني يا نَضر؟! فقال: إنما لحَنَ هُشَيْمٌ ـ وكان لَحَّانًا ـ فتبع أمير المؤمنين لفظَهُ، قال: فما الفرق بينهما؟ قال: **السَّدَادُ ـ بالفتح ـ**: القَصْدُ في الدِّينِ والسبيل، **والسِّدَادُ ـ بالكسر ـ**: البُلْغة، وكلُّ ما سدَدَتَّ به شيئًا فهو «سِدَاد» بكسر السين، فقال المأمون: أوَتَعْرِفُ العربُ ذلك؟ قلت: نَعَمْ، هذا العَرْجِيُّ **يقول**:

أَضَاعُونِي، وَأَيَّ فَتًى أَضَاعُوا؟! ... لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسِدَادِ ثَغْرِ!

فاستوى المأمون جالسًا، وقال: قبَّح اللهُ مَنْ لا أَدَبَ له! ثم أمَرَ له بخمسين ألف درهم!!».

انظر: «تاريخ ابن الوردي» (١/ ٢٠٦)، و«معجم الأدباء» للحموي (٦/ ٢٧٥٨)، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان (٥/ ٣٩٧)، و«المختصر، في أخبار البشر» لأبي الفداء (٢/ ٢٧)، و«سمط النجوم العوالي» للعصامي (٣/ ٤٤٥)، و«مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» للقرشي (٧/ ١٣). =

ولقد أحسن من قال[١]:

أَسِفْتَ لِصَمْتِهِ وَلَهُ يَرَاعٌ ... جَمِيلُ بَيَانِهِ سَحَرَ الجُمُوعَا
وَلَوْ أَبْصَرْتَ شِدَّةَ مَا يُعَانِي ... مِنَ الأَيَّامِ أَرْخَصْتَ الدُّمُوعَا
إِذَا سَلِمَ النُّبُوغُ مِنَ الرَّزَايَا ... فَكَيْفَ يُطَبِّبُ الفَقْرُ الوَجِيعَا؟!
وَأَغْرَبُ مَشْهَدٍ نُصْبٌ ثَمِينٌ ... أُقِيمَ لِعَبْقَرِيٍّ مَاتَ جُوعَا!

وإمَّا أنْ يُؤدِّيَ به ذلك إلى الموتِ كَمَدًا وحُزْنًا، وهذا غالبًا يكونُ لِمَنْ سَمَتْ نفسُهُ وكان فيه نَوْعُ رِقَّةٍ، وقد تَقدَّمَ شيءٌ من ذلك[٢].

ثانيًا: عدمُ الثِّقةِ بالنَّفسِ:

هذا مَسْلكٌ في العلمِ مَنْكُورٌ؛ فإنَّ الذي لا يَثِقُ بعلمِهِ وعقلِهِ ومواهبِهِ، لا يُمْكِنُ أنْ يَلِجَ طريقَ الإبداعِ والابتكارِ؛ لأنَّه طريقٌ يحتاجُ إلى شجاعةٍ وإقدام؛ كحاجتِهِ إلى البحثِ والتأمُّلِ والنَّظَرِ، **ولعلَّ الذي أَوْدَى بهذه الثِّقَةِ وأَخْمَدَ جَذْوَتها أمران:**

١ ـ **مقولةٌ نَشَأَتْ قديمًا**، ولَاكَتْها الأَلْسُنُ، وانتَشَرَتْ كالوَبَاءِ بين مَنْ لَا تَرْكَنُ النفسُ لقوةِ شكيمتِهِ، وصلابةِ عزيمتِهِ، تُنْسَبُ هذه الكلمةُ لابنِ المُقفَّعِ (ت١٤٤هـ)[٣]، **وهي**: (مَا تَرَكَ الأَوَّلُ للآخِرِ شَيئًا)!! وقد

= **واقرأ ـ إنْ شئتَ ـ كتابًا ماتعًا في هذا، هو**: «الفِلاكة والمفلوكون» لأحمد بن علي الدَّلَجي، فقد ذكَرَ فيه أعاجيبَ من هذا القبيل.

(١) «رباعيات مختارة» لإلياس قنصل (ص٢٩).

(٢) **انظر**: الفصل الخامس (ب/ ٢).

(٣) قالها في كتابه «كليلة ودمنة» (ص١٥٧).

وقال في كتابه «الأدب الكبير» (ص٦٤) ـ بعد أن امتدح المتقدِّمين، وأثنى عليهم ـ: «فمنتهى عِلْمِ عالمنا في هذا الزمان: أن يأخُذَ مِنْ عِلْمهم، وغايةُ إحسانِ محسننا أن يقتدي بسيرتهم. . . .». =

يُعبَّرُ عنها بقولِ الشاعرِ[(١)]:

لَـمْ يَـدَعْ مَـنْ مَـضَـى لِـلَّـذِي قَـدْ غَـبَـرْ
فَـضْـلَ عِـلْـمٍ سِـوَى أَخْـذِهِ بِـالأَثَـرْ!

ولكنْ هل وَجَدَتْ هذه الكلمةُ صَدًى عندَ المُبْدِعِين؟ كَلَّا، بل لقد تَوَارَدَ العلماءُ على إبطالِها جِيلًا بعدَ جِيلٍ، ورَعِيلًا بعدَ رعيلٍ، حتى أوردوها الحُفْرَةَ، وسَنُّوا عليها التُّرابَ سَنًّا!

فهذا الجاحظُ يقولُ: «وقد قالوا: ليس مما يَسْتعمِلُ الناسُ كلمةً أضرَّ بالعلمِ والعلماءِ، ولا أَضَرَّ بالخاصَّةِ والعامَّةِ، مِنْ قولِهم: «ما ترَكَ الأوَّلُ للآخِرِ شيئًا»، ولو استعمَلَ الناسُ معنى هذا الكلامِ، فتَرَكُوا جميعَ التكلُّفِ، ولم يَتَعَاطَوْا إلا مقدارَ ما كان في أيديهم، لَفَقَدُوا عِلْمًا جَمًّا، ومَرَافِقَ لا تحصى، ولكنْ أبى اللهُ إلا أنْ يَقْسِمَ نِعَمَهُ بين طبقاتِ جميعِ عبادِهِ قِسْمةَ عَدْلٍ، يعطي كلَّ قرنٍ وكلَّ أمةٍ حِصَّتَها ونَصِيبَها، على تمامِ مَرَاشِدِ الدين، وكمالِ مصالحِ الدنيا»[(٢)].

= **وانظر**: «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (١/ ٣٢١)؛ فقد مال إلى هذا بعض الميل!
ومثله ابن العربي، **فقد قال**: «فأمَّا إبداع المعان، فهو أمرٌ مُعْوِزٌ في هذا الزمان؛ فإن العلماء قد استَوْفُوا الكَلِم، ونصبوا على كل مُشْكِلِ العَلَم، ولم يبق إلا خفايا، في زوايا، لا يتولَّجها إلا مَنْ تَبَصَّرَ معاطفَهَا، واستظهَرَ لواطفَهَا». «عارضة الأحوذي» (١/ ٤).

(١) جاء في كتاب «الفكر السامي، في تاريخ الفقه الإسلامي» للحجوي (٢/ ٥١٦): «وأما مقولة: «لَمْ يَدَعْ مَنْ مَضَى لِلَّذِي قَدْ غَبَرْ، فَضْلَ عِلْمٍ سِوَى أَخْذِهِ بِالأَثَرْ!»، فإنَّها خيالُ شاعرٍ ليستْ حجةً عقليةً ولا شرعية، أوجَبَهَا تأَخُّرُ الأفكار الإسلامية، وركونُهَا للجمود، وقد قال فيه اليُوسِيُّ في (القانون): إنه لا أَضَرَّ بالعلماء والمتعلِّمين منه، وتحجير لفضل الله الذي لم يوقِّت بزمان ولا مكان، ويقابلها قولُ الشاعر، الذي صدَّقه الأوائل والأواخر: كم تَرَكَ الأوَّل للآخِرِ». اهـ بتصرف يسير.

(٢) «رسائل الجاحظ» (٤/ ١٠٣).

وقال أيضًا: «إذا سمعتَ الرجلَ يقولُ: ما ترك الأولُ للآخِرِ شيئًا، فاعلَمْ أنه ما يُرِيدُ أن يُفْلِحَ!»[(١)].

وقال ابنُ عبدِ البَرِّ: «قالوا: لا كلمةَ أضرَّ بالعلمِ وبالعلماءِ والمتعلِّمين من قولِ القائلِ: «ما ترَكَ الأولُ للآخِرِ شيئًا»»[(٢)].

ثُمَّ توالى العُلَماءُ بعدَ ذلك على نَقْضِ هذه المَقُولةِ المدخولةِ ودَحْضِها؛ كأحمدَ بنِ فارسٍ الرازيِّ في رسالتِهِ التي كتبها لأبي عَمْرٍو محمَّدِ بنِ سعيدٍ الكاتِبِ[(٣)]، والمسعوديِّ في كتابِهِ «التنبيهِ والإشرافِ»[(٤)]،

---

(١) «معجم الأدباء» للحموي (٥/ ٢١٠٣).

(٢) «جامع بيان العلم» لابن عبد البر (١/ ٤١٦).

(٣) **انظر**: «الصاحبي» (ص٢١٧)، و«يتيمة الدهر» للثعالبي (٣/ ٤٦٣).

(٤) (١/ ٦٦) **حيث يقول فيه**: «ونحن وإن كان عصرنا متأخرًا عن عصر مَنْ كان قبلنا من المؤلفين، وأيامنا بعيدة عن أيامهم، فنرجو ألا نقصِّر عنهم في تصنيفٍ نقصده، وغرض نؤمُّه، وإن كان لهم سبق الابتداء فلنا فضيلة الاقتداء، وقد تشترك الخواطر، وتتفق الضمائر، وربما كان الآخر أحسن تأليفًا، وأتقن تصنيفًا؛ لِحُنْكة التجارب، وخشية التتبع، والاحتراس من مواقع الخطأ، ومن ههنا صارت العلوم ناميةً غير متناهية؛ لوجود الآخر ما لا يجده الأول، وذلك إلى غير غاية محصورة، ولا نهاية محدودة، وقد أخبر الله ﷻ بذلك فقال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، على أن من شيم كثير من الناس الإطراءَ للمتقدِّمين، وتعظيمَ كتب السالفين، ومَدْحَ الماضي، وذَمَّ الباقي، وإن كان في كتب المُحْدَثين ما هو أعظم فائدة، وأكثر عائدة، وقد ذكر أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أنه كان يؤلِّف الكتاب الكثير المعاني الحسن النظم، فينسبه إلى نفسه فلا يرى الأسماع تصغى إليه، ولا الإراداتِ تيمِّم نحوه، ثم يؤلِّف ما هو أنقص منه مرتبة، وأقل فائدة، ثم ينحله عبد الله بن المقفَّع، أو سهل بن هارون، أو غيرهما من المتقدِّمين، ومن قد طارت أسماؤهم في المصنِّفين، فيقبلون على كَتْبها، ويسارعون إلى نسخها، لا لشيءٍ إلا لنسبتها إلى المتقدِّمين، ولِمَا يُدَاخِلُ أهلَ هذا العصر من حسدِ مَنْ هو في عصرهم، ومنافستِهِ على المناقب التي يخصُّ بها، ويعنى بتشييدها.
وهذه طائفة لا يعبأ بها كبار الناس، وإنما العمل على ذوي النظر والتأملِ الذين أعطوا كل شيء حقه من العدل، ووَفَّوهُ قسطه من الحق، فلم يرفعوا المتقدِّم إذْ كان ناقصًا، ولم ينقصوا المتأخر إذْ كان زائدًا؛ فلمثل هؤلاء تصنَّف الكتب وتدوَّن العلوم».

وابنِ جِنِّيْ في «الخصائصِ»[١]، وابنِ عبدِ رَبِّهِ في «العِقْدِ الفريدِ»[٢]، والجُرْجانيِّ في «دلائلِ الإعجازِ»[٣]، وابنِ رَشِيقٍ في «العُمْدةِ»[٤]، وابنِ مَضَاءٍ في «الردِّ على النحاةِ»[٥]، وياقوتِ الحَمَويِّ في «معجمِ البُلْدانِ»[٦]، وابنِ الأَثِيرِ في «المَثَلِ السائرِ»[٧]، والقَزْوِينيِّ في «الإيضاحِ»[٨]، وابنِ تَغْرِي بَرْدِي في «النجومِ الزاهرةِ»[٩]، وشمسِ الدينِ الرَّمْليِّ في «نهايةِ المحتاجِ»[١٠]، والشِّهَابِ الخَفَاجيِّ في «رَيْحانةِ الأَلِبَّا»[١١]، وحاجي خليفة في «كشفِ الظنونِ»[١٢]، وصِدِّيق حَسَن خان في «أَبْجَدِ العلومِ»[١٣]، وعبدِ الحَيِّ الكِتَّانيِّ في مقدِّمةِ كتابِهِ «التراتيبِ الإداريةِ»[١٤]، وأحمدَ أمين في مقالتِهِ الفائقةِ «أمس وغدًا»[١٥]، وغيرِهم.

---

(١) (١/١٩١).
(٢) (٦/١٨٦).
(٣) (١/٢٩٢).
(٤) (١/٩١).
(٥) (ص٧٥).
(٦) (١/١٠ ـ ١١).
(٧) (٢/٤٧).
(٨) (١/٦٣).
(٩) (٢/٢٦٤).
(١٠) (١/١٥).
(١١) (ص٦).
(١٢) (١/٣٩). **وانظر:** «قواعد التحديث» للقاسمي (ص٣٨).
(١٣) (ص١١٠).
(١٤) (١/٧٨). **ويقول شيخنا العلّامة حماد الأنصاري رحمه الله تعالى:** «إنَّ قول بعضهم: إن الأول ما ترَكَ للآخِرِ شيئًا، هذا قولُ مَنْ لا عقل له، والصحيح: كم ترك الأول للآخر». «المجموع في ترجمة العلَّامة المحدِّث الشيخ حماد بن محمد الأنصاري» لعبد الأول الأنصاري (٢/٥٤٣).
(١٥) «فيض الخاطر» (١/٢٠٧). **ومما قاله فيها:** «شرُّ ما ألاحظ في الشرق حنينُهُ الشديد إلى الماضي، لا أملُهُ القويُّ في المستقبل، واعتقاده أن خير أيامه ما سلَفَتْ لا ما أقدَمَتْ، وإعجابُهُ الشديد بأعمال الماضين، وإهمالُ المعاصرين؛ له منظاران: منظار مكبّر يلبسه إذا نظر إلى الماضي، ومنظار مصغِّر أسود يضعه إذا نظر إلى الحاضر والمستقبل، يَلَذُّهُ أن يطيل البكاء على الميت، ولا يَلَذُّهُ أن يتدبَّر فيما يجب أن يفعله الأحياء؛ يستسهل النفقات مهما عظمت على الميت، ويستكثر نفقات الطبيب وأثمان الدواء للمريض، يعجبهم أن يتمثَّلوا الأمثال تدل على عظم الماضي، ولا يعجبهم أن =

إذن: فليس المِقْياسُ مِقْياسَ القِدَمِ والمُعاصرةِ؛ فيُرْفَعُ القديمُ لِقِدَمِهِ، ويُخْفَضُ المعاصرُ لِجِدَّتِهِ، كَلَّا! وإنَّما المقياسُ هو الجودةُ والإتقانُ وحُسْنُ الأثرِ؛ والحِكْمةُ ضالَّةُ المؤمنِ.

وعليه: فصوابُ هذه العبارةِ أن يقالَ: «كَمْ تَرَكَ الأَوَّلُ للآخِرِ»![1]؛ **كما قال أبو تمَّامٍ**[2]:

لَا زِلْتَ مِنْ شُكْرِيَ في حُلَّةٍ   لَابِسُهَا ذُو سَلَبٍ فَاخِرِ
يَقُولُ مَنْ تَقْرَعُ أَسْمَاعَهُ:   كَمْ تَرَكَ الأَوَّلُ لِلْآخِرِ!

وكما قال الجاحظُ[3]:

مَا عَلَّمَ النَّاسَ سِوَى قَوْلِهِمْ:   كَمْ تَرَكَ الأَوَّلُ لِلْآخِرِ!

= يتمثلوا الأمثال تبعث الأمل في المستقبل؛ ففي أعماق نفوسهم أن قول القائل: «ما تركَ الأولُ للآخِر» خَيْرٌ من القول: «كَمْ تركَ الأوَّلُ للآخر»! ويلوكون دائمًا: «لا جديد تحت الشمس»، ولا يعجبهم أن تقول: إن كل ما تحت الشمس في جِدَّةٍ مستمرَّة، والمستقبل مملوء بالجديد، وإذا رأوا كلمةً في كتاب قديم تَدُلُّ ـ ولو دلالة كاذبة ـ على نظرية جديدة طاروا بها فرحًا؛ لأن ذلك يلائم ما في نفوسهم من تعظيم الماضي، وتحقير الحاضر والمستقبل، هم يعيشون في أحلام، ولا يريدون أن يعيشوا في حياة واقعة، وحول هذه المعيشة الحالمة يَنْسُجون دائمًا ما يوافقها ويمازجها ويسايرها؛ يكتفون بالأمل أن ينعموا بالآخرة؛ وماذا عليهم لو عَمِلُوا لينعموا في الدنيا والآخرة؟!».

(١) **تنويرٌ**: أكثر من رأيته يردِّد هذه المقولة من العلماء المعاصرين الشيخ الألباني رحمه الله تعالى؛ وذلك لكثرة استدراكاته على مَنْ سبقه، **ومِنْ عباراته في هذا قوله**: «فتأمَّل كيف يقع الخطأ من الفرد، ثم يغفُلُ عنه الجماعة، ويتتابعون وهم لا يشعرون؛ ذلك ليصدق قول القائل: «كم ترك الأول للآخر»، ويَظَلَّ البحث العلمي مستمرًّا، ولولا ذلك لجمدت القرائح، وانقطَعَ الخير عن الأمة». «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة» (٣/ ١٨٠).

(٢) «الديوان بشرح التبريزي» (٢/ ١٦١). **وانظر**: «الأمثال المولَّدة» للخوارزمي (ص٣٤٩).

(٣) «تاج العروس» للزبيدي (١/ ٧٧).

وكما قال **البَدْرُ بنُ سَلَامةَ**[١]:

أَقْسَمْتُ إِنْ جَدَّ وَطَالَ المَدَى ... رَوَى الوَرَى مِنْ بَحْرِهِ الزَّاخِرِ

فَقُلْ لِمَنْ بِالسَّبْقِ قَدْ فُضِّلُوا: ... كَمْ تَرَكَ الأَوَّلُ لِلْآخِرِ!

وينبغي أنْ يَسْتحضِرَ العالمُ تلكَ الكَلِمةَ النفيسةَ **التي قالها عليُّ بنُ أبي طالبٍ** رضي الله عنه: «قيمةُ كلِّ امرئٍ ما يُحْسِنُ»[٢].

قال ابنُ عبدِ البرِّ تعقيبًا عليها: «قالوا: ليس كلمةٌ أَحَضَّ على طلبِ العلمِ منها... وهو مِنَ الكلامِ العجيبِ الخطيرْ، وقد طار به الناسُ كلَّ مَطِيرْ!»[٣].

٢ ـ دعوى إغلاقِ بابِ الاجتهادِ:

لقد مَرَّتْ على الأمةِ فترةٌ غيرُ قصيرةٍ أُلْغِيَ فيها الاجتهادُ، وأُغْلِقَ بابُهُ ـ خصوصًا في العصورِ المتأخِّرةِ؛ عصورِ الانحطاطِ ـ وخَلَدَتْ فيه الأُمَّةُ للتقليدِ البليدِ، بل تَعصَّبتْ له؛ حتى قال قائلُهم: «إنَّ اللامذهبيَّة، أخطرُ بِدْعةٍ على الإنسانيَّة!!».

فتَبَلَّدَتِ المشاعرُ، وخَمَدَتْ جَذْوةُ الاجتهادِ والابتكارِ، وأصبَحَ كثيرٌ من العلماءِ يدورون في حَلْقةٍ مُفْرَغةٍ لا يُدْرَى أين طرفاها!! فكان كلُّ من يُرِيدُ الإبداعَ أو التجديدَ، يَجِدُ الناسَ له بالمرصادِ، يقفون حَجَرَ عَثْرةٍ في طريقِهِ، ولو بالقُوَّةِ أحيانًا، كما حصَلَ لكثيرٍ من العلماءِ والمُبْدِعين، منهم: حَسَن بن حُسَيْن الأُسْكُوبيُّ[٤] الذي استَجْلَبَ بعضَ المناظيرِ

---

(١) «الضوء اللامع» للسخاوي (٩/ ٢٩٨).

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه (٥/ ٣٥) من طريق ابن أبي الدنيا، **وقال**: «قال ابن أبي الدنيا: قال عمرو بن بحر: لا أعلم في كلام الناس كلمة أحكم من هذه الكلمة».

(٣) «جامع بيان العلم» لابن عبد البر (١/ ٤١٦ ـ ٤١٧).

(٤) أَرْنَاؤدِيُّ الأصل من ألبانيا، كان من بيت علمٍ وأدبٍ، وكان يقطن المدينة النبوية (ت١٣٠٣هـ). «الأعلام» للزركلي (٢/ ١٨٩).

والأصطرلاباتِ، والزوايا والتلسكوباتِ من أُوروبَّا، وأقام على سَطْحِ منزلِهِ مَرْصَدًا فلكيًّا، فكان يَصْعَدُ إليه يُراقِبُ النجومَ والكواكبَ، وسَيْرَ الأفلاكِ وتقلُّباتِها، فما كان مِنْ عُلَماءِ المدينةِ إلَّا أنْ شَنُّوا عليه غَارَةً شَعْواءَ في يومٍ من الأيامِ، ودَخَلُوا بيتَهُ، وأخذوا تلك الأجهزةَ والمناظيرَ، فلَزِمَ بيتَهُ حَزَنًا وكَمَدًا، ومَرِضَ بَعْدَها وتُوفِّي!

ومِنَ الطريفِ أنَّ أَحَدَهم ـ وهو عبدُ الجليلِ برادة ـ نَظَمَ فيه رجزًا قال فيه[1]:

مَا قَوْلُكُمْ في شَيْخِنَا الأُسْكُوبي؟! يَبِيتُ طُولَ اللَّيْلِ فِي الرَّاقُوبِ
يَـرْقُـبُ مِـنْـهُ الـفَـلَـكَ الـدَّوَّارَا مُشَابِهًا في فِعْلِهِ النَّصَارَى!

فالحاصلُ: أنَّ دعوى إغلاقِ بابِ الاجتهادِ ـ سواءٌ في المسائلِ العِلْميةِ أو العَمَليةِ ـ كان له نتائجُ كارثيةٌ على الأمةِ، ما زلنا نعانيها حتى اليومِ[2].

وقد قال الشيخُ محمَّد سعيد الباني عنها: «إنها دعوى فارغةٌ، وحجةٌ واهنةٌ، أوهَنُ من بيتِ العنكبوتِ؛ لأنها غيرُ مستندةٍ إلى دليلٍ شرعيٍّ أو عقليٍّ سوى التوارثِ»[3].

---

(١) المصدر نفسه. ويذكِّرنا هذا بحال مخترع التلسكوب نفسه (جاليليو)! وقد تقدَّم شيءٌ من خبره.

(٢) **انظر بعض آثارها الخطيرة في كتاب**: «واقعنا المعاصر» لمحمد قطب (ص١٥٩ فما بعد).

(٣) «عمدة التحقيق، في التقليد والتلفيق» (ص٦٢).

وانظر: بسط المسألة في كتب أصول الفقه، **كما أُوصِي بقراءة مقدِّمة الشيخ صلاح الدين مقبول أحمد لكتاب** «إرشاد النقاد، إلى تيسير الاجتهاد» للصنعاني (ص٢٩)؛ فإنها نفيسةٌ جِدًّا.

ثالثًا: دخولُ العَالِمِ في غَيْرِ فَنِّهِ:

هذا أمرٌ يُدْرَكُ مما سَبَق، فقد اشترطنا سَلَفًا التخصُّصَ ـ وهو أنْ يَسْتفرِغَ الإنسانُ جُهْدَهُ في فَنِّهِ الذي مالت نفسُه إليه ـ فلا ينبغي للراغبِ أن يَدْخُلَ في فَنٍّ لا يَعْرِفُهُ مهما بلَغَ ذكاؤُهُ وحِذْقُهُ؛ لئلا يقعَ في تناقضاتٍ وتحريفاتٍ وهو لا يشعُرُ، فيكونَ سُبَّةَ الزمانْ، وأُضْحُوكةَ الثكلان، وربَّما بَقِيَتْ عليه مَعَرَّةُ ذلك تَحْيَا بحياتِهِ، ولا تموتُ بموتِهِ!

قال الشافعيُّ: «الواجبُ على العَالِمينَ ألَّا يقولوا إلَّا مِنْ حيثُ عَلِمُوا، وقد تَكَلَّمَ في العلمِ مَنْ لو أمسَكَ عن بعضِ ما تَكلَّمَ فيه منه، لكان الإمساكُ أولى به، وأقرَبَ من السلامةِ له، إنْ شاء الله»[1].

وقال السَّمْعانيُّ ـ في الردِّ على بعضِ العُلَماءِ ـ: «فكان الأَوْلَى به ـ عفا الله عنه ـ أنْ يَتْرُكَ الخوضَ في هذا الفَنِّ، ويُحيلَهُ على أهلِهِ؛ فإنَّ مَنْ خاض فيما ليس مِنْ شأنِهْ، فأقلُّ ما يُصِيبُهُ افتضاحُهُ عندَ أهلِه»[2].

وقال ياقوتُ الحَمَويُّ فيمن تكلَّمَ في غيرِ فَنِّهِ بلا علم: «فإنَّه إنْ زعَمَ أنه وادٍ وكان جبلًا، أو جبلٌ وكان صحراءَ، أو صحراءُ وكان نَهْرًا، أو نهرٌ وكان قَرْيَةً، أو قريةٌ وكان شِعْبًا، أو شِعْبٌ وكان حَزْمًا، أو حزمٌ وكان روضةً، أو روضةٌ وكان صَفْصَفًا، أو صفصفٌ وكان مُسْتَنْقَعًا، أو مستنقعٌ وكان جَلَدًا، أو جلدٌ وكان سَبْخَةً، أو سبخةٌ وكان حَرَّةً، أو حَرَّةٌ وكان سَهْلًا، أو سهلٌ وكان وَعْرًا، أو يَجْعَلُهُ شرقيًّا وكان غربيًّا، أو جنوبيًّا وكان شماليًّا ـ: سَفُلَ قدْرُهْ، ونَزُرَ كُثْرُهْ، وآضَ ضُحْكَةْ، ويُرَى أنه ضُحَكَةْ، وجُعل هُزْأَةْ، ويرى أنه هُزَأَةْ، واستُخِفَّ وزنُهُ واستُرْذِلْ، واستُقِلَّ

---

(١) «الرسالة» (١/ ٤١).
(٢) «قواطع الأدلة» (١/ ٣٩٩).

فَضْلُهُ واستُجهِلْ»[١].

فعلى الراغبِ أنْ يَتفرَّغَ لذلك الفَنِّ، ويحصِّلَهُ على أربابِهِ حتى يُتْقِنَهُ، أو أنْ يَدَعَهُ لأهلِهِ المعتنينَ به، ولا يُلوِّثَهُ بِجَهالاتِهِ، أمَّا أنْ يدخُلَ فيه للنُّزْهةِ والتذوُّقِ، فهذا مما لا يُحْمَدُ[٢].

وقد ضَبَطَ العلماءُ عجائبَ وغرائبَ على هؤلاءِ الأدعياءِ الذين دَخَلُوا في فُنُونٍ ليسوا من أهلِها! وفي كُتُبِ الرُّدُودِ والتتبُّعاتِ والإلزاماتِ مِنْ ذلك ما يُضْحِكُ الثَّكْلَى، ويُعْجِلُ الحُبْلَى!

مِنْ ذلك: ما حُكِيَ عن عوض بنِ نَصْرٍ المِصْريِّ، وهو ممَّن كان له عِنايةٌ بالحديثِ والقراءاتِ والفقهِ على مذهبِ الإمامِ أبي حنيفةَ، لكنه لمَّا دخَلَ فيما لا يُحْسِنُ، أتى بما يُضْحِكُ؛ فقد ذكروا أنه أخَذَ كتابَ «المُفصَّلِ» للزمخشريِّ ـ وهو كتابٌ في النحوِ ـ فسأَلَ بعضَ الجماعةِ عن قولِ الزمخشريِّ في أولِ «المفصَّلِ»: «لأيِّ شيءٍ قال: «اللهَ أَحْمَدُ»، وما قال: «الله يوسفُ»، ولا «الله عيسى»، أو موسى، أو غيرَ ذلك من الأسماءِ»!! فحَفِظُوها عنه[٣].

---

(١) «معجم البلدان» (١/ ٩).

(٢) وقد تقدَّم شيء في التحذير من ذلك في بداية الكلام عن مقوِّمات الإبداع العلمي.

(٣) **انظر**: «أعيان العصر، وأعوان النصر» للصفدي (٣/ ٧١٠)، و«الدرر الكامنة» لابن حجر (٣/ ١٩٩).

قلتُ: **قال الزمخشري في كتابه «المفصَّل في صَنْعة الإعراب»** (ص١٧): «اللهَ أَحْمَدُ على أنْ جعلني مِنْ عُلَماءِ العربيَّة، وجَبَلَني على الغَضَبِ للعربِ والعصبيَّة...».

ومعناه بيِّنٌ واضحٌ، فلفظُ الجلالة: مفعولٌ به مقدَّمٌ، وأحمدُ: فعلٌ مضارعٌ مرفوعٌ مؤخَّرٌ، وهو من الحمد نقيض الذمّ، وليس عَلَمًا على الذات كما فَهِمَ عوض هذا!!

لطيفة: **قال الشيخ أثير الدين**: «قال الطلبة لعوض هذا يعبثون به: أنت ما في القرآن الكريم لفظٌ يوازن اسمك! فانحَرَفَ من ذلك وتأذَّى، وجاء إليَّ شاكيًا، فقلت له: بلى في القرآن ما يوازن اسمك، فقال: ما هو؟ قلت: عِنَب، فسُرَّ بذلك، وتوجَّه إليهم! =

وهذا ما جعَلَ الطُّلَّابَ يَسْخَرون منه، فوضَعَ واحدٌ منهم سؤالاتٍ على لسانِهِ من أولِ «المُفَصَّلِ» إلى آخرِهِ؛ مثلُ: «لأيِّ شيءٍ قال: «باب الترخيم»، وما قال: باب التبليط؟! ولأيِّ شيءٍ قال: «الموصول»، وما قال: الشَّبَّابة؟! ولأيِّ شيءٍ قال: «العَلَم»، وما قال: السنجق؟! وقال: «زَيْدُ قُفَّة»، وما قال: السرقانية؟!».

ثم إنه شرَعَ في تعليلِ ذلك جميعِهِ؛ مثلُ قولِهِ: الموصول؛ لأنه اسميٌّ وحرفيٌّ، فهو ينقسمُ إلى قسمينِ، والموصولُ قطعتان موصولتان، وليست الشَّبَّابة كذلك!![1].

ثم إنَّ ضَرَرَ الداخلِ في غيرِ فَنِّهِ ضررٌ عظيمٌ؛ فإنَّه لن يزيدَ ذلك الفَنَّ الذي تَوَلَّجَهُ إلَّا ظلامًا وأوهامًا، فيكونُ كما قيل: «يَبْنِي قَصْرًا، ويَهْدِمُ مِصْرًا!»؛ ولهذا نجدُ بعضًا من كتبِ شُروحِ الحديثِ والتفسيرِ والفقهِ ـ خصوصًا الحواشيَ منها ـ مليئةً بمثلِ هذه الأقوالِ والتُّرَّهاتِ التي جاءتْ من غيرِ مُتخصِّصٍ في ذلك الفَنِّ؛ فازدادَتْ بذلك الأوراق، وكَثُرَتْ بسببِها الأوهاق!

ويا ليتَ هؤلاءِ الأدعياءَ فَعَلُوا كفِعْلِ ذلك الثعلبِ الذي دخل بُسْتانَ عِنَبٍ ـ فيما يُحْكَى ـ فرأى عُنْقُودًا متدلِّيًا يكادُ يَتمزَّقُ لكثرةِ مائِهِ ورُوَائِهِ، فحاوَلَ أنْ يَصِلَ للعنقودِ مَرَّةً تلوَ مَرَّة، وكَرَّة بعدَ كرَّة، فلمَّا كَلَّ ومَلَّ، وما وصَلَ إلى ما أَمَّل، نظَرَ إلى العُنقودِ، وقال: الحمدُ لله الذي لم يَجْعَلْ لنا في الحَرَامِ نصيبًا!!

= ثم إنه شرعَ بتتبُّع الأجزاء والمعاجم والمَشْيَخات والتواريخ، إلى أن جمَعَ جزءًا سَمَّاهُ: «شِفَاء المَرَض، فِيمَنْ تسمَّى بعوض»، وذكَرَ فِي الْخُطْبَةِ أن في الْقُرْآنِ على وزن اسمه عِنَب!!».

(١) **انظر**: المصدرين السابقين.

رابعًا: تَوَقُّفُ الإنسانِ عن البحثِ والطَّلَبِ عندَ مَرْحَلَةٍ مِنَ العِلْمِ وانقطاعُهُ دُونَها:

إنَّ العَالِمَ لا بُدَّ أنْ يكونَ متحلِّيًا بالصبرِ والجَلَدِ؛ وإلَّا فإنه سوفَ ينقطعُ في منتصفِ الطريقِ، وربَّما قبلَ ذلكَ؛ وذلك بأنْ يُصِيبَهُ اليأسُ؛ لأنه لم يَصِلْ إلى نتيجةٍ؛ فيُؤدِّي به ذلك إلى الإحباطِ، بل رُبَّما إلى كراهيةِ العلمِ نفسِهِ!

وغالبًا ما يكونُ ذلك عندَ عدمِ إحسانِ اختيارِ الفَنِّ المناسبِ، أو لِعَدم انضباط البرنامجَ، أو لأنَّ خُطَّةَ العملِ فيه غيرُ مُحْكَمةٍ:

سَتَعْلَمُ حِينَ يَنْكَشِفُ الغُبَارُ ... جَوَادٌ تَحْتَ رِجْلِكَ أَمْ حِمَارُ؟!

وربَّما كان العيبُ في الشخصِ نفسِهِ؛ إذا لم يتحلَّ بالصبرِ والتحمُّلِ الذي هو شرطٌ أساسٌ من شُرُوطِ الإبداعِ كما سلَفَ؛ **ولذا قيل:**

عِنْدَ الرِّهَانِ يُعْرَفُ المِضْمَارُ ... وَيُعْرَفُ السَّابِقُ وَالخَوَّارُ

ولقد ضرَبَ علماؤنا السالفون أَرْوَعَ الأمثلةِ في الصبرِ على مَشَاقِّ الطلبِ وشدائدِ التحصيلِ؛ فكان بعضُهم يُكرِّرُ الحديثَ الواحدَ لحفظِهِ خمسَ مئةِ مرَّةٍ! وبعضُهم كان يُكرِّرُ المسألةَ الواحدةَ من مسائلِ العلمِ ألفَ مَرَّةٍ! ومنهم مَنْ كَرَّر بعضَ الكتبِ المهمَّةِ قراءةً وإقراءً مئاتِ المَرّاتِ! وبعضُهم قرأَ عَشَراتِ الآلافِ من الكتبِ وهو ما زال بعدُ شابًّا! وبعضُهم ما كان يسافرُ إلَّا ومعه عِدَّةُ أحمالٍ من الكتبِ، كلَّما نزَلَ منزلًا أَخْرَجَهَا ونظَرَ فيها! وبعضُهم ما كان ينامُ إلَّا والكتابُ على صدرِهِ مُدَّةَ أربعينَ سنةً! أمَّا قراءةُ الكتبِ المطوَّلةِ في مجالسَ معدودةٍ، فحدِّثْ عن ذلك ولا حَرَجَ! وقد سبَقَ أن ذكَرْتُ شواهدَ على بعضِ ذلك[1].

---

(١) **وانظر:** كتاب «صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل» للشيخ عبد الفتاح أبو غدة؛ فإنه من أجمع وأمتع وأنفع الكتب التي أُلِّفت في هذا الباب.

وجاء أنَّ (أديسون) جرَّب عَشْرةَ آلافِ تَجْرِبةٍ قبلَ أنْ يَصِلَ إلى التجربةِ الصحيحةِ التي أنارَتْ له المِصْبَاحَ الكَهْرَبائيَّ!!

وفي اختراعِهِ بَطَّاريَّةَ السيارةِ استَغْرَقَ العملُ منه عَشْرَ سنواتٍ كاملةٍ، وجَرَّبَ خمسينَ أَلْفَ تجربةٍ!! وتَكلَّفَ ثلاثةَ ملايينَ دولارٍ حتى وصَلَ في النهايةِ إلى اختراعِها!!

فلم يَكُنِ الفَشَلُ لِيُوهِنَ عزيمةَ أديسون؛ فعندما فشلت (١٠٠٠٠) تجربةٍ ـ قام بها على مركم (البطارية) ـ في إعطاءِ النتائجِ المرجوَّةِ، حاولَ أحدُ أصدقائِهِ أنْ يُوَاسِيَهُ، فقال له أديسون: لماذا؟ أنا لم أَفْشَلْ! لقد اكتشفتُ (١٠٠٠٠) طريقةٍ لا تؤدِّي إلى الهَدَفِ المطلوبِ!!

وكان يعملُ ما بين ١٨ ـ ٢٠ ساعةً في اليومِ! ولهذا لمَّا سُئِلَ متى ستأخُذُ إجازةً؟ قال: إنَّ العِلْمَ لا يأخُذُ إجازةً على الإطلاقِ![١].

ورُبَّما أغرى الإنسانَ بَرِيقُ المَنَاصِبِ والألقابِ، فتوقَّفَ عندَها؛ ظَنًّا منه أنه قد وَصَل! فيَتْرُكُ حينذاك الجِدَّ والطَّلَبَ والبَحْثَ، مع أنَّ هذه الألقابَ ليستْ دليلًا على التأهُّلِ، فقد يُصبِحُ الإنسانُ دكتورًا وهو ما زال بعدُ في بدايةِ الطريقِ[٢].

وَقَدْ يَجْهَلُ الإِنْسَانُ وَهْوَ «مُدَكْتَرٌ» فَلَا تَجْعَلِ الْأَلْقَابَ مِيزَانَ عَالِمِ!!

وهذا هو الأصلُ في هذه الشهادةِ؛ فإنَّ شهادةَ الدكتوراه إنَّما تُمْنَحُ

---

(١) **انظر**: «الموسوعة العربية العالمية» (أديسون)، و«أديسون الذي أضاء العالم» (ص١١٧ و١٢٠) سلسلة الناجحون.

(٢) في بعض دول الغرب تُمْنَحُ درجة الدكتوراه للمُبْدِعِينَ حتى وإنْ صَغُرَ سنُّهم، فالمستشرق (بول كراوس) مثلًا حصل على الدكتوراه وعمره (٢٣) سنةً فقط! «موسوعة المستشرقين» لعبد الرحمٰن بدوي (ص٣٢٥).

للشخصِ لا لأنَّه وَصَل، ولكنْ لأنَّه أصبَحَ قادرًا على مواصلةِ البحثِ بمفردِهِ![١].

والعلمُ والإبداعُ لا يُقاسُ بالشهاداتِ والألقابِ، فكثيرٌ مِنْ أعلامِ العَصْرِ فضلًا عن المتقدِّمين، ما عَرَفُوا هذه الألقابَ، ولا لَابَسُوها، ومع ذلك فقد مَلَؤُوا الدنيا عِلْمًا وإبداعًا.

خامسًا: النَّقْدُ السَّلْبِيُّ المُدَمِّرُ:

النَّقْدُ قسمان:

١ ـ **نقدٌ إيجابيٌّ**، هَدَفُهُ بيانُ الأخطاءِ والتنبيهُ عليها؛ لتلافيها، وليس الوقيعةَ في الأعراضِ، وتحطيمَ الأشخاصِ والمواهبِ؛ وهو عزيزٌ في هذا العصرِ!

٢ ـ **نقدٌ سَلْبيٌّ**، هدفُهُ التَّشْنيعُ والتَّقْريعُ والتَّشْهيرُ؛ وهو الذي يُبلِّدُ الإحساسَ، ويَمْسَخُ المواهبَ، ويُعطِّلُ القُدُراتِ، ويَقْتُلُ الطموحَ والإبداعَ في المُبْدِعِ، ويُصيِّرُ الموهوبَ خائفًا يترقَّبُ، أكبرُ هَمِّهِ كيف ينجو؟! هذا إن نجا!

فتراه لا يَكْتُبُ ولا يَتكلَّمُ ولا يُناقِشُ ولا يُراجِعُ؛ خوفًا من النَّقْدِ

---

(١) هذا هو مفهوم هذه الشهادة في الدول المتقدِّمة، أمَّا في الدول المتأخِّرة فالأمر بخلاف ذلك، فقد بلغني عن بعض من نال هذه الدرجة عندنا أنه لمَّا نوقش رسالتَهُ باع مكتبته!!

وقد قلتُ في هذا المعنى:

وَمَا كُلُّ (دُكْتُورٍ) بَصِيرٌ بِفَنِّهِ ... وَلَا كُلُّ (أُسْتَاذٍ) جَدِيرٌ بِأَنْ يَدْرِي
وَلَيْسَ لِزَامًا أَنْ يَكُونَ مُبَرِّزًا ... فَتًى أَحْرَزَ الأَلْقَابَ أَوْ صَالَ فِي النَّشْرِ
فَكَمْ جَامِعٍ كُتْبًا وَلَيْسَ بِعَالِمٍ ... وَكَمْ نَاقِلٍ فِكْرًا وَلَيْسَ بِذِي فِكْرِ!

الجائرِ؛ لأنَّ الأَلْسُنَ والأقلامَ له بالمرصادِ! وما خارتِ النفوسُ، وضَمَرَتِ العقولُ، وماتَتِ الهِمَمُ؛ إلَّا بمثلِ هذا النَّقْدِ، ويقفُ وراءَ هذا النَّقْدِ غالبًا الحَسَدُ والأنانيَّةُ!

قال الدُّورِيُّ: «حدَّثنا الكِسَائيُّ قال: كنتُ أقرأُ على حمزةَ، فجاء سُلَيْمٌ فتلَكَّأْتُ، فقال حمزةُ: تَهَابُ سُلَيْمًا ولا تَهَابُني! فقلتُ: يا أُستاذُ، أنتَ إنْ أخطَأْتُ قَوَّمْتَني، وهذا إنْ أخطَأْتُ عَيَّرَني!»[(١)].

ولقد أحسنَ مَنْ قال[(٢)]:

قَدْ تُفْسِدُ البِيئَةُ الرَّعْنَاءُ أَدْمِغَةً ... بِهَا تَغَنَّى لِسَانُ الدَّهْرِ مُفْتَخِرَا

إِذَا حَكَمْتَ عَلَى الحُرِّ الكَرِيمِ بِأَنْ ... يَعِيشَ بَيْنَ لِئَامٍ عَاشَ مُنْتَحِرَا!

سادسًا: المَصَائِبُ والشواغلُ التي تَحُلُّ بالنفسِ أو الذِّهْنِ؛ فتُعَطِّلُهما:

مِنَ المعلومِ أنَّ النفسَ والذِّهْنَ هما آلةُ الإبداعِ، فإذا ما اشتَغَلَتْ نفسُ المُبْدِعِ بمصيبةٍ تنزلُ بصاحبِها، أو تَحُلُّ قريبًا من دارِهِ، تَوَلَّدَ عندَهُ هَمٌّ وغَمٌّ وضيقٌ، وربَّما أصابَتْهُ آفةٌ في ذهنِهِ، وكلُّ ذلك عائقٌ عن الإبداعِ.

إنَّ العاملَ الأقوى في الإبداعِ هو استجماعُ الفِكْرِ، وتركيزُ الذِّهْنِ، مما قد يتلاشى تحتَ وطأةِ الأَلَمِ، ومطارقِ الكُرَبِ، وكثيرًا ما يُصابُ الإنسانُ بِذُهُولٍ، أو اختلاطٍ، أو حتى بوفاةٍ، نتيجةَ خبرٍ مؤلمٍ، أو حادثٍ مُرَوِّعٍ.

---

(١) «معرفة القراء الكِبار» (١/ ١٣٩)، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي (٩/ ٣٧٦)، و«مسالك الأبصار، في ممالك الأمصار» للقرشي (٥/ ٢٣٥).

(٢) «رباعيات مختارة» لإلياس قنصل (ص١٨).

قال ابنُ حَزْمٍ: «إنْ أُعجِبْتَ بِعِلْمِكَ، فاعْلَمْ أنَّه لا خَصْلَةَ لك فيه، وأنه مَوْهِبةٌ مِنَ اللهِ مُجرَّدةٌ وَهَبَكَ إيَّاها رَبُّكَ تعالى؛ فلا تُقابِلْها بما يُسْخِطُهُ؛ فلعلَّهُ يُنْسِيكَ ذلك بِعِلَّةٍ يَمْتَحِنُكَ بها، تُولِّدُ عليك نِسْيانَ ما عَلِمْتَ وحَفِظْتَ!

ولقد أُخبِرْتُ عن عبدِ الملكِ بنِ طَرِيفٍ ـ وهو من أهلِ العلمِ والذَّكَاءِ واعتدالِ الأحوالِ وصِحَّةِ البحثِ ـ أنه كان ذا حَظٍّ من الحفظِ عظيمٍ، لا يَكَادُ يَمُرُّ على سَمْعِهِ شيءٌ يحتاجُ إلى استعادتِهِ، وأنه رَكِبَ البحرَ، فمَرَّ به فيه هَوْلٌ شديدٌ أنساه ما كان يحفظُ، وأَخَلَّ بقوةِ حفظِهِ إخلالًا شديدًا لم يُعَاوِدْهُ ذلك الذَّكَاءُ بعدُ!

وأنا أصابتني عِلَّةٌ، فأَفَقْتُ منها وقد ذهَبَ ما كنتُ أحفظُ إلَّا ما لا قَدْرَ له، فما عَاوَدتُّهُ إلا بعدَ أعوامٍ!»[١].

سابعًا: عَدَمُ إتقانِ العَمَلِ:

هذا مِنْ أكبرِ العوائقِ للوصولِ إلى الإبداعِ، والنبيُّ ﷺ يقولُ: (**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ**)[٢].

فلا بُدَّ لِمَنْ رامَ الإبداعَ أن يُقْبِلَ بتجرُّدٍ على برنامجِهِ، وأن يَبْذُلَ غايةَ وُسْعِهِ لإتقانِ ما هو بصددِهِ؛ وفي هذا المعنى **يقولُ أحمد شوقي**[٣]:

أُطْلُبِ الْعِلْـمَ لِذَاتِ الْعِلْـمِ لَا ... لِظُهُورٍ بَاطِلٍ بَيْـنَ الْمَـلَا

---

(١) «مداواة النفوس» ضمن «رسائل ابن حزم الأندلسي» (١/ ٣٨٨).
قلتُ: لعل هذه العِلَّةَ هي ضرب الطُّحال، كما ذكروا في ترجمته، رحمه الله تعالى.

(٢) الحديث أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٧/ ٣٤٩)، وغيره. وصحَّحه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١١١٣).

(٣) «الشوقيَّات» (٢/ ٧٠٤).

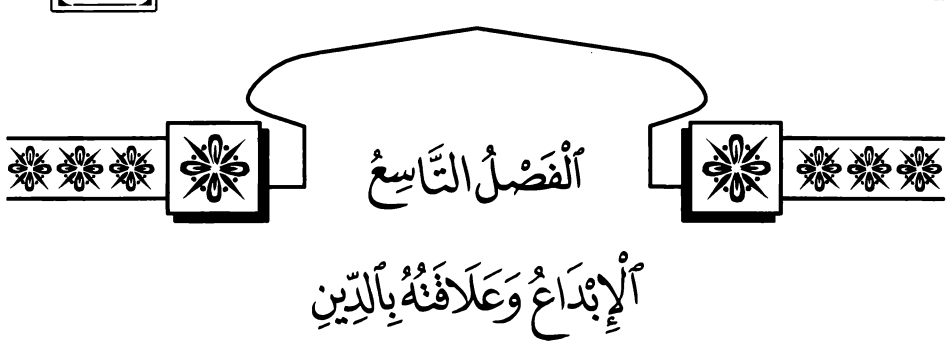
ثامنًا: اضطرابُ المنهجِ:

وقد تحدَّثنا عنه فيما مضى؛ فلا نعيدُ[١].

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر: خامس مقوِّمات الإبداع العلمي.



الفصل التاسع

الإبداع وعلاقته بالدين

الإبداعُ العِلْميُّ ـ بِشِقَّيْهِ المعنويِّ والماديِّ ـ ليس نِدًّا للدِّينِ، ولا ضِدًّا له!

بل العكسُ هو الصحيحُ؛ فإنَّ الدِّينَ يَحُضُّ على الإتقانِ في العملِ والإبداعِ فيه؛ فقد جاءتْ نصوصٌ كثيرةٌ في الكتابِ والسُّنَّةِ تَحُثُّ الإنسانَ على التأمُّلِ والتفكُّرِ، والنظرِ والتدبُّرِ[1]، وعلى إحسانِ العملِ وإتقانِهِ[2].

بَيْدَ أنَّ الدِّينَ يَضْبِطُ عمليةَ الإبداعِ وما ينتجُ عنها بما تَتمحَّضُ فيه المصلحةُ، أو تكونُ هي الغالبةَ؛ فلا يأذَنُ الدِّينُ بعملٍ يؤدِّي إلى الإضرارِ بالنفسِ، أو الإضرارِ بالغيرِ[3].

ولقد حاوَلَ أعداءُ الدِّينِ من العَلْمانِيِّينَ وأضرابِهم ـ الذين ينادون بفصلِ الدولةِ عن المِلّةِ، والدِّينِ عن الحياةِ ـ أن يُحْدِثُوا فَجْوةً بين الدِّينِ وبينِ الإبداعِ العِلْميِّ، لا سيَّما في المَجَالاتِ الماديةِ؛ ليموِّهوا على الناسِ أنَّ الدِّينَ عدوٌّ للإبداعِ والتقدُّمِ! فتَنْبُذُ البشريةُ حينئذٍ دِينَ اللهِ الحَقَّ وراءَها ظِهْرِيًّا، وتَصْدِفُ عنه!!

---

(١) انظر كتاب: «التفكير فريضة إسلامية» لعباس محمود العَقَّاد؛ فقد أتى على ذكر طائفة كبيرة من تلك النصوص.

(٢) تقدم بيان ذلك في الفصل السابق.

(٣) سيأتي توضيح ذلك في الفصل العاشر.

ولقد أَبْدَعَ الأستاذُ سيِّد قُطْب ـ رحمه الله تعالى ـ في وصفِ هؤلاءِ المُجْرِمِينَ، وما يرومونه مِنْ وراءِ هذا الخِدَاعِ والتضليلِ؛ **فقال**: «إنَّ هناكَ **عِصَابةً من المُضلِّلينَ الخادعينَ أعداءِ البشريةِ** يضعون لها المنهجَ الإلٰهيَّ في كِفَّةٍ، والإبداعَ الإنسانيَّ في عَالَمِ المادَّةِ في الكِفَّةِ الأخرى، ثم يقولون لها: اختاري!! اختاري: إمَّا المنهجَ الإلٰهيَّ في الحياةِ والتخلِّيَ عن كلِّ ما أبدَعَتْهُ يدُ الإنسانِ في عَالَمِ المادةِ، وإمَّا الأخذَ بثمارِ المعرفةِ الإنسانيةِ والتخلِّيَ عن منهجِ اللهِ!!! وهذا خِدَاعٌ لئيمٌ خبيثٌ، فوَضْعُ المسألةِ ليس هكذا أبدًا.

إنَّ المنهجَ الإلٰهيَّ ليس عدوًّا للإبداعِ الإنسانيِّ، إنما هو منشئٌ لهذا الإبداعِ، ومُوجِّهٌ له الوِجْهةَ الصحيحةَ؛ ذلك كي ينهضَ الإنسانُ بمقامِ الخِلَافةِ في الأرضِ، هذا المقامُ الذي منحه اللهُ له، وأقدَرَهُ عليه، ووهَبَهُ من الطاقاتِ المكنونةِ ما يكافئُ الواجبَ المفروضَ عليه فيه، وسخَّرَ له من القوانينِ الكونيةِ ما يُعِينُهُ على تحقيقِهِ، ونسَّقَ بين تكوينِهِ وتكوينِ هذا الكونِ لِيَمْلِكَ الحياةَ والعَمَلَ والإبداعَ؛ على أنْ يكونَ الإبداعُ نَفْسُهُ عبادةً للهِ، ووسيلةً مِنْ وسائلِ شُكْرِهِ على آلائِهِ العظامِ، والتقيُّدِ بشرطِهِ في عَقْدِ الخِلَافةِ؛ وهو أن يَعْمَلَ ويَتحرَّكَ في نطاقِ ما يُرْضِي اللهَ.

فأمَّا أولئك الذين يَضَعُونَ المنهجَ الإلٰهيَّ في كِفَّةٍ، والإبداعَ الإنسانيَّ في عالمِ المادةِ في الكِفَّةِ الأخرى، فهم سيِّئو النيةِ، شِرِّيرون، يطاردون البشريةَ المُتْعَبةَ الحائرةَ كلَّما تَعِبَتْ من التيهِ والحَيْرةِ والضلالِ، وهَمَّتْ أن تسمعَ لصوتِ الحادي الناصحِ، وأنْ تَؤُوبَ من المتاهةِ المُهْلِكةِ، وأن تطمئنَّ إلى كَنَفِ اللهِ.

وهنالك آخرون: لا يَنْقُصُهم حُسْنُ النيةِ، ولكنْ يَنْقُصُهم الوعيُ الشاملُ، والإدراكُ العميقُ.

هؤلاء يَبْهَرُهم ما كشَفَهُ الإنسانُ مِنَ القوى والقوانينِ الطبيعيةِ، وتَرُوعُهُمُ انتصاراتُ الإنسانِ في عالمِ المادةِ؛ فيَفْصِلُ ذلك البَهْرُ وهذه الرَّوْعةُ في شُعُورِهم بين القوى الطبيعيةِ، والقِيَمِ الإيمانيةِ، وعملِها وأثرِها الواقعيِّ في الكَوْنِ، وفي واقعِ الحياةِ، ويجعلون للقوانينِ الطبيعيةِ مجالًا، وللقيمِ الإيمانيةِ مجالًا آخَرَ! ويَحْسَبُونَ أنَّ القوانينَ الطبيعيةَ تسيرُ في طريقِها غيرَ متأثِّرةٍ بِالقِيَمِ الإيمانيةِ، وتُعْطِي نتائجَها؛ سواءٌ آمَنَ الناسُ أم كفروا، اتَّبَعُوا منهجَ اللهِ أم خالَفُوا عنه، حكَمُوا بشريعةِ اللهِ أم بأهواءِ الناسِ!

هذا وَهَمٌ؛ إنَّه فَصْلٌ بين نوعَيْنِ من السننِ الإلٰهيةِ هما في حقيقتِهما غيرُ منفصلَيْن؛ فهذه القيمُ الإيمانيةُ هي بعضُ سننِ اللهِ في الكونِ كالقوانينِ الطبيعيةِ سَوَاءً بسواءٍ، ونتائجُهما مرتبطةٌ ومتداخلةٌ، ولا مُبرِّرَ للفصلِ بينهما في حِسِّ المؤمنِ وفي تصوُّرِهِ؛ وهذا هو التصورُ الصحيحُ الذي يُنْشِئُهُ القرآنُ في النفسِ حين تعيشُ في ظِلَالِ القرآنِ، إنَّ الإيمانَ باللهِ، وعبادتَهُ على استقامةٍ، وإقرارَ شريعتِهِ في الأرضِ؛ كلُّها إنفاذٌ لِسُنَنِ اللهِ.

وهي سُنَنٌ ذاتُ فاعليةٍ إيجابيةٍ، نابعةٌ من ذاتِ المنبعِ الذي تَنْبَثِقُ منه سائرُ السننِ الكونيةِ التي نرى آثارَها الواقعيةَ بِالحِسِّ والاختبارِ.

ولقد تَأْخُذُنا في بعضِ الأحيانِ مَظَاهِرُ خادعةٌ لافتراقِ السننِ الكونيةِ، حين نَرَى أنَّ اتباعَ القوانينِ الطبيعيةِ يؤدِّي إلى النجاحِ مع مخالفةِ القيمِ الإيمانيةِ، هذا الافتراقُ قد لا تظهرُ نتائجُهُ في أولِ الطريقِ،

ولكنَّها تظهرُ حتمًا في نهايتِهِ؛ وهذا ما وقَعَ للمجتمعِ الإسلاميِّ نفسِهِ؛ لقد بدَأَ خَطُّ صعودِهِ مِنْ نقطةِ التقاءِ القوانينِ الطبيعيةِ في حياتِهِ مع القيمِ الإيمانيةِ، وبَدأَ خَطُّ هبوطِهِ مِنْ نقطةِ افتراقهما، وظَلَّ يَهْبِطُ ويهبطُ كلما انفرَجَتْ زاويةُ الافتراقِ حتى وصَلَ إلى الحضيضِ عندَما أَهْمَلَ السننَ الطبيعيةَ والقِيَمَ الإيمانيةَ جميعًا.

وفي الطَّرَفِ الآخَرِ تَقِفُ الحضارةُ الماديةُ اليومَ؛ تَقِفُ كالطائرِ الذي يَرِفُّ بِجَنَاحٍ واحدٍ جَبَّارٍ، بينما جناحُهُ الآخرُ مَهِيضٌ، فيرتقي في الإبداعِ المَادِّيِّ بقدرِ ما يَرْتَكِسُ في المعنى الإنسانيِّ، ويعاني من القَلَقِ والحيرةِ والأمراضِ النفسيةِ والعصبيةِ ما يَصْرُخُ منه العُقَلاءُ هناك؛ لولا أنهم لا يهتدون إلى منهجِ اللهِ، وهو وَحْدَهُ العِلَاجُ والدَّوَاءُ.

إنَّ شريعةَ اللهِ للناسِ هي طَرَفٌ من قانونِهِ الكليِّ في الكونِ؛ فإنفاذُ هذه الشريعةِ لا بُدَّ أن يكونَ له أثرٌ إيجابيٌّ في التنسيقِ بين سِيرَةِ الناسِ وسيرةِ الكَوْنِ؛ والشريعةُ إنْ هي إلَّا ثمرةُ الإيمانِ لا تقومُ وَحْدَها بغيرِ أصلِها الكبيرِ، فهي موضوعةٌ لتنفَّذَ في مجتمعٍ مسلمٍ، كما أنها موضوعةٌ لِتُسَاهِمَ في بناءِ المجتمعِ المسلمِ، وهي متكاملةٌ مع التصوُّرِ الإسلاميِّ كُلِّهِ للوجودِ الكبيرِ وللوجودِ الإنسانيِّ، ومع ما يُنْشِئُهُ هذا التصوُّرُ مِنْ تَقْوَى في الضميرِ، ونظافةٍ في الشعورِ، وضخامةٍ في الاهتماماتِ، ورِفْعةٍ في الخَلْقِ، واستقامةٍ في السلوكِ؛ وهكذا يبدو التكاملُ والتناسقُ بين سُنَنِ اللهِ كلِّها؛ سواءٌ ما نسمِّيه القوانينَ الطبيعيةَ، وما نسمِّيه القِيَمَ الإيمانيةَ؛ فكلُّها أطرافٌ من سُنَّةِ اللهِ الشاملةِ لهذا الوجودِ.

والإنسانُ كذلك قوةٌ من قُوَى الوجودِ، وعملُهُ وإرادتُهُ، وإيمانُهُ وصلاحُهُ، وعبادتُهُ ونشاطُهُ، هي كذلك قُوًى ذاتُ آثارٍ إيجابيةٍ في هذا

الوجودِ؛ وهي مرتبطةٌ بِسُنَّةِ اللهِ الشاملةِ للوجودِ؛ وكلُّها تَعْمَلُ متناسقةً، وتعطي ثِمَارَها كاملةً حين تَتجمَّعُ وتَتناسَقُ، بينما تَفْسُدُ آثارُها وتضطربُ، وتَفْسُدُ الحياةُ معها، وتنتشرُ الشِّقْوةُ بين الناسِ والتعاسةُ حين تَفْترِقُ وتَتصادَمُ:

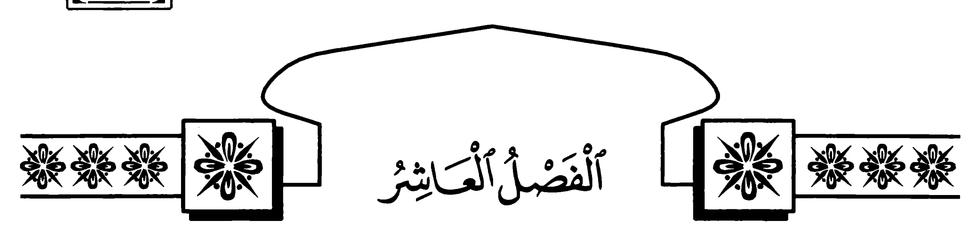
﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣].

فالارتباطُ قائمٌ وثيقٌ بين عملِ الإنسانِ وشعورِهِ، وبين مَاجَرَياتِ الأحداثِ في نِطَاقِ السُّنَّةِ الإلـٰهيةِ الشاملةِ للجميعِ.

ولا يوحي بتمزيقِ هذا الارتباطِ، ولا يدعو إلى الإخلالِ بهذا التناسقِ، ولا يَحُولُ بين الناسِ وسُنَّةِ اللهِ الجاريةِ ـ إلَّا عدوٌّ للبشريةِ يُطَارِدُها دون الهُدَى، وينبغي لها أنْ تُطَارِدَهُ وتُقْصِيَهُ مِنْ طريقِها إلى ربِّها الكريم»[١].



(١) «في ظلال القرآن» (١/١٦ فما بعد).
وقد نقلته هنا ـ رُغْمَ طوله ـ لنفاسته.



الفَصْلُ العَاشِرُ

انْحِرَافُ الإِبْدَاعِ عَنْ مَسَارِهِ الصَّحِيحِ

إنَّ هنالكَ أمورًا قد تَسِيرُ بالعملِ الإبداعيِّ إلى نهايةٍ مُؤْلِمةٍ أو غيرِ حميدةٍ، وهي أمورٌ كثيرةٌ يَجْمَعُها شيئان: الإضرارُ بالنَّفْسِ، أو الإضرارُ بالغيرِ؛ وأكتفي هنا بِضَرْبِ مثالٍ واحدٍ لكلٍّ منهما:

* **الإضرارُ بِالنَّفْسِ:** مِثْلُ الإبداعِ في مجالِ العلومِ التي يعودُ ضَرَرُها على النفسِ؛ كالفَلْسَفةِ ـ لا سيَّما الإلـٰهيّةُ منها ـ مثلًا.

وليس المحذورُ هو دِرَاسَتُها لِنَقْدِها وإظهارِ عَوَارِها، كَلَّا؛ وإنَّما المحذورُ هو حُبُّها والتعلُّقُ بها، والاقتناعُ بما فيها؛ فإنَّ هذا أمرٌ خطيرٌ، ربَّما عاد على الإنسانِ بالحَيْرةِ والاضطرابِ ـ كما حصَلَ لجماعةٍ من العُلَماءِ تَقدَّمَ ذِكْرُ بَعْضِهم[1] ـ وربَّما أدَّى به ذلك إلى الكفرِ والشَّكِّ؛ والعياذُ باللهِ... ولهذا حَذَّرنا النبيُّ ﷺ من هذا المسلكِ؛ فقال: (**تَفكَّرُوا في آلَاءِ اللهِ، وَلَا تَفكَّرُوا في اللهِ ﷻ**)، وفي لفظٍ: (**تَفكَّرُوا في خَلْقِ اللهِ، وَلَا تَفكَّرُوا في اللهِ**)[2]، وقد تقدَّم الكلامُ على العقلِ ومكانتِهِ الحقيقيَّةِ في

---

(١) **انظر:** العنصر الخامس من الفصل السادس.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٧/ ١٧١ ـ ١٧٢) (٦٣١٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٣٥٨) (١١٩)، وغيرهما، والحديث حسَّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١/ ٣٩٥) (١٧٨٨).

الإسلام عندَ الكلامِ على أُسُسِ الإبداعِ العلميِّ بما يغني عن إعادةِ الكلامِ عليه هنا.

وقد نبَّه شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ إلى أنَّ كثيرًا من الطُّلَّابِ مالوا إلى عِلْمِ الكلامِ والفَلْسَفَةِ يَظُنُّونَهُ عِلْمًا، وهو ليس كذلك[١].

* **الإضرارُ بِالغَيْرِ**: سواءٌ أكانتِ الأضرارُ معنويَّةً أم ماديَّةً:

فالمعنويةُ: كابتداعِ الأفكارِ المُضِلَّةِ ونَشْرِها بين الناسِ.

والماديةُ: مثلُ اختراعِ أسلحةِ الدَّمَارِ الشاملِ[٢]، التي تأتي على الأخضرِ واليابسِ، وتَقْتُلُ المُقَاتِلَةَ وغيرَ المُقَاتِلَةِ[٣].

---

(١) **انظر**: «الاستقامة» (١/ ٧٩).

(٢) **أسلحة الدمار الشامل**: تشملُ الأسلحة الكيميائية، والبيولوجية، والنووية بأنواعها الثلاثة: القنبلة الانشطارية، والاندماجية، والنيترونية.
وتنقسم باعتبار تأثيرها قسمَيْن رئيسَيْن:
القسم الأول: الأسلحة الاستراتيجية ذات القوة التدميرية الهائلة.
القسم الثاني: الأسلحة التكتيكية ذات القوة التدميرية المحدودة.

(٣) هذا مِنْ حيثُ الأصلُ، أمَّا مِنْ حيثُ الاستخدامُ أو الترهيبُ، ففيه تفصيل؛ ففي بحثٍ محكَّم بهذا الخصوص خلَصَ الباحث إلى أنه يمكن للدولة الإسلامية أن تنتج وتطوِّر النوع الأول لغرض الردع والتوازن مع العدو؛ انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ...﴾ الآية [الأنفال: ٦٠].
كما يمكن للدولة أن تستخدم هذه الأسلحة إذا استَخْدَمَهَا العدو، أو غلب على الظن أنه يوشك على استخدامها؛ عملًا بمبدأ المعاملة بالمثل.
وأما النوع الثاني: فيمكن استخدامه ضد قواعد العدو وحصونه؛ وذلك لأنَّ آثارها التدميرية لا تتعدَّى إلى غير المحاربين، وبشكلٍ عامٍّ يخضعُ إنتاج هذه الأسلحة واستخدامها لمبدأ المصلحة والضرورة وطبيعة الظروف القائمة.
انظر: «أسلحة الدمار الشامل وأحكامها في الفقه الإسلامي» للدكتور عبد المجيد بن محمود الصلاحين، مجلة الشريعة والقانون ـ العدد ٢٣ ـ (١٤٢٦هـ)، الجامعة الأردنية.

أرسَلَ (آيْنِشْتَايْن) صاحبُ نظريةِ النِّسْبيَّةِ ـ وهو ذو عَقْليَّةٍ جَبَّارةٍ، لكنه استَخْدَمَ عَقْلَهُ في الإضرارِ بالناسِ ـ رسالةً إلى الرئيسِ (رُوزْفِلْت) في خريفِ عامِ (١٩٣٩م)، يُبيِّنُ فيها إمكانيةَ صُنْعِ قُنْبلةٍ مُؤثِّرةٍ من عُنْصُرِ اليُورَانْيُوم، وبعدَ سِتِّ سنواتٍ ـ وبالتحديدِ في (٦ آب) من سنةِ (١٩٤٥م) ـ أُلْقِيَتْ أولُ قُنْبُلةٍ من هذا النوعِ على هِيرُوشِيما اليابانيةِ، ذهَبَ ضحيَّتَهَا ستون ألفًا، وجُرِحَ أكثرُ من مئةِ ألفِ شخصٍ، وأصبح مئتا ألفٍ بلا مَأْوًى![1].

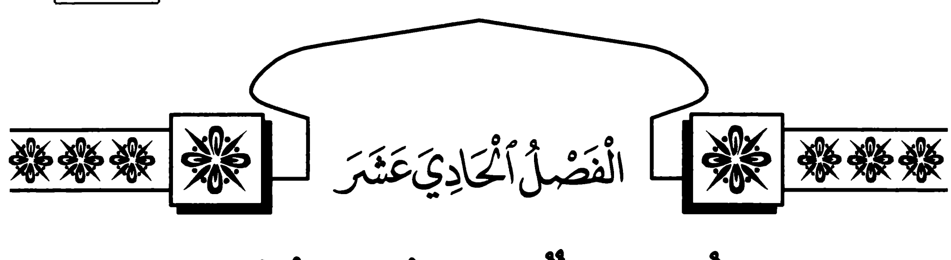
ولقد أحسن القائلُ[2]:

كَانَتْ نِهَايَتُهُ بِالوَيْلِ حَافِلَةً ... فِيهَا لِمَا مَرَّ مِنْ أَخْطَائِهِ ثَمَنُ
وَكَانَ فِيهِ ذَكَاءٌ خَارِقٌ طَلَعَتْ ... ثِمَارُهُ نَفَثَاتٍ قَصْدُهَا الْفِتَنُ
ضَلَّ الطَّرِيقَ وَلَوْ صَحَّتْ خَوَاطِرُهُ ... لَأَحْرَزَ الخَيْرَ مِنْهَا الأَهْلُ وَالوَطَنُ
الْعَبْقَرِيَّةُ مَاءٌ حِينَ تَحْصُرُهُ ... تُرْوَى الحُقُولُ بِهِ أَوْ تُمْحَقُ المُدُنُ!



(١) «عباقرة العلم» لفيليب كين، ترجمة: أديب يوسف (ص٢٩٥).

(٢) «رباعيّات مختارة» لإلياس قنصل (ص١١٥).



الْفَصْلُ الْحَادِيَ عَشَرَ

نُجُومٌ سَاطِعَةٌ فِي سَمَاءِ الْإِبْدَاعِ الْعِلْمِيِّ

هؤلاءِ النجومُ هم قُلٌّ مِنْ كُثْرٍ، ووَشَلٌ من بَحْرٍ، مِنَ المُبْدِعِينَ المتميِّزينَ الذين يَحْفِلُ بهم تاريخُنا الإسلاميُّ المَجيد، ولم أُرِدِ الاستقصاءَ هنا، وإنما أَرَدتُّ أنْ يَقِفَ المهتمُّ بهذا الأمرِ على طَرَفٍ من أحوالِ هؤلاءِ المُبْدِعِينَ وأخبارِهم؛ عَلَّ ذلك يكونُ دافعًا له لِيترسَّمَ سَبِيلَهم، ويَسْلُكَ طَرِيقَهم، لا سيَّما في هذا الوقتِ الذي يعيشُ فيه كثيرٌ من الشبابِ المسلمِ أزمةَ تَبَعِيَّة، وفِقْدانَ هُوِيَّة، بعدَ أن ضَلَّتْ بَوْصَلَتُهم عن نجومِ الأُمَّةِ الحقيقيِّينْ، إلى أناسٍ تافهينْ، يُسمَّوْنَ نجومًا وما هم بنجومْ، وإنَّما هم في حقيقةِ الأمرِ رُجُومْ! ويُنْظَرُ إليهم على أنهم مُبْدِعُونْ، والإبداعُ بِمَنْأًى عنهم بل هو عنهم أبعدُ ما يكونْ!

وأَشَدُّ مِنْ هذا وأَمَضّ: مَنْ كان مصابًا منهم بِعُقْدةِ النَّقْص؛ فولَّى وَجْهَهُ شَطْرَ بلادِ الكفرِ، ينظُرُ إليها نظرةَ إكبارٍ، ويأخُذُ منها كلَّ شيءٍ؛ خَيْرَها وشَرَّها، حُلْوَها ومُرَّها، ما يُحْمَدُ منها وما يُعَابُ، وما يُمْدَحُ منها وما يُذَمُّ!![1].

وأَشْنَعُ منه مذهبًا: مَنْ رَضِيَ لنفسِهِ القِسْمَةَ الضِّيزَى؛ فأَخَذَ الثانيةَ دُونَ الأولى! **ولقد أحسَنَ مَنْ قال**[2]:

---

(١) كما قال الدكتور طه حسين من قبلُ!

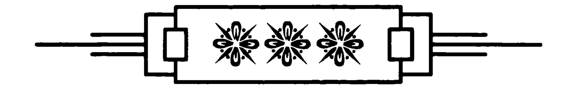
(٢) «رباعيَّات مختارة» لإلياس قنصل (ص٢٢).

حَتَّامَ نَسْتَعْطِي الغَرِيبَ دُرُوسَهُ ... وَتُرَاثُنَا أَسْمَى الَّذِي في دَرْسِهِ
نَخْشَى مَنَاهِلَنَا وَنَرْفُضُ رِفْدَهَا ... مُتَهَافِتِينَ عَلَى ثُمَالَةِ كَأْسِهِ
إِنَّا طَرَدْنَا الأَجْنَبِيَّ وَلَمْ نَزَلْ ... بِعُقُولِنَا وَقُلُوبِنَا في حَبْسِهِ
وَالشَّعْبُ لَا يَتَرَكَّزُ اسْتِقْلَالُهُ ... حَتَّى يُحَرِّرَ نَفْسَهُ مِنْ نَفْسِهِ!

وأُحِبُّ أنْ أُشِيرَ هنا إلى أنَّ بعضَ مَنْ سَيَرِدُ ذِكْرُهم في المُبْدِعِينَ، قد يكونُ عليه بعضُ المُؤَاخَذَاتِ في عقيدتِهِ، أو نهجِهِ، أو سلوكِهِ، لكنَّ مَكْمَنَ إبداعِهِ وتفوُّقِهِ بِمَعْزِلٍ عن تلك المُؤَاخذاتِ التي أُخِذَتْ عليه ـ في الغالبِ ـ ومِنْ هنا فلا ضَيْرَ من ذِكْرِهِ في المبدعينَ ما دامتِ الجهةُ منفكَّةً، فليُنْتَبَهْ لذلك.

هذا؛ وقد قُمْتُ بترتيبِ هؤلاءِ المُبْدِعِينَ على حَسَبِ تواريخِ وَفَيَاتِهم؛ واللهُ المُوفِّقُ.





الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ الْفَرَاهِيدِيُّ

(ت ١٧٤ هـ)

مِنْ أذكياءِ العَالَمِ، وعباقرةِ الدنيا، أَبْدَعَ أمورًا عِدَّةً لم يُسْبَقْ إليها، فمن ذلك:

* **علمُ العَرُوضِ**: فقد اتَّفَقَ العلماءُ قاطبةً على أنه هو الذي ابتَدَعَ هذا الفَنَّ دُونَ سابقِ مِثَالٍ؛ **قال حَمْزَةُ الأَصْبَهانيُّ**: «إنَّ دولةَ الإسلامِ لم تُخْرِجْ أبدعَ للعلومِ ـ التي لم تَكُنْ لها أصولٌ عندَ علماءِ العربِ ـ مِنَ الخليلِ، وليس على ذلك بُرْهانٌ أَوْضَحُ من عِلْمِ العَرُوضِ، الذي لا عن حَكِيمٍ أَخَذَهُ، ولا على مثالٍ تَقدَّمَهُ احتذاه، وإنَّما اختَرَعَهُ مِنْ مَمَرٍّ له بالصَّفَّارِينَ مِنْ وَقْعِ مِطْرَقةٍ على طَسْتٍ[1]، ليس فيهما حُجَّةٌ ولا بيانٌ يؤدِّيان إلى غيرِ حِلْيَتِهما، أو يُفْسِدَانِ عَيْنَ جَوْهَرِهما، فلو كانتْ أيامُهُ قديمةً، ورسومُهُ بعيدةً، لَشَكَّ فيه بعضُ الأممِ؛ لِصَنْعَتِهِ ما لم يَصْنَعْهُ أحدٌ منذُ خَلَقَ اللهُ الدنيا مِنِ اختراعِهِ العلمَ الذي قَدَّمْتُ ذِكْرَهُ»[2].

---

(١) لا تَسْتَغْرِبْ هذا؛ فإنَّ عِكْرِمة مولى ابن عباس **كان يقول**: «إنِّي لأَخْرُجُ إلى السوق، فأَسْمَعُ الكَلمةَ يَتكلَّمُ بها الرجل، فيُفْتَحُ لي بها في العلم خمسون بابًا!!».
«الطبقات الكبرى» لابن سعد (٢/ ٣٨٥)، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (٤١/ ٩٢)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٧/ ١٧٦)، و«المحاضرات والمحاورات» للسيوطي (ص٧٠).

(٢) «التنبيه على حدوث التصحيف» (ص١٢٤).

وقيل: إنَّ معرفتَهُ بِالنَّغَمِ والإيقاعِ هي التي دَلَّتْهُ على هذا العلمِ.

وهناك روايةٌ باطلةٌ تقولُ: إنَّ الذي دَفَعَهُ لذلك هو الحَسَدُ لِسِيبويْهِ؛ لأنَّه اشتَهَرَ بالنحوِ، فأرادَ هو أَنْ يَشْتَهِرَ بالعَرُوضِ، حتى نظَمَ بَعْضُهم ذلك **فقال**[1]:

عِلْمُ الخَلِيلِ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْه ... سَبَّبَهُ مَيْلُ الوَرَى لِسِيبَوَيْه!
فَخَرَجَ الإِمَامُ يَسْعَى لِلْحَرَمْ ... يَسْأَلُ رَبَّ البَيْتِ مِنْ فَيْضِ الكَرَمْ
فَزَادَهُ عِلْمَ العَرُوضِ فَانْتَشَرْ ... بَيْنَ الوَرَى فَأَقْبَلَتْ لَهُ البَشَرْ

وهذا كلامٌ غيرُ صحيحٍ، يَرُدُّهُ واقعُ الخليلِ نفسِهِ؛ فإنَّه كان قانعًا زاهدًا **حتى إنَّه كان يقولُ**: «إِنِّي أُغْلِقُ البابَ على نَفْسِي، فما يَتَجَاوَزُهُ هَمِّي[2]!».

وقال النَّضْرُ بنُ شُمَيْلٍ: «أقام الخليلُ بنُ أحمدَ في خُصٍّ بالبَصْرةِ، ولا يَقْدِرُ على فَلْسَيْنِ، وتلامذتُهُ يَكْسِبُونَ بعلمِهِ الأموالَ[3]!».

كما أنَّ الخليفةَ سُلَيْمانَ بنَ عبدِ الملكِ قد طَلَبَهُ لِيُرَبِّيَ أولادَهُ، **فقالَ أبياتًا مشهورةً منها**[4]:

أَبْلِغْ سُلَيْمَانَ أَنِّي عَنْهُ فِي سَعَةٍ ... وَفِي غِنًى غَيْرَ أَنِّي لَسْتُ ذَا مَالِ

* **عِلْمُ المُعْجمِ**: فإنَّه أرادَ حَصْرَ الكلماتِ العربيةِ في كتابٍ خاصٍّ على ترتيبٍ لم يُسْبَقْ إليه، وهو مَخَارِجُ الحُرُوفِ حَسَبَ نظامِ التَّقْلِيبِ؛

---

(١) «ميزان الذهب» (ص٣).
(٢) **ينظر**: «إنباه الرواة على أنباه النحاة» (١/ ٣٨٠).
(٣) **ينظر**: «إنباه الرواة على أنباه النحاة» (١/ ٣٨٠)، «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» (١/ ٥٥٨).
(٤) **ينظر**: «معجم الأدباء» (٣/ ٣٠٢)، «إنباه الرواة على أنباه النحاة» (١/ ٣٧٩).

فقسَّم الحروفَ إلى مجموعاتٍ، وابتدَأَها بالحروفِ الحَلْقيَّةِ، وابتَدَأَ الحَلْقِيَّةَ منها بحرفِ العَيْنِ؛ ولهذا سَمَّى كتابَهُ (العَيْن)، وانتهى بكتابِ الميمِ الذي هو آخرُ الحروفِ الشَّفَوِيَّةِ.

قال حمزةُ الأصبهانيُّ معدِّدًا إبداعاتِهِ سوى العروضِ: «ومِنْ تأسيسِهِ: بناءُ كتابِ (العينِ) الذي يَحْصُرُ فيه لغةَ كُلِّ أمةٍ من الأممِ قاطبةً، ثُمَّ مِنْ إمدادِهِ سِيبَوَيْهِ في علمِ النحوِ بما صنَّف كتابَهُ الذي هو زينةٌ لدولةِ الإسلامِ»[1].

* **علمُ الحِسَابِ**: فقد أرادَ تقريبَهُ للعامَّةِ، وأَخَذَ على نفسِهِ تسهيلَ هذا العِلْمِ للبُسَطاءِ؛ بحيثُ تَذْهَبُ الجاريةُ إلى البَقَّالِ، فلا يَظْلِمُها مِنْ مالِها شيئًا!

وكان تفكيرُهُ في هذه المسألةِ سببَ مَوْتِهِ؛ فإنه كان يُفكِّرُ في هذه المسألةِ وهو داخل المسجد، فاصطَدَمَ ببعضِ سواري المسجدِ؛ فارتَجَّ مُخُّهُ، وكان ذلك سببَ موتِهِ! رحمه الله رحمةً واسعةً.

رُوِيَ أنه اجتَمَعَ بابنِ المُقفَّعِ، فتذاكَرَا ليلةً تامَّةً، فلمَّا افتَرَقَا، سُئِلَ ابنُ المقفَّعِ عن الخليلِ، **فقال**: «رأيتُ رجلًا عَقْلُهُ أَكْثَرُ مِنْ علمِهِ[2]!».

وكان الناسُ يقولون: لم يَكُنْ في العَرَبِ بعدَ الصحابةِ أذكى من الخليلِ بنِ أَحْمَدَ ولا أَجْمَعَ، ولا كان في العجمِ أذكى مِنِ ابنِ المقفَّعِ ولا أجمعَ.

---

(١) «التنبيه على حدوث التصحيف» (ص١٢٤).

(٢) **ينظر**: «إنباه الرواة على أنباه النحاة» (١/ ٣٨٠).

ومما يَدُلُّ على فَرْطِ ذكائِهِ: أنه كان عندَ رَجُلٍ دواءٌ لِظُلْمةِ العينِ ينتفعُ به الناسُ، فمات وأَضَرَّ ذلك بِمَنْ كان يستعملُهُ، فقال الخليلُ بنُ أحمدَ: أَلَهُ نسخةٌ معروفةٌ؟ قالوا: لا، قال: فهل له آنيةٌ كان يَعْمَلُ فيها؟ قالوا: نعم، إناءٌ كان يَجْمَعُ فيه الأخلاطَ، فقال: جيئوني به، فجاؤوه به، فجعَلَ يَشَمُّهُ، ويُخْرِجُ نوعًا نوعًا حتى ذكَرَ خمسةَ عَشَرَ نوعًا، ثم سأَلَ عن جميعِها ومِقْدَارِها، فعرَفَ ذلك ممَّن يُعالِجُ مثلَهُ، فعَمِلَهُ وأعطاه الناسَ، فانتفعوا به مثلَ تلك المنفعةِ، ثُمَّ وُجِدَتِ النسخةُ في كتبِ الرَّجُلِ، فوجَدُوا الأخلاطَ ستةَ عشرَ خِلْطًا ـ كما ذكَرَ الخليلُ ـ لم يَفُتْهُ منها إلا خِلْطٌ واحدٌ[(١)]!

ومِمَّا يُروى أيضًا أنَّ مَلِكَ اليونانِ كتَبَ إلى الخليلِ كتابًا باليونانيةِ ـ وهو لا يَعْرِفُها ـ فخلا بالكتابِ شَهْرًا حتى فَهِمَهُ! فقيل له في ذلك، **فقال:** «إنَّه لا بُدَّ مِنْ أنْ يُفْتَحَ الكتابُ بـ«باسمِ الله»، أو ما أشبهه، فبَنَيْتُ أولَ حروفِهِ على ذلك، فاقتاسَ لي»[(٢)]!.

ومِنْ غُرَرِ كلامِهِ قولُهُ:

أَبْلِغَا عَنِّي المُنَجِّمَ أَنِّي ... كَافِرٌ بِالَّذِي قَضَتْهُ الكَوَاكِبْ
عَالِمٌ أَنَّ مَا يَكُونُ وَمَا كَا ... نَ قَضَاءٌ مِنَ المُهَيْمِنِ وَاجِبْ[(٣)]

وقال: «ثلاثةٌ تُنسيني المصائبَ: مَرُّ الليالي، والمرأةُ الحَسْناءُ، ومُحَادَثاتُ الرِّجَالِ»[(٤)].

---

(١) **ينظر:** «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» (١/ ٥٥٩).
(٢) **ينظر:** «طبقات النحويين واللغويين» (ص٥١).
(٣) «طبقات الشعراء» (ص٩٨) لابن المعتز.
(٤) **ينظر:** «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» (١/ ٥٥٩).

وقال: «زَلَّةُ العَالِمِ مضروبٌ بها الطَّبْلُ»[١].

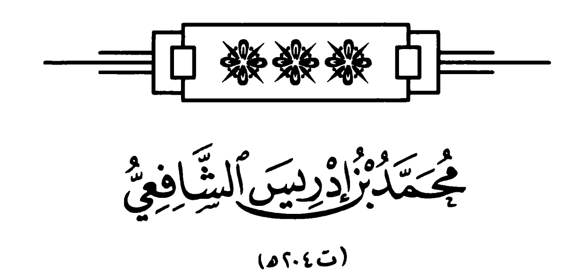
وقال: «لا يَعْرِفُ الرَّجُلُ خَطَأَ مُعلِّمِهِ حتى يُجَالِسَ غَيْرَهُ»[٢].



---

(١) **ينظر:** «ربيع الأبرار ونصوص الأخبار» (٤/ ٢٨).

(٢) **ينظر:** «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٤٣١).



مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيُّ

(ت٢٠٤هـ)

الإمامُ الجَبَل، والحَبْرُ المُجدِّد، كوكبُ العلماءِ اللامع، ونِبْراسُهُمُ الساطع، والذي يُرْجَعُ إليه في المُشْكِلات، ويُستَصْبَحُ بضوئِهِ في المُعْضِلات، أحدُ أذكياءِ الدنيا، وأفذاذِ الدَّهْر.

جمَعَ علمًا ما سُبِقَ إليه، وهو علمُ أصولِ الفقهِ متمثِّلًا في كتابِهِ «الرِّسالةِ» التي سارتْ مسيرَ الشَّمْس؛ **قال ابنُ خَلِّكانَ وغيرُهُ:** «الشافعيُّ أولُ مَنْ تكلَّمَ في أصولِ الفقهِ».

وقال أبو ثَوْرٍ: «كتَبَ عبدُ الرحمٰنِ بنُ مَهْدِيٍّ إلى الشافعيِّ، وهو شابٌّ، أن يَضَعَ له كتابًا فيه معاني القرآنِ، ويجمعَ قَبُولَ الأخبارِ فيه، وحجةَ الإجماعِ، وبيانَ الناسخِ والمنسوخِ مِنَ القرآنِ والسُّنَّةِ؛ فوضَعَ له كتابَ «الرسالةِ»».

وقد ظهَرَ نُبُوغُهُ منذُ صغرِهِ، فقرَأَ القرآنَ وهو ابنُ سبعِ سنينَ، وحَفِظَ «الموطَّأَ» وهو ابنُ عَشْرٍ! فقَدِمَ على مالكِ بنِ أنسٍ، فقال له: أَحْضِرْ مَنْ يقرأُ لك، فقلتُ: أنا قارئٌ، فقرَأَ عليه «الموطَّأَ» حفظًا، فقال: إنْ يكُ أحدٌ يُفْلِحُ فهذا الغلامُ! وأفتى وهو ابنُ خَمْسَ عَشْرةَ سنةً، وقيلَ: ابنُ ثمانيَ عَشْرةَ سنةً، أَذِنَ له بذلك شيخُهُ مسلمُ بنُ خالدٍ الزَّنْجيُّ.

قال أبو ثَوْرٍ: «مَنْ قال: إنه رأى مثلَ الشافعيِّ في علمِهِ وفصاحتِهِ، ومعرفتِهِ وبيانِهِ وتمكُّنِهِ، فقد كَذَبَ!».

وقال الإمامُ أحمدُ: «قد روى أبو هُرَيْرةَ عن النبيِّ ﷺ؛ أنه قال: (**يَبْعَثُ اللهُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِئَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**)؛ قال أحمدُ: فنَظَرْنا في رأسِ المئةِ الأولى، فإذا هو عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ، ونظرنا في الثانيةِ، فإذا هو الشافعيُّ».

وقال هارونُ بنُ سعيدٍ الأَيْليُّ: «لو أنَّ الشافعيَّ ناظَرَ على هذا العمودِ الذي هو مِنْ حِجَارةٍ أنه مِنْ خَشَبٍ، لَغَلَبَ؛ لاقتدارِهِ على المناظرةِ».

وكان الزَّعْفَرانيُّ يقولُ: «كان أصحابُ الحديثِ رقودًا، حتى جاء الشافعيُّ، فأيقَظَهُمْ، فتيقَّظوا!».

وقال ابنُ خَلِّكانَ: «كان الشافعيُّ كثيرَ المناقبِ، جمَّ المفاخرِ، مُنْقَطِعَ القَرِينِ، اجتَمَعَ فيه من العلومِ بكتابِ اللهِ وسُنَّةِ الرسولِ ﷺ، وكلامِ الصحابةِ ﷺ وآثارِهم، واختلافِ أقاويلِ العلماءِ، وغيرِ ذلك من معرفةِ كلامِ العربِ واللغةِ والعربيةِ والشعرِ ـ حتى إنَّ الأصمعيَّ مع جَلَالةِ قَدْرِهِ في هذا الشأنِ قرَأَ عليه أشعارَ الهُذَلِيِّينَ ـ ما لم يَجْتَمِعْ في غيرِهِ.

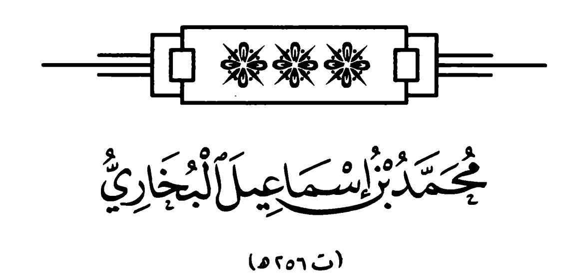
وقال الربيعُ: كنا جلوسًا في حَلْقةِ الشافعيِّ بعدَ موتِهِ بيسيرٍ، فوقَفَ علينا أعرابيٌّ، وقال: أين قَمَرُ هذه الحَلْقةِ وشَمْسُها؟ قلنا: تُوفِّيَ، فبكى بُكَاءً شديدًا، وقال: رَحِمَهُ اللهُ وغفَرَ له! فلقد كان يَفْتَحُ ببيانِهِ مُغْلَقَ الحُجَّهْ، ويَسُدُّ على خَصْمِهِ واضحَ المَحَجَّهْ، ويَغْسِلُ من العارِ وجوهًا

مُسْوَدَّهْ، ويُوَسِّعُ بالرأيِ أبوابًا منسدَّهْ، ثم انصَرَفَ»[(١)].



---

(١) **انظر**: «تاريخ بغداد» للخطيب (٢/ ٥٦)، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان (٤/ ١٦٣)، و«الوافي بالوفيات» للصفدي (٢/ ١٧١)، و«السير» للذهبي (١٠/ ٥)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١٠/ ٢٥١).



مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيُّ

(ت ٢٥٦هـ)

بَحْرُ العلمِ الزاخر، وبَدْرُ العُلَماءِ الزاهر، أميرُ المؤمنين في الحديثِ، وأُستاذُ الأُستاذِينَ فيه، مُصنِّفُ «الجامعِ الصحيحِ» الذي ما طرَق العالَمَ كتابٌ أَفْخَمُ تصنيفًا، ولا أَدَقُّ وضعًا، ولا أَلْطَفُ مأخذًا منه؛ وهو أصحُّ كتابٍ بعدَ كتابِ اللهِ تبارك وتعالى.

جمَعَ فيه بين الوَحْيَيْنِ، وما سبَقَهُ ـ فيما أعلمُ ـ إلى ذلك أحدٌ، واستَخْرَجَ منهما المسائلَ والدقائقَ والنفائسَ، بما حَيَّرَ الألبابَ، وأَذْهَلَ العقولَ، ولا يُوجَدُ كتابٌ في السُّنَّةِ اعتنى به العلماءُ كما اعتَنَوْا بهذا الكتابِ، حتى إنَّ بعضَ المُعاصِرِينَ أَلَّفَ مجلَّدًا ضخمًا ذكَرَ فيه الكُتُبَ التي أُلِّفَتْ على «الصحيحِ»، فقارَبَتْ أربعَ مئةٍ![1].

قال البخاريُّ: «ما وضَعْتُ في الصحيحِ حديثًا إلا اغتَسَلْتُ قبلَ ذلك، وصَلَّيْتُ ركعتَيْن، وقال: أخرَجْتُ هذا الكتابَ من نحوِ ستِّ مئةِ ألفِ حديثٍ، وصَنَّفْتُهُ في سِتَّ عَشْرةَ سنةً، وجعلتُهُ حُجَّةً فيما بيني وبين الله تعالى».

وقال الفضلُ بنُ إسماعيلَ الجُرْجانيُّ:

صَحِيحُ البُخَارِيِّ لَوْ أَنْصَفُوهُ   لَمَا خُطَّ إِلَّا بِمَاءِ الذَّهَبْ

---

(١) هو كتاب «إتحاف القاري» لمحمد عصام الحسني.

أَسَانِيدُ مِثْلُ نُجُومِ السَّمَاءِ ... أَمَامَ مُتُونٍ كَمِثْلِ الشُّهُبْ
فَيَا عَالِمًا أَجْمَعَ العَالِمُونَ ... عَلَى فَضْلِ رُتْبَتِهِ فِي الرُّتَبْ
نَفَيْتَ السَّقِيمَ مِنَ النَّاقِلِينَ ... وَمَنْ كَانَ مُتَّهَمًا بِالكَذِبْ
وَأَثْبَتَّ مَنْ عَدَّلَتْهُ الرُّوَاةُ ... وَصَحَّتْ رِوَايَتُهُ فِي الكُتُبْ
وَأَبْرَزْتَ مِنْ حُسْنِ تَرْتِيبِهِ ... وَتَبْوِيبِهِ عَجَبًا لِلْعَجَبْ

وقال محمدُ بنُ يوسفَ البُخَاريُّ: «كنتُ عندَ محمدِ بنِ إسماعيلَ البخاريِّ بمنزلِهِ ذاتَ ليلةٍ، فأحصَيْتُ عليه أنه قام وأَسْرَجَ يَسْتَذْكِرُ أشياءَ يُعَلِّقُها في ليلةٍ ثمانيَ عَشْرةَ مرةً!».

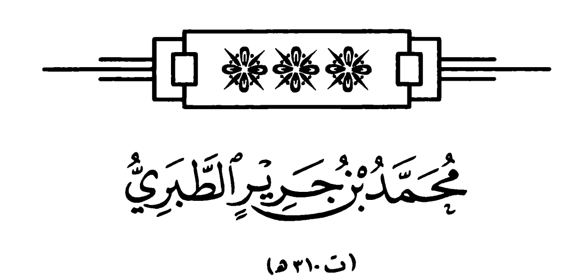
وقال موسى بنُ هارونَ الحَمَّالُ: «لو أنَّ أهلَ الإسلامِ اجتَمَعُوا على أن يَنْصِبوا مثلَ محمدِ بنِ إسماعيلَ آخَرَ، ما قَدَرُوا عليه!».

وقال نُعَيْمُ بنُ حَمَّادٍ: «محمدُ بنُ إسماعيلَ فقيهُ هذه الأمةِ».

والحاصلُ: أن أخبارَهُ كثيرةٌ مشهورةٌ فلا نطيل[١].



(١) **انظر**: «تاريخ بغداد» للخطيب (٢/ ٤)، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان (٤/ ١٨٨)، و«تهذيب الكمال» للمزي (٢٤/ ٤٣٠)، و«تذكرة الحفاظ» للذهبي (٢/ ٥٥٥).



مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ

(ت ٣١٠هـ)

شيخُ المفسِّرينَ الإمامْ، وصاحبُ التصانيفِ العِظَامْ.

له «جامعُ البيانْ، عن تأويلِ آيِ القرآنْ»، أجلُّ التفاسيرِ وأجمعُها، وأحسنُها وضعًا وأبدعُها، لم يُؤَلَّفْ مثلُهُ في التفسيرِ ـ كما ذكَرَ العلماءُ ـ لأنه جمَعَ فيه بين الروايةِ والدرايةِ أحسنَ جمعٍ، ولم يُقَارِبْهُ في ذلك أحدٌ.

قال أبو حامدٍ الإسفراييني: «لو رحَلَ رجلٌ إلى الصِّينِ في تحصيلِهِ، لم يَكُنْ كثيرًا».

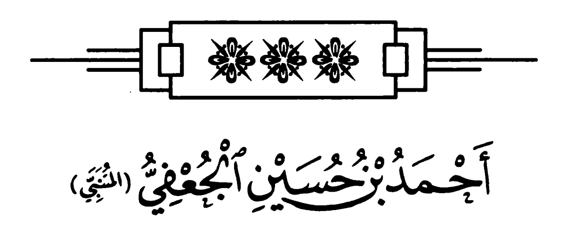
وقال الخطيبُ: «كان أحدَ الأئمَّةِ، يُحْكَمُ بقولِهِ ويُرْجَعُ إلى رأيِهِ؛ لمعرفتِهِ وفضلِهِ، جمَعَ مِنَ العلومِ ما لم يُشَارِكْهُ فيه أحدٌ من أهلِ عصرِهِ، فكان حافظًا لكتابِ اللهِ، بصيرًا بالمعاني، فقيهًا في أحكامِ القرآنِ، عالمًا بالسُّنَنِ وطُرُقِها صحيحِها وسقيمِها، ناسخِها ومنسوخِها، عارفًا بأقوالِ الصحابةِ والتابعينَ، بصيرًا بأيامِ الناسِ وأخبارِهم، له «تاريخُ الإسلامِ»، و«التفسيرُ» الذي لم يُصنَّفْ مثلُهُ».

ويقال: إنَّ الخليفةَ المُكْتَفِيَ أراد أنْ يُوقِفَ وَقْفًا تجتمعُ أقاويلُ العلماءِ على صِحَّتِهِ، ويَسْلَمُ من الخلافِ، فأجمَعَ علماءُ عصرِهِ على أنه لا يَقْدِرُ على ذلك إلا ابنُ جَرِيرٍ، فأُحْضِرَ فأَمْلَى عليهم كتابًا لذلك، فأُخْرِجَتْ له جائزةٌ سَنِيَّةٌ، فأبى أن يَقْبَلَها.

وقال الذهبيُّ: «الإمامُ العَلَمُ المجتهدُ، صاحبُ التصانيفِ البديعةِ، كان مِنْ أفرادِ الدَّهْرِ عِلْمًا وذَكَاءً وكَثْرَةَ تصانيفَ، قَلَّ أن ترى العيونُ مِثْلَهُ، كان رأسًا في التفسيرِ، إمامًا في الفقهِ والإجماعِ والاختلافِ، عَلَّامةً في التاريخِ وأيامِ الناسِ، عارفًا بالقراءاتِ وباللغةِ، وغيرِ ذلك»[1].



(١) **انظر ترجمته في**: «تاريخ بغداد» (٢/ ١٦٢)، و«وفيات الأعيان» (٤/ ١٩١)، و«السير» (١٤/ ٢٦٧)، و«طبقات المفسرين» للداودي (٢/ ١٠٦).



أَحْمَدُ بْنُ حُسَيْنٍ الْجُعْفِيُّ (المتنبي)

(ت ٣٥٤هـ)

الشاعرُ الحَكِيمُ، والباقعةُ[١] الفَحْلُ، مالئُ الدنيا وشاغلُ الناسِ، صاحبُ المعاني المُبتكرةِ، والأمثالِ السائرةِ، الذي طُوِّعَتْ له المعاني فأتى منها بالفائقِ الرائقِ الذي لم يُسبقْ إليه، والذي لا يوجد شاعر تجري أبياته على ألسنة الناس مثله!

وكان كثيرٌ من العُلَماءِ يَحْفَظُونَ دِيوَانَهُ، ويأخذونَهُ بالسماعِ، وعَدَّهُ نَفَرٌ من الباحثينَ أشعَرَ شُعَرَاءِ العربِ على الإطلاقِ؛ **ولهذا قال الثعالبيُّ عنه:** «نادرةُ الفَلَكِ، وواسطةُ عِقْدِ الدَّهْرِ في صناعةِ الشِّعْرِ».

وقال عنه الذهبيُّ: «شاعرُ الزمانِ»!

ولم يُكْتَبْ عن شاعرٍ مثلُ ما كُتِبَ عن هذا الشاعرِ؛ فقد جمَع بعضُهم مجلَّدًا ضخمًا في الكتبِ والدراساتِ التي تناوَلَتْهُ[٢].

وكلُّ مَن تَعرَّضَ له المتنبِّي بمدحٍ أو هِجَاءٍ، فقد خلَدَ على مَرِّ الزمنِ؛ منهم سَيْفُ الدَّوْلةِ في المدحِ، وكافورُ الإِخْشِيدِيُّ في الهِجاءِ؛ **ومما قيل فيه:**

مَا رَأَى النَّاسُ ثَانِيَ المُتَنَبِّي   أَيُّ ثَانٍ يُرَى لِبِكْرِ الزَّمَانِ؟!

---

(١) **الباقعة**: الرجل الداهية. «تاج العروس» (ب ق ع).

(٢) أفضل ما كُتِبَ عن المتنبي - حسب ذوقي -: كتاب «المتنبي» للعلامة محمود شاكر رحمه الله تعالى.

هُوَ فِي شِعْرِهِ تَنَبَّا وَلَكِنْ ظَهَرَتْ مُعْجِزَاتُهُ فِي المَعَانِي!

ومِنْ أبياتِهِ الذائعة، وحكمِهِ الرائعة، **قولُهُ**:

وَهَبْنِي قُلْتُ: هَذَا الصُّبْحُ لَيْلٌ أَيَعْمَى العَالَمُونَ عَنِ الضِّيَاءِ؟!

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنَا سَرْجُ سَابِحٍ وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ

وَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالعُلَا مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

وَلَا تَحْسَبَنَّ المَجْدَ زِقًّا وَقَيْنَةً فَمَا المَجْدُ إِلَّا السَّيْفُ وَالفَتْكَةُ البِكْرُ

كُلَّمَا جَادَتِ الظُّنُونُ بِوَعْدٍ عَنْكَ، جَادَتْ يَدَاكَ بِالإِنْجَازِ

إِنَّ السِّلَاحَ جَمِيعُ النَّاسِ تَحْمِلُهُ وَلَيْسَ كُلُّ ذَوَاتِ المِخْلَبِ السَّبُعُ

وَمَا بَلَدُ الإِنْسَانِ غَيْرُ المُوَافِقِ وَلَا أَهْلُهُ الأَدْنَوْنَ غَيْرُ الأَصَادِقِ

إِذَا اشْتَبَكَتْ دُمُوعٌ فِي خُدُودٍ تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى

وَالهَجْرُ أَقْتَلُ لِي مِمَّا أُرَاقِبُهُ أَنَا الغَرِيقُ فَمَا خَوْفِي مِنَ البَلَلِ!

وَكَمْ رِجَالٍ بِلَا أَرْضٍ لِكَثْرَتِهِمْ تَرَكْتَ جَمْعَهُمُ أَرْضًا بِلَا رَجُلِ

خَيْرُ أَعْضَائِنَا الرُّؤُوسُ وَلَكِنْ فَضَلَتْهَا بِقَصْدِكَ الأَقْدَامُ

وَلَوْلَا احْتِقَارُ الأُسْدِ شَبَّهْتُهَا بِهِمْ وَلَكِنَّهَا مَعْدُودَةٌ فِي البَهَائِمِ

إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا أَلَّا تُفَارِقَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمُ

يُعْطِيكَ مُبْتَدِئًا فَإِنْ أَعْجَلْتَهُ أَعْطَاكَ مُعْتَذِرًا كَمَنْ قَدْ أَجْرَمَا

قَاضٍ إِذَا الْتَبَسَ الأَمْرَانِ عَنَّ لَهُ رَأْيٌ يُخَلِّصُ بَيْنَ المَاءِ وَاللَّبَنِ!

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى المَوْتَ شَافِيَا وَحَسْبُ المَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا

لَوْلَا المَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ الجُودُ يُفْقِرُ وَالإِقْدَامُ قَتَّالُ

والحقُّ أنَّ شِعْرَ الحِكْمةِ وما جرى مجرى المَثَلِ في شعرِهِ كثيرٌ جدًّا؛ حتى لقد صُنِّفَتْ فيه مصنّفات مستقلّةٌ قديمًا وحديثًا.

ومِنْ لطيفِ شعرِهِ قولُهُ:

أَقِلْ أَنِلْ اقْطِعِ احْمِلْ عَلِّ سَلِّ أَعِدْ   زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفَضَّلْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ!

ويحكى أنَّ سَيْفَ الدولةِ أعجَبَهُ هذا البيتُ، فوقَّعَ بخطِّهِ تحتَ «أَقِلْ»: «أقلناك»، وتحت «أَنِلْ»: «يحملُ إليه كذا وكذا ألفَ درهمٍ»، وتحتَ «اقْطِع»: «أقطَعْنَاكَ الضيعةَ الفلانيةَ ببابِ حَلَبٍ»، وتحتَ «احمل»: «يقادُ إليه الفرسُ الفلانيةُ»، وتحتَ «علِّ»: «قد فَعَلْنا»، وتحتَ «سَلِّ»: «قد فعلنا فاسْلُ»، وتحتَ «أَعِدْ»: «أعدناكَ إلى حالِكَ مِنْ حُسْنِ رَأْيِنا»، وتحتَ «زِدْ»: «يُزادُ كذا وكذا»، وتحتَ «تَفضَّلْ»: «قد فعلنا»، وتحتَ «أَدْنِ»: «قد أدنيناك»، وتحتَ «سُرَّ»: «قد سررناك»، فقال أبو الطَّيِّبِ: إنما أردتُّ من التسريةِ! فأمرَ له بجاريةٍ! وتحتَ «صِلْ»: «قد فعلنا».

ولمَّا أنشدَ البيتَ رآهم يَعُدُّون ألفاظَهُ، فقال وزاد فيه:

أَقِلْ أَنِلْ أَنْ صُنِ احملْ عَلِّ سَلِّ أَعِدْ   زِدْ هَشَّ بَشَّ هَبِ اغْفِرْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ!

فرآهم يستكثرون الحروفَ، فقال:

عِشِ ابْقَ اسْمُ سُدْ قُدْ جُدْ مُرِ انْهَ رِ فِ اسْرِ نِلْ
غِظِ ارْمِ صِبِ احْمِ اغْزُ اسْبِ رُعْ زَعْ دِلِ اثْنِ نُلْ!
وَهَــذَا دُعَــاءٌ لَــوْ سَــكَــتُّ كُــفِــيــتُــهُ
لِأَنِّــي سَــأَلْــتُ الــلَّــهَ فِــيــكَ وَقَــدْ فَــعَــلْ

وهذا البيتُ هو الوحيدُ في العربيةِ ـ حسبَ عِلْمي ـ الذي اجتَمَعَ فيه هذا العددُ الكبيرُ من الكلماتِ؛ إذْ بلَغَ عَدَدُها فيه أربعًا وعشرينَ كلمةً!! وهذا ما لم يَقْدِرْ عليه غيرُهُ من الشعراءِ[1].

---

(١) حاول كثيرٌ من الشعراءِ أن يجمعوا أكبرَ عددٍ من الكلماتِ في بيتٍ واحدٍ، لكنَّهم =

والعجيبُ أنه لم يُعِدْ في البيتِ الأخيرِ أيَّ فعلٍ مِنَ الأفعالِ السابقةِ في البيتَيْنِ قبلَهُ!! وهذا يَدُلُّ على تمكُّنِهِ من اللغةِ، وأخذِهِ بناصيةِ المعجمِ[1].

❁ ❁ ❁

= عجزوا أن يَبُزُّوا المتنبيَ في بيتِهِ هذا، بل لم يقاربوه! فمِنْ ذلك **قولُ أبي العميثلِ الأعرابيِّ**:

أَصْدُقْ وَعِفَّ وَفُهْ وَأَنْصِفْ وَاحْتَمِلْ ... وَاصْفَحْ وَدَارِ وَكَافِ وَاحْلِمْ وَاشْجَعِ
وَالْطُفْ وَلِنْ وَتَأَنَّ وَاحْلُمْ وَاتَّئِدْ ... وَاحْزِمْ وَجُدَّ وَحَامِ وَاحْمِلْ وَادْفَعِ

وقولُ دِيكِ الجِنِّ:

أَحْلُ وَامْرُرْ وَضُرَّ وَانْفَعْ وَلِنْ وَاخْـ ... ـشَنْ وَرِشْ وَابْرِ وَانْتَدِبْ لِلْمَعَالِي

وقول أبي الفرج الأصبهاني:

إِسْلَمْ وَدُمْ وَابْقَ وَامْلِكْ وَانْمُ وَاسْمُ وَزِدْ ... وَأَعْطِ وَامْنَعْ وَضُرَّ انْفَعْ وَصَلِّ وَصِلْ

وقول ابن زَيْدون:

تِهْ إِحْتَمِلْ، وَاسْتَطِلْ إِصْبِرْ، وَعُزَّ أَهِنْ ... وَوَلِّ أَقْبِلْ، وَقُلْ أَسْمِعْ، وَمُرْ أَطِعِ

وقول صفي الدين الحِلِّيّ:

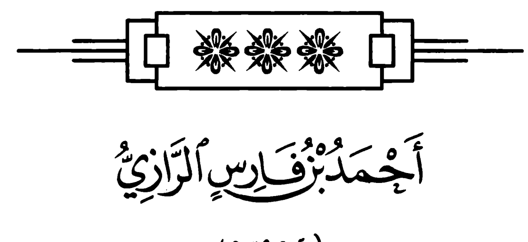
أَقْصِرْ أَطِلْ إِعْذِلِ اعْذِرْ سَلِّ خَلِّ أَعِنْ ... خنْ هَنِّ عَنِّ تَرَفَّقْ كُفَّ لِجَّ لُمِ

وقول ابن حِجَّة الحَمَوي:

خَشِّنْ أَلِنْ أَحْزِنَ افْرِحِ امْنَعَ اعْطِ أَنِلْ ... فَوَفِّ أَجْدِ ووَشِّ رَقِّقْ شُدَّ حُلَّ لُمِ

انظر: «جذوة المقتبس» للحميدي (ص١٣٠)، و«الحماسة المغربية» للتادلي (٢/ ١٠٥٠)، و«الذخيرة، في محاسن أهل الجزيرة» للشنتريني (١/ ٣٧٢)، و«المختار من شعر شعراء الأندلس» لابن الصيرفي (ص٣٦)، و«خزانة الأدب» لابن حجة الحموي (١/ ٢٤٧)، و«خريدة القصر» للأصبهاني (٢/ ٥٢)، و«تحرير التحبير» لابن أبي الإصبع العدواني (ص٢٦١).

(١) **انظر**: «يتيمة الدهر» للثعالبي (١/ ١١٠)، و«تاريخ بغداد» للخطيب (٤/ ١٠٢)، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان (١/ ١٢٠)، و«التبيان في شرح الديوان» المنسوب للعكبري (٣/ ٨٥ و٨٩)، و«السير» للذهبي (١٦/ ١٩٩)، و«المتنبي» لمحمود شاكر.



أَحْمَدُ بْنُ فَارِسٍ الرَّازِيُّ

(ت ٣٩٥هـ)

إمامُ اللُّغةِ، وشيخُ العربيةِ، وصاحبُ الاستقراءِ التامِّ والإبداعِ والتألُّقِ في فقهِ اللغةِ وأسرارِ العربيةِ.

وإذا ذُكِرَ ابنُ فارسٍ ذُكِرَ معه كتابُهُ الفريدُ مُعْجَمُ «مقاييسِ اللُّغَةِ»، الذي أَدَعُ الحديثَ عنه للأستاذِ عبدِ السلامِ هارون رحمه الله تعالى؛ **حيث قال عنه**: «مَفْخَرةٌ من مفاخرِ التأليفِ العربيِّ، بل يكادُ يكونُ الفَذَّ في نوعِهِ من بينِ المؤلَّفاتِ اللغويةِ في المحيطِ العربيِّ، إنْ لم يكنْ في المحيطِ اللغويِّ العالميِّ، فنحنُ لم نَعْلَمْ إلى الآنَ أنَّ مؤلَّفًا لغويًّا آخَرَ حاوَلَ أن يَدْرُسَ موادَّ اللغةِ في ظِلِّ القياسِ المُطَّرِدِ في معظمِ تلك الموادِّ... كما لم نَعْلَمْ ـ بعدَ الاستقصاءِ والبحثِ ـ أنَّ لغةً من لغاتِ العالمِ، كائنةً ما كانتْ، ظَفِرَتْ بمثلِ هذا التأليفِ المُبْتَدَعِ، في قديمِ الزمانِ ولا في حديثِهِ»[1].

وقال عنه في موضعٍ آخرَ: «إنَّ في التُّرَاثِ العربيِّ كثيرًا من المعجزاتِ الفريدةِ التي لم تَتكرَّرْ في عالمِ التأليفِ إلى الآنَ، فكتابُ «مقاييسِ اللُّغةِ» لابنِ فارسٍ يُعَدُّ فريدًا في بابِهِ؛ إذْ إنَّ ابنَ فارسٍ استطاعَ أنْ يَبْتَدِعَ نظريَّةً لُغَويةً دقيقةً تَتمثَّلُ في إرجاعِ كلِّ مادَّةٍ لُغَويَّةٍ من موادِّ

---

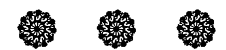
(١) «قطوف أدبية حول تحقيق التراث» (ص٢٠١ فما بعد).

المعجمِ إلى أصلٍ أو أصلينِ أو عِدَّةِ أصولٍ معنويةٍ، وقد يكونُ في المادةِ الواحدةِ مئاتُ الكلماتِ...»، ثُمَّ ضرَبَ مثلًا بمادة (رَبَعَ)، **فقال**: «إنَّ ابنَ فارسٍ أعادَهَا إلى ثلاثةِ أُصولٍ، بينما لو رجَعْنَا إلى «لسانِ العربِ»، لوجدناه يتناولُ هذه الكلمةَ في خمسَ عَشْرةَ صفحةً كاملةً، بحيثُ يَظُنُّ الرائي أنَّ هذه الكلمةَ لها مِئَاتُ الدَّلَالاتِ، وهي كُلُّها لا تَرْجعُ إلَّا إلى هذه المعاني الثلاثةِ أو الأربعةِ».

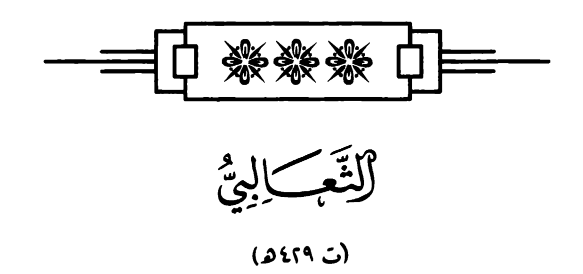
وله كتابٌ آخرُ لا يَقِلُّ عن كتابِهِ هذا أهميةً؛ هو كتابُ «مُجْمَلِ اللغةِ» الذي ظَلَّ رَدَحًا من الزمنِ يَتحكَّمُ في الدراساتِ اللغويةِ والمعجميةِ، كما اشتَهَرَ كتابُهُ «الصاحبي» شُهْرةَ مَنْ أهداه له وهو الصاحبُ بنُ عَبَّادٍ[1].

وله مع ذلك أشعارٌ رائقةٌ، **منها قولُهُ لمن يتكاسلُ في طِلَابِ العلمِ**:

إِذَا كَانَ يُؤْذِيكَ حَرُّ المَصِيفِ ... وَيُبْسُ الخَرِيفِ وَبَرْدُ الشِّتَا
وَيُلْهِيكَ حُسْنُ زَمَانِ الرَّبِيعِ ... فَأَخْذُكَ لِلْعِلْمِ قُلْ لِي: مَتَى؟![2]



(١) المرجع نفسه (ص٢٠١) بتصرف.
(٢) **انظر ترجمته مطولةً في**: مقدمة تحقيق كتابه «مقاييس اللغة» لعبد السلام هارون (١/٣ - ٣٧).



الثَّعَالِبِيُّ

(ت ٤٢٩هـ)

عبدُ المَلِكِ بنُ محمَّدِ بنِ إسماعيلَ، أبو منصورٍ الثعالبيُّ من أئمةِ اللغةِ والأدبِ، وممَّن أبدَعَ في تواليفِهِ، وأغرَبَ في تصانيفِهِ.

قال ابنُ بَسَّامٍ في حَقِّهِ: «كان في وقتِهِ راعيَ تَلَعَاتِ العِلْمْ، وجامعَ أشتاتِ النثرِ والنظمْ، رأسَ المؤلِّفينَ في زمانِهْ، وإمامَ المصنِّفينَ بحكمِ قِرَانِهْ، سار ذِكْرُهُ سيرَ المَثَلْ، وضُربَتْ إليه آباطُ الإبِلْ، وطلَعَتْ دواوينُهُ في المشارقِ والمغاربْ، طُلُوعَ النَّجْمِ في الغياهبْ، وتواليفُهُ أشهَرُ مواضعْ، وأبهرُ مطالعْ، وأكثَرُ راوٍ لها وجامعْ، مِنْ أنْ يَسْتَوْفِيَها حَدٌّ أو وَصْفْ، أو يُوَفِّيَها حُقُوقَها نَظْمٌ أو رَصْفْ».

كان فَرَّاءً يَخِيطُ جلودَ الثعالبِ، فنُسِبَ إلى صناعتِهِ، واشتَغَلَ بالأدبِ والتاريخِ، فنبَغَ وذاع صِيتُهُ.

صنَّف الكتبَ الكثيرةَ الماتعةَ؛ منها: «يتيمةُ الدَّهْرْ، في مَحَاسنِ أهلِ العَصْرْ»؛ في تراجمِ شعراءِ عصرِهِ، و«فقهُ اللغةِ»، و«سِحْرُ البلاغةِ»، و«مَنْ غاب عنه المطرب»، و«لطائفُ المعارفِ»، و«طَبَقاتُ الملوكِ»، و«الإعجازُ والإيجازُ»، و«خاصُّ الخاصِّ»، و«نَثْرُ النَّظْمِ وحَلُّ العَقْدِ»، و«ثِمَارُ القلوبْ، في المضافِ والمنسوبْ» - وهو مِنْ أبدعِها وأمتعِها - و«مرآةُ المروءاتِ»، و«أحسنُ المَحَاسنِ»، و«أحسَنُ ما سَمِعْتُ»، و«اللطائفُ والظرائفُ»، و«يواقيتُ المواقيتِ»، وغيرُ ذلك من التصانيفِ

التي تَدُلُّ على ذَوْقٍ عالٍ، وأدبٍ رفيعٍ، وحُسْنِ اختيارٍ[١].

❁ ❁ ❁

(١) **انظر ترجمته في**: «الذخيرة» للشنتريني (٨/ ٥٦٠)، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان (٣/ ١٧٨)، و«شذرات الذهب» لابن العماد (٣/ ٢٤٦)، و«الأعلام» للزركلي (٤/ ١٦٤).

عَبْدُ الْقَاهِرِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْجُرْجَانِيُّ

(ت ٤٧١هـ)

إمامُ البلاغيِّينَ، وواضعُ أُصولِ علمِ البلاغةِ، ومُفَتِّقُ أكمامِ الكلامِ عن دُرٍّ وياقوتٍ.

كتَبَ قَبْلَهُ في مسائلِ البيانِ بعضُ البُلَغاءِ؛ كالجاحظِ، وابنِ دُرَيْدٍ، وقُدَامَةَ بنِ جَعْفَرٍ، لكنَّهم لم يَبْلُغوا فيما بَنَوْهُ أنْ يجعلوه فَنًّا مرفوعَ القواعدِ مُشْرَعَ الأبوابِ كما فَعَلَ عبدُ القاهرِ، **وأشهرُ كُتُبِهِ في هذا:** كتابُ «دلائلِ الإعجازِ»، وكتابُ «أسرارِ البلاغةِ»؛ وهما أصلان جليلان أَسَّسَا قواعدَ النَّظَرِ في علمِ بلاغةِ الألسنةِ عامَّةً، وبلاغةِ اللسانِ العربيِّ المُبِينِ خاصَّةً[1].

قال عنه القِفْطيُّ: «تصدَّر بِجُرْجانَ، وحُثَّتْ إليه الرِّحالُ، وصنَّف التصانيفَ الجليلةَ»[2].

وقال عنه الحُسَيْنيُّ: «أَوَّلُ مَنْ أسَّس مِنْ هذا الفَنِّ قواعدَهُ وأوضحَ براهينَهْ، وأظهَرَ فوائدَهُ ورتَّب أفانينَهْ، الشيخُ العالمُ النِّحْرِيرُ عَلَمُ المحقِّقينَ عبدُ القاهرِ الجُرْجَانيُّ، فلقد فَكَّ قيدَ الغرائبِ بالتقييدْ، وهَدَّ مِنْ سُورِ المُشْكِلاتِ بالتسويرِ المَشِيدْ، وفتَحَ أزهارَهُ مِنْ أكمامِها، وفتَقَ أزرارَهُ بعدَ

(١) **انظر:** «مقدمة أسرار البلاغة» (ص٣ و١١).
(٢) «إنباه الرواة» (٢/ ١٨٨).

استغلاقِها واستِبْهامِهَا، فجزاهُ اللهُ عن الإسلامِ أفضلَ الجزاءِ، وجعَلَ نَصِيبَهُ مِنْ ثَوَابِهِ أوفرَ النصيبِ والإجزاءِ»(١).

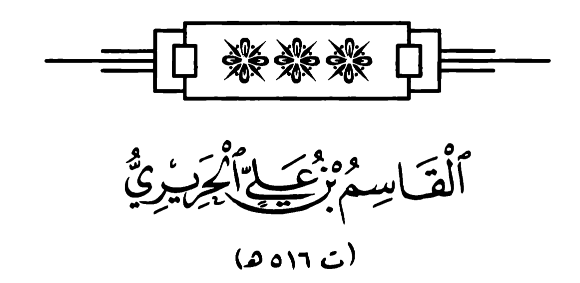
ومِنْ لطيفِ ما ذُكِرَ عنه قولُ السِّلَفيِّ: «كان وَرِعًا قانعًا؛ دخَلَ عليه لِصٌّ فأخَذَ ما وجَدَ وهو يَنْظُرُ ـ وهو في الصلاةِ ـ فما قطَعَهَا!!»(٢).

❁ ❁ ❁

---

(١) «الطراز» (١/ ٤).

(٢) «السير» للذهبي (١٨/ ٤٣٣).



ٱلْقَاسِمُ بْنُ عَلِيٍّ ٱلْحَرِيرِيُّ

(ت ٥١٦ هـ)

العَلَّامةُ البارعُ، ذو البلاغتَيْن، صاحبُ «المَقَاماتِ»، وأحدُ أئمَّةِ عصرِهِ في علومِ العربيةِ.

رُزِقَ الحُظْوةَ التامَّةَ في عملِ «المقاماتِ»، حيثُ اشتَمَلَتْ على شيءٍ كثيرٍ مِنْ كلامِ العربِ: مِنْ لُغَاتِها وأَمْثَالِها، ورموزِ أسرارِ كَلَامِها، ومَنْ عرَفَهَا حَقَّ معرفتِها استَدَلَّ بها على فضلِ هذا الرَّجُلِ، وكثرةِ اطلاعِهِ، وغَزَارةِ مادَّتِهِ.

قال القِفْطيُّ: «ومَنْ تأمَّلها، عَلِمَ أنَّ صاحبَها ومُنْشِئَها كان بَحْرًا في علمِ النحوِ واللغةِ»[١].

وكان سببَ وضعِهِ لها ما حكاه وَلَدُهُ أبو القاسمِ عبدُ اللهِ، **قال:** «كان أبي جالسًا في مسجدِهِ ببني حَرَامٍ، فدخَلَ شيخٌ ذو طِمْرَيْنِ، عليه أُهْبةُ السَّفَرِ، رَثُّ الحالِ، فصيحُ الكلامِ، حسنُ العبارةِ، فسأَلَتْهُ الجماعةُ: مِنْ أين الشيخُ؟ فقال: مِنْ سَرُوجٍ، فاستخبروه عن كنيتِهِ، فقال: أبو زَيْدٍ، فعَمِلَ أبي المَقَامةَ المعروفةَ بالحَرَامِيَّةِ ـ وهي الثامنةُ والأربعونَ ـ وعزاها إلى أبي زيدٍ السَّرُوجِيِّ».

وقد اعتنى بشرحِ «المقاماتِ» خَلْقٌ كثيرٌ؛ فمنهم مَنْ طوَّل، ومنهم

---

(١) «إنباه الرواة، على أنباه النحاة» (٣/ ٢٤).

مَنِ اختَصَرَ، وكان سالفُ العُلَماءِ يعتنون بالمَقَاماتِ دَرْسًا وحفظًا، ويأخذونها بالسماعِ[١].

ولم يستطعْ أحدٌ بعدَهُ أنْ يُدَانِيَهُ في صناعةِ المقاماتِ، فضلًا عن أن يَجُوزَهُ، على كثرةِ ما أُلِّفَ في المقاماتِ بعدَهُ قديمًا وحديثًا.

وينبغي لمَنْ أراد أن يَمْهَرَ في اللغةِ، ويرتقيَ بأسلوبِهِ الأدبيِّ، أن يعتنيَ بكثرةِ النَّظَرِ فيها، وتَذَوُّقِها، وحفظِ ما يَقْدِرُ عليه منها؛ فإنَّها نِعْمَ المُعِينُ على ذلك.

وإليك طَرَفًا مِنْ مقامتِهِ (الحلبيَّةِ)، حيثُ ذكَرَ فيها أبياتًا حروفُها

---

(١) **منهم**: عيسى بن إبراهيم بن عبد ربه بن جهور القيسي، من أهل طلبيرة. «الصلة» لابن بشكوال (ص٤١٦).

وعبد الجَبَّار بن محمد بن علي المَعَافِري، قرطبي سكن مصر. «التكملة، لكتاب الصلة» لابن الأبار (٣/ ١٠٣).

وأبو الفتح العلوي النيسابوري. «تاريخ الإسلام» للذهبي (٣٨/ ٣٥٢).

ومنوجهر بن محمد بن تركانشاه أبو الفضل الكاتب، كاتب الأمير قطب الدين قايماز المستنجدي، روى عنه المقامات مرارًا، وهو آخر مَنْ رواها عنه ببغداد. المصدر نفسه (٤٠/ ١٩٠).

وعبد الله بن محمد بن أبي الحسين أحمد بن محمد النقور البغدادي أبو بكر. «ذيل التقييد، في رواة السنن والأسانيد» (٢/ ٥٠)، وغيرهم.

بديعةٌ: حدَّث علي بن جابر بن هبة الله بن علي حاكم ساقية سليمان، **قال**: «حدَّثني والدي جابر بن هبة الله، أنه قرأ على القاسم بن علي الحَرِيرِيِّ المقاماتِ في شهور سنة أربع عشرة وخمس مئة، قال: وكنت أظنُّ **أن قوله**:

يَا أَهْلَ ذَا المَغْنَى وُقِيتُمْ شَرًّا ... وَلَا لَقِيتُمْ مَا بَقِيتُمْ ضُرًّا

قَدْ دَفَعَ اللَّيْلُ الَّذِي اكْفَهَرَّا ... إِلَى ذُرَاكُمْ شَعِثًا مُغْبَرَّا

أنه «سغبًا معترًّا»، فقرأت كما ظننت: سَغِبًا مُعْتَرًّا، ففكر ساعة، ثم قال: والله لقد أجدتَّ في التصحيف، فإنه أجود، فرُبَّ شعث مغبرٍّ غير محتاج، والسغب المعترّ موضع الحاجة، ولولا أنني قد كتبت خطي إلى هذا اليوم على سبع مئة نسخة قرئت عليَّ لغيرت الشعث بالسغب، والمغبر بالمعتر!!» «معجم الأدباء» (٥/ ٢٢٠٤).

مهملةٌ، وأخرى معجمةٌ، وأبياتًا أخرى كلمةٌ منها معجمةٌ وأخرى مهملةٌ. . . وهكذا!!

قال رحمه الله تعالى:

«روى الحارثُ بنُ هَمَّام؛ قال: نَزَعَ بي إلى حلَبْ، شَوْقٌ غَلَبْ، وطَلَبٌ يا لَهُ من طَلَبْ؛ وكنتُ يَوْمَئِذٍ خَفيفَ الحَاذْ، حَثيثَ النَّفَاذْ؛ فأَخَذْتُ أُهْبَةَ السيرْ، وخَفَفْتُ نحوَها خُفوفَ الطَّيْر؛ ولم أَزَلْ مُذْ حَلَلْتُ رُبُوعَها، وارْتَبَعْتُ رَبِيعَها؛ أُفانِي الأَيَّامْ، فيما يَشْفِي الغَرَامْ، ويَرْوِي الأُوَامْ؛ إلى أنْ أَقْصَرَ القَلْبُ عنْ وَلُوعِهْ، واسْتَطارَ غُرَابُ البَيْنِ بَعْدَ وقوعِهْ؛ فأَغْرَاني البالُ الخِلْو، والمَرَحُ الحُلْو؛ بأنْ أَقصِدَ حِمْصَ لِأَصْطافَ بِبُقْعَتِها، وأَسْبُرَ رَقَاعَةَ أهلِ رُقْعَتِها؛ فأَسْرَعْتُ إليها إِسْراعَ النَّجْم، إذا انْقَضَّ للرَّجْم؛ فحينَ خَيَّمْتُ بِرُسُومِها، ووَجَدتُّ رَوْحَ نَسِيمِها؛ لَمَحَ طَرْفي شَيْخًا قد أقبلَ هَرِيرُهْ، وأَدْبَرَ غَرِيرُهْ؛ وعندَهُ عَشَرَةُ صِبْيانْ، صِنْوانٌ وغيرُ صِنْوانْ؛ فطاوَعْتُ في قَصْدِهِ الحِرْص، لِأَخْبُرَ بهِ أُدَبَاءَ حِمْص؛ فبَشَّ بي حِينَ وَافَيْتُهْ، وحَيَّا بأحسَنَ مِمَّا حَيَّيْتُهْ؛ فجَلَسْتُ إِلَيْهِ لِأَبْلُوَ جَنَى نُطْقِهْ، وأَكْتَنِهَ كُنْهَ حُمْقِهْ؛ فما لَبِثَ أنْ أشارَ بِعُصَيَّتِهْ، إلى كُبْرِ أُصَيْبِيَتِهْ؛ وقال لهُ: أَنْشِدِ الأبياتَ العَوَاطِلْ[1]، واحْذَرْ أن تُماطِلْ؛ فجَثَا جِثْوَةَ لَيْث، وأنشدَ مِنْ غيرِ رَيْث:

أَعْـدِدْ لِـحُـسَّـادِكَ حَـدَّ الـسِّـلَاحْ وَأَوْرِدِ الْآمِـلَ وِرْدَ الـسَّـمَـاحْ
وَصَـارِمِ الـلَّـهْـوَ وَوَصْـلَ الـمَـهَـا وَأَعْـمِـلِ الكُـومَ وَسُـمْـرَ الـرِّمَـاحْ
وَاسْـعَ لِإِدْرَاكِ مَـحَـلٍّ سَـمَـا عِـمَـادُهُ لَا لِادِّرَاعِ الـمِـرَاحْ
وَالـلَّـهِ مَا الـسُّـؤْدَدُ حَـسْـوُ الطِّـلَا وَلَا مَـرَادُ الـحَـمْـدِ رُودٌ رَدَاحْ

(١) هي الخاليةُ حروفُهَا من النَّقْط!

وَاهًـا لِـحُـرٍّ وَاسِـعٍ صَـدْرُهُ ... وَهَـمُّـهُ مَـا سَرَّ أَهْلَ الصَّلَاحْ
مَـوْرِدُهُ حُـلْـوٌ لِـسُـؤَّالِـهِ ... وَمَـالُـهُ مَـا سَـأَلُـوهُ مُـطَـاحْ
مَـا أَسْـمَـعَ الْآمِـلَ رَدًّا وَلَا ... مَـاطَـلَـهُ وَالْـمَـطْـلُ لُـؤْمٌ صُـرَاحْ
وَلَا أَطَـاعَ الـلَّـهْـوَ لَـمَّـا دَعَـا ... وَلَا كَـسَـا رَاحًـا لَـهُ كَـأْسَ رَاحْ
سَـوَّدَهُ إِصْـلَاحُـهُ سِـرَّهُ ... وَرَدْعُـهُ أَهْـوَاءَهُ وَالـطِّـمَـاحْ
وَحَـصَّـلَ الْـمَـدْحَ لَـهُ عِـلْـمُـهُ ... مَا مُهِرَ العُورُ مُهُورَ الصِّحَاحْ

فقال له: أَحْسَنْتَ يا بُدَيْر، يا رأسَ الدَّيْر! ثُمَّ قالَ لِتِلْوِهْ، الْمُشْتَبِهِ بِصِنْوِهْ: أُدْنُ يا نُوَيْرَهْ، يا قمَرَ الدُّوَيْرَهْ! فدَنَا ولَمْ يَتَبَاطَا، حتى حَلَّ منه مَقْعَدَ المُعَاطَى؛ فقال له: اجْلُ الأَبْيَاتَ العَرَائِسْ[1]، وإنْ لم يَكُنَّ نَفائِسْ؛ فبَرَى القلَمَ وَقَطَّ، ثُمَّ احْتَجَرَ اللَّوْحَ **وَخَطَّ**:

فَـتَـنَـتْـنِـي فَـجَـنَّـنَـتْـنِـي تَـجَـنِّـي ... بِـتَـجَـنٍّ يَـفْـتَـنُّ غِـبَّ تَـجَـنِّـي
شَغَفَتْنِي بِجَفْنِ ظَبْيٍ غَضِيضٍ ... غَنِجٍ يَقْتَضِي تَغَيُّضَ جَفْنِي
غَشِيَتْنِي بِزِينَتَيْنِ فَشَفَّتْـ ... ـنِي بِزِيٍّ يَشِفُّ بَيْنَ تَثَنِّي
فَتَظَنَّيْتُ تَجْتَبِينِي فَتَجْزِيـ ... ـنِي بِنَفْثٍ يَشْفِي فَخُيِّبَ ظَنِّي
ثَبَّتَتْ فِيَّ غِشَّ جَيْبٍ بِتَزْيِيـ ... ـنِ خَبِيثٍ يَبْغِي تَشَفِّيَ ضِغْنِ
فَنَزَتْ فِي تَجَنُّبِي فَثَنَتْنِي ... بِنَشِيجٍ يُشْجِي بِفَنٍّ فَفَنٍّ

فلَمَّا نظرَ الشيخُ إلى ما حَبَّرَهْ، وتَصفَّحَ ما زبَرَهْ؛ قال له: بُورِكَ فِيكَ مِنْ طَلَا، كما بُورِكَ في لا ولا؛ ثُمَّ هتَفَ: اقْرُبْ، يا قُطْرُبْ؛ فاقْتَرَبَ منهُ فَتًى يَحْكِي نَجْمَ دُجْيَهْ، أو تِمْثالَ دُمْيَهْ؛ فقال لهُ: ارْقُمِ الأَبْياتَ الأَخْيافْ[2]، وتَجنَّبِ الخِلَافْ؛ فأَخَذَ القَلَمْ، **ورقَمْ**:

---

(١) هي المنقوطُ جميعُ حروفها!

(٢) هي المنقوطُ منها كلمةٌ دون كلمة.

اِسْمَحْ فَبَثُّ السَّمَاحِ زَيْنُ ... وَلَا تُخِبْ آمِلًا تَضَيَّفْ
وَلَا تُجِزْ رَدَّ ذِي سُؤَالٍ ... فَنَّنَ أَمْ فِي السُّؤَالِ خَفَّفْ
وَلَا تَظُنَّ الدُّهُورَ تُبْقِي ... مَالَ ضَنِينٍ وَلَوْ تقَشَّفْ
وَاحْلُمْ فَجَفْنُ الكِرَامِ يُغْضِي ... وَصَدْرُهُمْ فِي العَطَاءِ نَفْنَفْ
وَلَا تَخُنْ عَهْدَ ذِي وِدَادٍ ... ثَبْتٍ وَلَا تَبْغِ مَا تَزَيَّفْ

فقال له: لا شَلَّتْ يَداكْ، ولا كَلَّتْ مُداكْ؛ ثُمَّ نادى: يا عَشَمْشَمْ، يا عِطْرَ مَنْشَمْ! فلَبَّاهُ غُلَامٌ كدُرَّةِ غَوَّاصْ، أو جُؤْذَرِ قَنَّاصْ؛ فقالَ له: اكْتُبِ الأبياتَ المَتائِيمْ[1]، ولا تكُنْ مِنَ المَشَائيمْ؛ فتناوَلَ القلَمَ المُثقَّفْ، وكتبَ ولم يتوقَّفْ:

زُيِّنَتْ زَيْنَبُ بِقَدٍّ يَقُدُّ ... وَتَلَاهُ وَيْلَاهُ نَهْدٌ يَهُدُّ
جُنْدُهَا جِيدُهَا وَظَرْفٌ وَطَرْفٌ ... نَاعِسٌ تَاعِسٌ بِحَدٍّ يَحُدُّ
قَدْرُهَا قَدْ زَهَا وَتَاهَتْ وَبَاهَتْ ... وَاعْتَدَتْ وَاغْتَدَتْ بِخَدٍّ يَخُدُّ
فَارَقَتْنِي فَأَرَّقَتْنِي وَشَطَّتْ ... وَسَطَتْ ثُمَّ نَمَّ وَجْدٌ وَجَدُّ
فَدَنَتْ فُدِّيَتْ وَحَنَّتْ وَحَيَّتْ ... مُغْضَبًا مُغْضِيًا يَوَدُّ يُودُّ

فطَفِقَ الشيخُ يَتأمّلُ ما سَطَرَهْ، ويُقلِّبُ فيهِ نظرَهْ؛ فلمَّا استَحْسَنَ خَطَّهْ، واستَصَحَّ ضَبْطَهْ؛ قال لهُ: لا شَلَّ عَشْرُكْ، ولا استُخْبِثَ نَشْرُكْ؛ ثُمَّ أَهَابَ بفتًى فتَّانْ، يُسْفِرُ عنْ أزهارِ بُستانْ؛ فقالَ له: أَنْشِدِ البَيْتَيْنِ المُطْرَفَيْن، المُشْتَبِهَيِ الطّرفَيْن؛ اللذَيْنِ أَسْكَتَا كلَّ نَافِثْ، وأمِنا أنْ يُعَزَّزا بِثَالِثْ[2]؛

---

(١) هي الأبيات التي جاءت كل كلمتين متجاورتين فيها متشابهةً في الرسم، **وهو ما يُسمَّى في الاصطلاح**: المؤتلف والمختلف.

(٢) **عجيبةٌ**: سمع إسماعيلُ بن أبي بكر اليماني المعروف بالمقرئ ـ صاحبُ كتاب «عنوان الشرف الوافي» ـ بعضَ الناس يذكُرُ بيتَي الحريري هذَيْن، فقال المقرئ: إن تعزيزهما =

فقال له: اسْمَعْ لَا وُقِرَ سَمْعُكَ، ولا هُزِمَ جَمْعُكَ؛ **وأنشَدَ مِنْ غيرِ تَلَبُّثْ، ولا تَرَيُّثْ**:

سِمْ سِمَةً تَحْسُنُ آثَارُهَا ... وَاشْكُرْ لِمَنْ أَعْطَى وَلَوْ سِمْسِمَهْ

وَالْمَكْرُ مَهْمَا اسْطَعْتَ لَا تَأْتِهِ ... لِتَقْتَنِي السُّؤْدَدَ وَالْمَكْرُمَهْ

فقال له: أَجدتَّ يا زُغْلُولْ، يا أبا الغُلُولْ؛ ثمّ نادَى: أَوْضِحْ يا يَاسِينْ، ما يُشْكِلُ مِنْ ذَوَاتِ السِّينْ؛ فنهضَ ولم يَتَأَنَّ، **وأنشدَ بِصَوْتٍ أَغَنَّ**:

نِقْسُ الدَّوَاةِ وَرُسْغُ الكَفِّ مُثْبَتَةٌ ... سِينَاهُمَا إِنْ هُمَا خُطَّا وَإِنْ دُرِسَا

وَهَكَذَا السِّينُ في قَسْبٍ وَبَاسِقَةٍ ... وَالسَّفْحِ وَالبَخْسِ وَاقْسِرْ وَاقْتَبِسْ قَبَسَا

وَفِي تَقَسَّسْتُ بِاللَّيْلِ الكَلَامَ وَفِي ... مُسَيْطِرٍ وَشَمُوسٍ وَاتَّخِذْ جَرَسَا

وَفِي قَرِيسٍ وَبَرْدٍ قَارِسٍ فَخُذِ الصْـ ... ـصَوابَ مِنِّي وَكُنْ لِلْعِلْمِ مُقتَبِسَا

فقال لهُ: أَحْسَنْتَ يا نُغَيْش، يا صَنَّاجَةَ الجيْش...» إلخ[1].

= بثالثٍ غير ممتنع! فاعتَرَضَ الرجل على كلامه، وطال بينهما النزاع، فرجَعَ المقرئ إلى بيته وعمل على هذا النمط توفية خمسين بيتًا، وأرسَلَ بها إلى مَنْ جادله، وقال: قد صارا خمسين!! **وأول أبياته**:

مَنْ كَلَّ مَهْدِيْ وَدَعَا أَحْمَدًا ... أُجِيبَ، مَا أَسْعَدَ مَنْ كَلَّمَهْ

قال الشوكاني: «وقد كان بعض المتأخِّرين ممن عاصره قبل عصر صاحب الترجمة قد عزَّز بيتي الحريري بثالثٍ **وهو**:

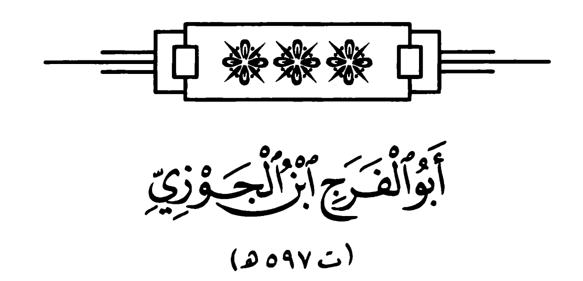
وَالْمَسْ لِمَهْوَى الضَّيْفِ خَيْرَ القِرَى ... وَسَلِّمِ الْمَسْلَمَ وَالْمَسْلَمَهْ»

«البدر الطالع» (١/ ١٤٤).

قلتُ: وقد عَزَّزْتُه أنا أيضًا **بقولي**:

وَالْهَذْرَ مَهْوَىً لِلِّسَانِ الَّذِي ... دَيْدَنُهُ الإِسْفَافُ وَالْهَذْرَمَهْ

(١) **انظر ترجمته والكلام عن مقاماته في**: مقدمة «مقامات الحريري» طبعة دار بيروت، وأحيل القارئ الكريم إلى شرح الشريشي لمقامات الحريري لمعرفة معاني ما تقدَّم، وهو شرحٌ في غاية النفاسة.



أبو الفرج ابن الجوزي

(ت ٥٩٧ هـ)

عبدُ الرحمٰنِ بنُ عليٍّ القرشيُّ، الحافظُ المفسِّرُ، إمامُ عَصْرِهِ - بل وعصورٍ كثيرةٍ - في الخَطَابةِ والوَعْظِ.

قال عن نفسِهِ: «صار لي اليومَ خمسُ مَدَارِسَ، ومئةٌ وخمسون مصنَّفًا في كلِّ فنٍّ، وقد تاب على يَدَيَّ أكثرُ من مئةِ أَلْفٍ! وقطَعْتُ أكثرَ من عَشَرةِ آلافِ طائلةٍ، ولم يَرَ واعظٌ مثلَ جَمْعي؛ فقد حضرَ مجلسي الخليفةُ، والوزيرُ، وصاحبُ المَخْزَنِ، وكبارُ العلماءِ، والحمدُ لله على نعمِهِ»[١].

وقال في آخرِ كتابِهِ «القُصَّاص والمُذَكِّرين»: «ما زِلْتُ أَعِظُ الناسَ وأُحَرِّضُهم على التوبةِ والتقوى، فقد تاب على يَدَيَّ إلى أن جَمَعْتُ هذا الكتابَ أكثرُ من مئةِ ألفِ رجلٍ، وقد قَطَعْتُ من شعورِ الصبيانِ اللاهينَ أكثرَ من عَشَرةِ آلافِ طائلةٍ، وأسلَمَ على يَدَيَّ أكثرُ من مئةِ ألفٍ!»[٢].

قال ناصحُ الدينِ بنُ الحنبليِّ الواعظُ عنه: «اجتَمَعَ فيه من العلومِ ما لم يَجْتمِعْ في غيرِهِ، وكانتْ مَجَالِسُهُ الوعظيةُ جامعةً للحُسْنِ والإحسانِ

---

(١) **ينظر:** «تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام» (٤/ ٢٥).

(٢) «كتب القصاص والمذكرين» (ص٣٧١).

باجتماعِ ظِرَافِ بَغْدادَ، ونِظَافِ الناسِ، وحُسْنِ الكلماتِ المسجَّعةِ، والمعاني المودَعَةِ في الألفاظِ الرائجةِ، وقراءةِ القرآنِ بالأصواتِ المرجَّعةِ، والنَّغَماتِ المُطْرِبةِ، وصيحاتِ الواجدين، ودَمَعاتِ الخاشعين، وإنابةِ النادمين، وذُلِّ التائبين، والإحسانِ بما يفاضُ على المستمعين، من رحمةِ أرحمِ الراحمين».

وذكَرَهُ الحافظُ ابنُ الدُّبَيْثِيِّ في «ذيلِهِ على تاريخِ ابنِ السَّمْعانيِّ»، **فقال**: «شيخُنا الإمامُ جمالُ الدينِ ابنُ الجَوْزيِّ صاحبُ التصانيفِ في فنونِ العلمِ: مِنَ التفاسيرِ، والفقهِ، والحديثِ، والوَعْظِ، والرقائقِ، والتواريخِ، وغيرِ ذلك... وله في الوعظِ العبارةُ الرائقهْ، والإشاراتْ الفائقهْ، والمعاني الدقيقهْ، والاستعارةُ الرشيقهْ، وكان من أحسنِ الناسِ كَلَامًا، وأتمِّهم نِظَامًا، وأَعْذَبِهم لِسَانًا، وأجودِهِمْ بَيَانًا».

وقال الموفَّقُ عبدُ اللطيفِ: «كان ابنُ الجَوْزيِّ لطيفَ الصورةِ، حُلْوَ الشمائلِ، رَخِيمَ النَّغْمةِ، مَوْزُونَ الحَرَكاتِ والنَّغَماتِ، لذيذَ المفاكهةِ، يَحْضُرُ مَجْلِسَهُ مئةُ ألفٍ أو يزيدونَ... له في كلِّ علمٍ مشاركةٌ، لكنَّه كان في التفسيرِ من الأعيانِ، وفي الحديثِ مِنَ الحُفَّاظِ، وفي التاريخِ من المتوسِّعينَ، ولديه فِقْهٌ كافٍ، وأمَّا السجعُ الوعظيُّ فله فيه مَلَكةٌ قويةٌ، إنِ ارتجَلَ أجادَ، وإن رَوَى أَبْدَع!».

وقال ابنُ رجبٍ: «**وحاصلُ الأمرِ**: أنَّ مجالسَهُ الوعظيةَ لم يكنْ لها نظيرٌ، ولم يُسْمَعْ بِمِثْلِها، وكانت عظيمةَ النَّفْعِ، يَتذكَّرُ بها الغافلون، ويتعلَّمُ منها الجاهلون، ويتوبُ فيها المُذْنِبون، ويُسْلِمُ فيها المُشْرِكون، وقد ذكَرَ في تاريخِهِ: أنه تكلَّم مرةً، فتاب في المجلسِ على يدِهِ نحوُ مائتي رجلٍ، وقُطِعَتْ شعورُ مئةٍ وعشرينَ منهم».

وقد أبدَعَ في كتبٍ كثيرةٍ من مؤلَّفاتِهِ، منها: «زادُ المَسِيرِ»، و«المُدْهِشُ»، و«التبصرةُ»، و«صَيْدُ الخاطرِ» ـ الذي هو الإبداعُ بعينِهِ ـ وغيرُها.

ومِنْ لطائفِ كَلِمِهِ قولُهُ يومًا على المنبرِ: «أهلُ البدعِ يقولون: ما في السماءِ أحدٌ، ولا في المُصْحَفِ قرآنٌ، ولا في القَبْرِ نبيٌّ؛ ثلاثُ عَوْراتٍ لكم!».

وقولُهُ: «يفتخرُ فرعونُ مصرَ بنهرٍ ما أجراه، ما أجراه!».

وقولُهُ: «الأملُ مذمومٌ إلا للعلماءِ، فلولاه ما صنَّفوا!».

وقولُهُ: «من قنع طاب عيشُهُ، ومن طمع طال طيشُه!»[1].



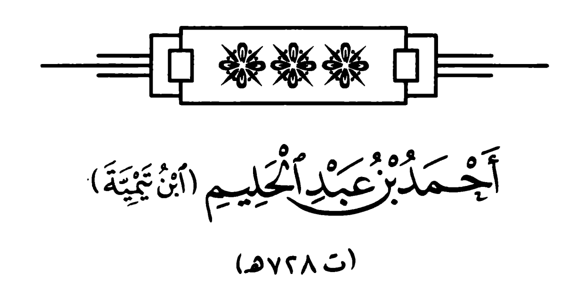
(١) **انظر ترجمته في**: «ذيل طبقات الحنابلة» (١/ ٣٩٩).

ـ وقد وصف الرحالةُ ابنُ جُبَيْر بعضَ مجالسه تلك وصفًا بديعًا، **فكان مما قال**: «ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه الإمام الأوحد جمال الدين أبي الفضائل بن علي الجوزي، بإزاء داره على الشط بالجانب الشرقي... فشاهدنا مجلس رجل ليس من عمرو ولا زَيْدْ، وفي جَوْف الفَرَا كلُّ الصَّيْدْ، آية الزمانْ، وقرةُ عينِ الإيمانْ، رئيسُ الحنبليَّة، والمخصوصُ في العلوم بالرتب العليَّة، إمامُ الجماعة، وفارسُ حَلْبة هذه الصناعة، والمشهودُ له بالسبقِ الكريم في البلاغة والبراعة، مالك أزمَّةِ الكلام في النظم والنثر، والغائصُ في بحر فكره على نفائس الدُّرّ...

ومن أبهر آياته، وأكبر معجزاته، أنه يصعد المنبر ويبتدئُ القُرَّاءُ بالقراءة ـ وعددهم نيِّف على العشرين قارئًا ـ فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القرآن، يتلونها على نسقٍ بتطريب وتشويق، فإذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية، ولا يزالون يتناوبون آياتٍ من سورٍ مختلفاتٍ إلى أن يتكاملوا قراءةً، وقد أتوا بآياتٍ مشتبهاتٍ لا يكاد المتَّقد الخاطر يحصِّلها عددًا أو يسمِّيها نسقًا، فإذا فرغوا، أخذ هذا الإمام الغريب الشأن في إيراد خطبته عجلًا مبتدرًا، وأفرَغَ في أصداف الأسماع من ألفاظه دررًا، وانتظَمَ أوائل الآيات المقروءات في أثناء خطبته فِقَرًا، وأتى بها على نسق =

. . . .

= القراءة لها لا مقدمًا ولا مؤخرًا! ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها، فلو أن أبدع من في مجلسه تكلّف تسمية ما قرأ القراء به آية آية على الترتيب لعجز عن ذلك، فكيف بمن ينتظمها مرتجلًا، ويورد الخطبة الغراء بها عجلًا؟! ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥]، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦] فحدِّثْ ولا حرَجَ عن البَحْر، وهيهات ليس الخَبَر عنه كالخُبْر!
ثم إنه أتى بعد أن فرَغَ من خطبته برقائق من الوعظ، وآيات بينات من الذكر، طارت لها القلوب اشتياقًا، وذابت بها الأنفس احتراقًا، إلى أن علا الضجيج، وتردَّد بشهقاته النشيج، وأعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح، كلٌّ يُلقي ناصيته بيده فيجزُّها، ويمسح على رأسه داعيًا له، ومنهم من يُغْشَى عليه، فيرفع في الأذرع إليه، فشاهدنا هولًا يملأ النفوسَ إنابة وندامة، ويذكِّرها هولَ يوم القيامة، فلو لم نركب ثَبَجَ البَحْر، ونعتسفْ مفازاتِ القَفْر، إلا لمشاهدة مجلسٍ من مجالس هذا الرجل، لكانت الصفقة الرابحة، والوِجْهةَ المفلحة الناجحة، والحمد لله على أن أبقى من يشهد الجماداتُ بفضله، ويضيق الوجودُ عن مثله.
وفي أثناء مجلسه ذلك يبتدرون المسائل، وتطير إليه الرقاع، فيجاوب أسرع من طرفة عين، وربما كان أكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء لا إلٰه سواه...». «رحلة ابن جبير» (ص١٩٦ فما بعد).



أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْحَلِيمِ (ابْنُ تَيْمِيَّةَ)

(ت ٧٢٨هـ)

شيخُ الإسلامْ، وعلَمُ الأعلامْ، قاضي مَحَاكمِ المعقولِ والمنقولْ، وفَيْصَلُ أحكامِ الفروعِ والأصولْ، ومَنْ إليه المرجعُ والمآبْ، في علومِ السُّنَّةِ والكتابْ.

والحقُّ أني لا أدري كيف أَبْدَأُ، ولا أين أمضي، ولا متى أنتهي مع هذا العَلَمِ الفَرْدِ، إنَّه أُمَّةٌ جَمَعها اللهُ في رجلٍ!

وَلَيْس بِدْعًا وَلَا في اللَّهِ مُمْتَنِعًا   أَنْ يَجْمَعَ العَالَمَ الكُلِّيَّ في رَجُلِ!

أَقَرَّ له بالإمامةِ في الدِّينِ القريبُ والبعيدُ، والموافقُ والمخالِفُ على حدٍّ سواءٍ، مِنْ لَدُنْ عصرِهِ إلى عصرِنا هذا، وكان يَجْلِسُ إليه أتباعُ الطوائفِ والفِرَقِ والمذاهبِ، فيأتيهم بأشياءَ لا يعرفونها في مذاهِبِهم! فيستفيدُ كلٌّ في مذهبِهِ ما لم يكُن يَعلمُ.

قال ابنُ الزَّمْلَكَانيِّ: «كان إذا سُئِلَ عن فَنٍّ من الفُنُونِ، ظَنَّ السامعُ أنه لا يَعْرِفُ غيرَ ذلك الفَنِّ!».

وقال له ابنُ دَقِيقِ العيدِ: «ما أَظُنُّ أنَّ اللهَ بَقِيَ يَخْلُقُ مِثْلَكَ!».

ولقد صدَقَ رحمه الله تعالى، فلم يَأْتِ بَعْدَهُ حتى اليومِ مَنْ يدانيه في علمِه، أو يساميه في فهمِه.

إِذَا تَغَلْغَلَ فِكْرُ المَرْءِ في طَرَفٍ مِنْ مَجْدِهِ غَرِقَتْ فِيهِ خَوَاطِرُهُ

وهذا الرجلُ لم يَقِفْ على ثُغْرةٍ واحدةٍ من ثُغُورِ الإسلامِ ـ كحالِ غيرِهِ من العُلَماءِ ـ بل وقَفَ على ثُغُورٍ كثيرةٍ، فواجَهَ اليهودَ والنصارى، وواجَهَ عُتَاةَ الفلاسفةِ، وواجَهَ غُلَاةَ الصُّوفيَّةِ، وواجَهَ كثيرًا مِنْ أصحابِ الفِرَقِ المُنْحَرِفةِ؛ كالجهميةِ والرافضةِ، والمعتزلةِ والأشاعرةِ، وغيرِهم، وواجهَ مُقلِّدَةَ الفقهاءِ والمتعصِّبينَ منهم... بل واجه في ميدانِ الحَرْبِ التتارَ، حتى انكَسَرَتْ شَوْكَتُهم في الأخبارِ المشهورةِ عنه.

كان هذا الإمامُ يَكْتُبُ في المسألةِ الواحدةِ مجلَّدًا من المجلَّداتِ الضِّخَامْ، ويرُدُّ على الشُّبْهةِ الواحدةِ بِسِفْرٍ من الأسفارِ الفِخَامْ! لذا فإنه يَصْدُقُ على قَلَمِهِ **ما قاله بعضُهم**[1]:

قَلَمٌ حَدُّ شَبَاهُ لِكِتَابِ العِلْمِ خَاصّْ
طَائِعٌ لِلَّهِ جَلَّ اللَّهُ (م) لِلشَّيْطَانِ عَاصْ
كُلَّمَا خَطَّ كِتَابًا بِمَعَانِي العِلْمِ غَاصْ!

ومع ذلك: فإنه ما سَلِم من كيْدِ عُلَماءِ عَصْرِهِ وتأليبِهم عليه، فقد حُبِسَ بسببِهم مَرَّاتٍ عِدَّةً، بل ما كفاهم ذلك حتى سَعَوْا في سفكِ دمِهِ والنِّكَايةِ به!!

تُوفِّيَ رَحِمَهُ اللَّهُ في سِجْنِهِ صابرًا مُحْتَسِبًا في ليلةِ الاثنينِ الموافقِ للعشرينَ من ذي القَعْدةِ من عامِ (٧٢٨هـ).

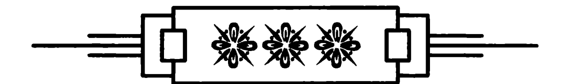
---

(١) الأبيات لِحَمْد بن حَمْدون بن عمر القيسي. **انظر**: «الصلة» لابن بشكوال (ص١٥٤)، و«جذوة المقتبس» للحميدي (ص١٩٩)، و«بغية الملتمس» للضبي (ص٢٧٥).

وبكلٍّ: فالرَّجُلُ أخبارُهُ كثيرة، ومآثِرُهُ شهيرة، وقد ألَّف العلماءُ في سيرتِهِ مؤلَّفاتٍ جَمَّةً[١].



(١) منها: «الأعلام العلية» للبَزَّار، و«العقود الدرية» لابن عبد الهادي، و«الشهادة الزكية» للكَرْمي، وغيرها.



أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى الشَّاطِبِيُّ

(ت ٧٩٠هـ)

الأصوليُّ النابهُ، والعالمُ الْمِفَنُّ، صاحبُ الكتابِ العظيمِ «الموافقاتِ» في أصولِ الفقهِ، الذي لم يَنْسُجْ أحدٌ قبلَهُ على منوالِهِ.

ولْنَدَعِ الكلامَ عن كتابِهِ هذا للشيخِ العلامةِ بكر أبو زيد ـ رحمه الله تعالى ـ **حيث قال في تقديمِهِ للكتابِ**: «أبو إسحاقَ هو مؤلِّفُ غِرْناطةَ الإبداعيُّ في كتبِهِ: «الموافقاتِ» في أصولِ الشريعةِ ومقاصدِها، و«الاعتصامِ» في السُّنَّةِ وقمعِ البدعةِ. . .

وهو ـ رحمةُ اللهِ عليه ـ في مؤلَّفاتِهِ هذه بعيدٌ عن طرقِ التأليفِ التقليديةِ، والعملِ المكرورِ، وإنما يفترعُها افتراعًا، ويُبْدِعُ فيها إبداعًا؛ لأنه قد اتخذَ القرآنَ والسُّنَّةَ له نِبْراسًا وإمامًا، وحَذِقَ لسانَ العربِ لغةً ونحوًا وفقهًا واشتقاقًا، بما لم يُدْرِكْ شَأْوَهُ مَنْ لَحِقَهُ، ولم يُنْسَجْ على منوالِهِ ومسلكِهِ؛ فلا جَرَمَ كان نجمًا لامعًا، أضاءَ الأمةَ الإسلاميةَ في المشارقِ والمغاربِ، فلَفَتَ الأنظارْ، وعكَفَتْ على كتبِهِ الأبصارْ، واستضاءتْ بأنوارِها بصائرُ أهلِ الأمصارْ. . .

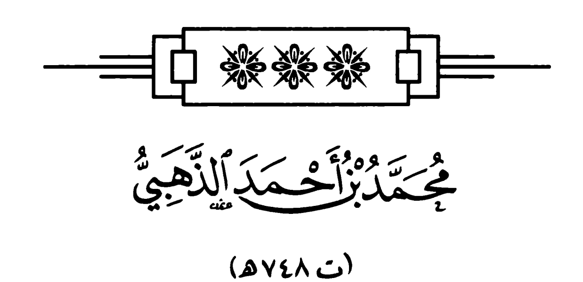
والكتابُ وضَعَهُ هذا الإمامُ ليكونَ وسيلةً إلى فقهِ الاستنباطِ بِحِذْقِ اللسانِ، وتشخيصِ علمِ المقاصدِ؛ إلا أنه في حقيقتِهِ: فقهٌ في الدِّينِ، ومثالٌ متميِّزٌ في توظيفِ الاستقراءِ الكليِّ لفهمِ نصوصِ الوحيَيْنِ،

وعلمٌ متكاملٌ بنظامِ الشريعةِ وأسسِ التشريعِ ومقاصدِهِ في مصالحِ العبادِ في الدارَيْن»[١].

❁ ❁ ❁

(١) طُبع كتابُ «الموافقات» مرارًا، ومِنْ أحسنها الطبعة التي حقَّقها الشيخ مشهور بن حسن آل سلمان أثابه الله، كما هذَّبه ولخَّص مباحثه ومهماته أكثرُ من واحد.

وانظر ترجمة الشاطبي مستوفاة في: «خاتمة تحقيق الشيخ مشهور» (٦/٧ ـ ٥٣).



مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الذَّهَبِيُّ

(ت ٧٤٨هـ)

شيخُ المؤرِّخين، وفقيهُ المُتَرْجِمين، الحافظُ الجِهْبِذ، الحُجَّةُ في معرفةِ الرجالِ وأخبارِهم وسِيَرِهم.

جمَعَ «تاريخَ الإسلامِ»، فأربى فيه على مَنْ تَقدَّم؛ بتحريرِ أخبارِ العلماءِ عمومًا، والمحدِّثينَ خصوصًا، وقد اختَصَرَ منه مختصراتٍ كثيرةً منها: «العِبَرُ»، و«طَبَقاتُ الحُفَّاظِ»، و«طبقاتُ القراءِ»، وغيرُ ذلك.

وله «ميزانُ الاعتدالْ في نَقْدِ الرِّجَالْ»، أجاد فيه أيضًا، واختصَرَ «تهذيبَ الكمالِ» لشيخِهِ المِزِّيِّ، وخرَّج لنفسِهِ «المعجمَ الكبيرَ»، و«الصغيرَ»، و«المختصَّ بالمحدثينَ»، ورَغِبَ الناسُ في تواليفِهِ، ورحَلُوا إليه بسببِها، وأَوْلَوْهَا العنايةَ التامةَ قراءةً ونسخًا وسماعًا.

قال البَدْرُ النَّابُلُسِيُّ: «كان عَلَّامةَ زمانِهِ في الرِّجَالِ وأحوالِهِم، حديدَ الفَهْمِ، ثاقبَ الذِّهْنِ، وشهرتُهُ تغني عن الإطنابِ فيه»(١).

وقال الصَّفَديُّ: «حافظٌ لا يُجَارَى، ولافظٌ لا يُبَارَى، أتقَنَ الحديثَ ورجالَهْ، ونَظَرَ عِلَلَهُ وأحوالَهْ، وعرف تراجمَ الناسْ، وأزالَ الإبهامَ في تواريخِهم والإلباسْ، مِنْ ذهنٍ يَتوقَّدُ ذكاؤُهْ، ويَصِحُّ إلى الذهبِ نسبتُهُ وانتماؤُهْ، جمعَ الكثيرْ، ونفعَ الجَمَّ الغفيرْ، وأكثرَ مِنَ التصنيفْ، ووفَّر بالاختصارِ مؤنةَ التطويلِ في التأليفْ، وقَفَ الشيخُ كمالُ الدينِ

---

(١) **ينظر**: «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» (٥/ ٦٨).

ابنُ الزَّمْلَكانيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ على تاريخِهِ الكبيرِ المسمَّى بـ«تاريخِ الإسلامِ» جزءًا بعدَ جزءٍ إلى أن أنهاه مطالعةً، وقال: «هذا كتابُ عِلْم»، لم أَجِدْ عندَهُ جمودَ المحدِّثين، ولا كَوْدَنَةَ النَّقَلةِ، بل هو فقيهُ النَّظَرِ، له دُرْبَةٌ بأقوالِ الناسِ ومذاهبِ الأئمةِ مِنَ السلفِ وأربابِ المقالاتِ، وأعجبني منه ما يعانيه في تصانيفِهِ من أنه لا يتعدَّى حديثًا يُورِدُهُ حتى يُبيِّنَ ما فيه من ضعفِ مَتْنٍ، أو ظلامِ إسنادٍ، أو طَعْنٍ في رواتِهِ، وهذا لم أر غَيْرَهُ يراعي هذه الفائدةَ فيما يورده، وله في تراجمِ الأعيانِ لكلِّ واحدٍ مصنَّفٌ قائمُ الذاتِ، مثلُ الأئمةِ الأربعةِ ومَنْ جرى مجراهم، لكنَّه أدخَلَ الكلَّ في «تاريخِ النبلاءِ»»[١].

ومِنْ شعرِهِ الذائعِ قولُهُ:

الْعِلْمُ: قَالَ اللَّهُ قَالَ رَسُولُهُ ... إِنْ صَحَّ وَالإِجْمَاعُ فَاجْهَدْ فِيهِ
وَحَذَارِ مِنْ نَصْبِ الخِلَافِ جَهَالَةً ... بَيْنَ الرَّسُولِ وَبَيْنَ رَأْيِ فَقِيهِ!

وقولُهُ في ذمِّ عِلْمِ الكَلَامِ:

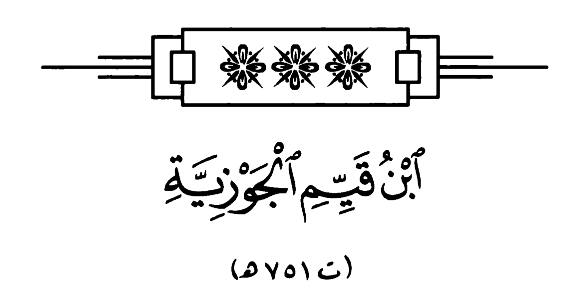
أَفِقْ يَا مُعَنًّى بِجَمْعِ الحُطَامِ ... وَدَرْسِ الكَلَامِ وَمَيْنٍ يُصَاغُ
وَلَازِمْ تِلَاوَةَ خَيْرِ الكَلَامِ ... وَجَانِبْ أُنَاسًا عَنِ الحَقِّ زَاغُوا
وَلَا تُخْدَعَنْ عَنْ صَحِيحِ الحَدِيثِ ... فَمَا فِي مُحِقٍّ لِرَأْيٍ مَسَاغُ
وَمَا لِلتَّقِيِّ وَلِلْبَحْثِ فِي ... عُلُومِ الأَوَائِلِ يَوْمًا فَرَاغُ
بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ فَاسْمَعْ وَعِشْ ... قَنُوعًا فَمَا العَيْشُ إِلَّا بَلَاغُ

وبكلٍّ: فالرجلُ عُمْدةُ مَنْ جاء بَعْدَهُ من المؤرِّخينَ؛ ولذا تجدُ أكثرَ مَنْ أَلَّف بعدَهُ إنما بدؤوا من المئةِ الثامنةِ فما بَعْدُ، لِعِلْمِهم أنهم لن يأتوا بطائلٍ لو أَلَّفوا في القرونِ السبعةِ الأولى بعدَ أنْ أَلَّف فيها الذهبيُّ، والله أعلمُ[٢].

---

(١) «الوافي بالوفيات» (٢/ ١١٤ ـ ١١٥).

(٢) أحسَنُ مَنْ دَرَسَ حياة الإمام الذهبي ـ فيما أعلم ـ: الدكتور بَشَّار عَوَّاد معروف في كتابه العظيم: «الذهبي ومنهجه في كتاب تاريخ الإسلام».



ابن قيم الجوزية

(ت ٧٥١هـ)

الإمامُ العَلَمُ محمدُ بنُ أبي بَكْرِ بنِ أيوبَ بنِ سَعْدٍ الزُّرَعِيُّ الدمشقيُّ، شيخُ الإسلامِ الثاني، بعدَ ابنِ تيميَّةَ الحَرَّاني، وأحدُ كبارِ المجدِّدينَ والمُبْدِعِينَ من العلماءِ.

أُوتِيَ مَقْطعَ الحقِّ، ومَشْعَبَ السَّدَادِ، ومِفْصَلَ الصوابْ، وفصْلَ الخِطَابْ.

وَكَانَ مِنَ العُلُومِ بِحَيْثُ يُقْضَى ... لَهُ فِي كُلِّ عِلْمٍ بِالجَمِيعِ

تَلْمَذَ لشيخِ الاسلامِ ابنِ تيميَّةَ، واختَصَّ به، حتى يكادَ لا يَخْرُجُ عن شيءٍ مِنْ أقوالِهِ، وهو الذي هَذَّبَ عِلْمَهُ، وانتصَرَ له، ونشَرَهُ في الأُمَّةِ.

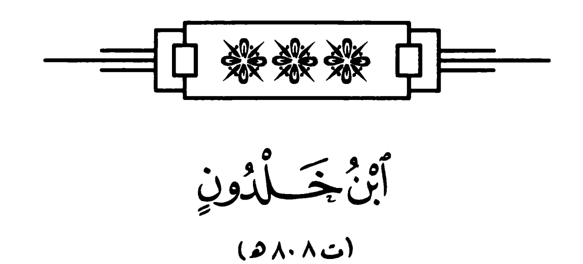
سُجِنَ مع شيخِهِ في قَلْعةِ دِمَشْقَ، وأُهِينَ وعُذِّب بسببِهِ، وطِيفَ به على جَمَلٍ مضروبًا بالعِصِيِّ، وأُطْلِقَ بعدَ مَوْتِ شيخِهِ.

له المصنَّفاتُ العظيمةُ التي ليس لها نظيرٌ في بابِها، والتي تَدُلُّ على مَلَكَاتٍ عِلْميةٍ هائلةٍ؛ **منها**: «إعلامُ الموقِّعينَ»، و«زادُ المَعَادِ»، وبهما اشْتَهَرَ وذاع صيتُهُ وساد، و«الطُّرقُ الحُكْميَّة، في السياسةِ الشرعيَّة»، و«شِفَاءُ العَلِيلْ، في مسائلِ القضاءِ والقَدَرِ والحِكْمةِ والتعليلْ»، و«أحكامُ أهلِ الذمَّةِ»، و«تحفةُ المودودْ بأحكامِ المولودْ»، و«مفتاحُ دارِ السَّعَادةِ»،

و«الصَّواعقُ المُرْسَلَة، على الجهميَّةِ والمعطِّلة»، و«الكافيةُ الشافيةُ» منظومةٌ طويلةٌ جِدًّا في العقائدِ، نظْمُها من أعذبِ النظمِ وأحلاه، و«مَدَارِجُ السالكينَ»، و«كتابُ الفروسيَّةِ»، و«الوابلُ الصَّيِّب من الكَلِمِ الطَّيِّب»، و«الرُّوحُ»، و«الفوائدُ»، و«رَوْضةُ المحبِّينَ»، و«حادي الأرواحِ، إلى بلادِ الأفراحِ»، و«إغاثةُ اللهفانِ»، و«اجتماعُ الجيوشِ الإسلامية، على غزوِ المعطِّلةِ والجهميَّة»، و«الجوابُ الكافي»، ويُسمَّى: «الداءَ والدواءَ»، و«طريقُ الهجرتَيْن»، و«عدة الصابرين»، و«هدايةُ الحيارى»، وغيرُها من المؤلَّفاتِ النفيسةِ التي ما زال العلماءُ وطلابُ العلمِ يَنْهَلُونَ منها حتى يَوْمِنا هذا[١].



(١) أعظم ما أُلِّفَ في سيرة هذا الإمام الجبل ـ حسب علمي ـ كتابُ «ابن قيِّم الجوزية حياته آثاره موارده» للشيخ بكر أبو زيد رحمه الله تعالى.



ابْنُ خَلْدُونِ

(ت ٨٠٨هـ)

عبدُ الرحمٰنِ بنُ محمَّدٍ الحَضْرَميُّ الإشبيليُّ الأصلِ التُّونُسِيُّ، المؤرِّخُ العظيمُ، صاحبُ المقدِّمةِ الشهيرةِ، التي صارت فيما بعدُ أشهرَ كتابٍ في عِلْمِ الاجتماعِ.

قال عنه ابنُ الخَطِيبِ: «رجلٌ فاضلٌ، جَمُّ الفضائلِ، رفيعُ القَدْرِ، أصيلُ المجدِ، وقورُ المَجْلِسِ، عالي الهِمَّةِ، قويُّ الجأشِ، متقدِّمٌ في فنونٍ عقليةٍ ونقليةٍ، متعدِّدُ المزايا، شديدُ البحثِ، كثيرُ الحفظِ، صحيحُ التصوُّرِ، بارعُ الخَطِّ، حَسَنُ العِشْرةِ، مَفْخَرةٌ من مفاخرِ المغربِ»[1].

وقال المَقْرِيزيُّ في وصفِ تاريخِهِ: «مقدِّمتُهُ لم نَعْلمْ مِثالَها، وإنه لعزيزٌ أن يَنالَ مُجْتهِدٌ مَنالَها؛ إذْ هي زُبْدةُ المعارفِ والعلومْ، ونتيجةُ العقولِ السليمةِ والفهومْ، تُوقفُ على كُنْهِ الأشياءْ، وتُعرِّفُ حقيقةَ الحوادثِ والأنباءْ، وتُعبِّرُ عن حالِ الوجودْ، وتُنْبِئُ عن أصلِ كلِّ موجودْ، بلفظٍ أبهى من الدُّرِّ النظيمْ، وألطفِ مِنَ الماءِ مَرَّ به النسيمْ»[2].

وقال ابنُ عَمَّارٍ ـ أحدُ الآخِذِينَ عنه ـ: «الأستاذُ المنوَّهُ بلسانِ سيفِ المحاضَرهْ، وسَحْبانُ أَدَبِ المحاضَرهْ، كان يَسْلكُ في إقرائِهِ الأصولَ مَسْلَكَ الأقدمينَ كالإمامِ الغَزَاليِّ والفخرِ الرازيِّ، مع الغضِّ والإنكارِ

---

(١) «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» (٦/ ١٧٢).

(٢) «درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة» (٢/ ٤٠٣).

على الطريقةِ المتأخِّرةِ التي أحدَثَها طَلَبةُ العجمِ ومَنْ تبعهم، في توغُّلِ المشاحَّةِ اللفظيهْ، والتسلسلِ في الحَدِّيَّةِ والرَّسْمِيَّهْ، اللَّذَيْنِ أثارهما العَضُدُ وأتباعُهُ في الحواشي عليه... وله من المؤلَّفاتِ غيرُ الإنشاءاتِ النثريةِ والشعريةِ التي هي كالسِّحْرِ: التاريخُ العظيمُ المُتَرْجَمُ بـ«العِبَرْ، في تاريخِ الملوكِ والأممِ والبَرْبَرْ»، حوَتْ مقدِّمتُهُ جميعَ العلومْ، وجَلَتْ عن مَحَجَّتِها ألسنةَ الفصحاءِ فلا تَرُوحُ ولا تَحُومْ، ولعمري إنْ هو إلَّا من المصنَّفاتِ التي سارَتْ أَلْقَابُها بخلافِ مضمونِها؛ كـ «الأَغَاني» للأَصْبَهانيِّ، سمَّاه الأغانيَ وفيه مِنْ كُلِّ شيءٍ، والتاريخِ للخطيبِ سمَّاه «تاريخَ بَغْدادَ» وهو تاريخُ العَالَم، و«حِلْيَةِ الأولياءِ» لأبي نُعَيْمٍ سمَّاه حِلْيَةَ الأولياءِ وفيه أشياءُ جمةٌ كثيرةٌ»[١].

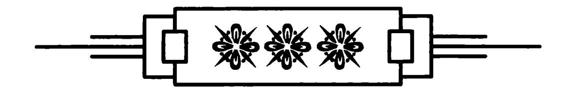
وقال الأستاذُ أحمدُ الزُّعْبيُّ في مقدِّمةِ تحقيقِهِ لمقدِّمةِ ابنِ خَلْدون:
«يَحْتَلُّ ابنُ خَلْدون في التراثِ العربيِّ الإسلاميِّ، وفي الفِكْرِ الغَرْبيِّ المُعاصِرِ؛ مكانةً متميِّزةً، ويُنظَرُ إليه على أنه صاحبُ رؤيةٍ حضاريةٍ خاصَّةٍ، سيَّما فيما يَتعلَّقُ بدراسةِ التاريخِ البَشَريِّ والمجتمعِ الإنسانيِّ، والعمرانِ الحضاريِّ... ويشارُ إلى ابنِ خَلْدون في مُناسَباتٍ عديدةٍ باعتبارِهِ صاحبَ منهجيَّةٍ في النظرِ والتفكيرِ، والبحثِ والتفسيرِ، مَثَّلَتْ في زمانِهِ قَفْزةً إبداعيةً متميِّزةً، ووُصِفَتْ بعضُ إنجازاتِهِ بأنها غيرُ مسبوقةٍ، باعتبارِهِ مُؤسِّسَها وأنها لم تَكُنْ معروفةً قبلَهُ»[٢].

---

(١) **ينظر**: «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» (٤/١٤٨ ـ ١٤٩).

(٢) **انظر ترجمته بالتفصيل في**: مقدمة الدكتور علي عبد الواحد وافي لكتاب: «مقدِّمة ابن خلدون».

تنبيه: ندَّت بعضُ الأغلاط والأخطاء في مقدِّمة ابن خلدون، وسوف أنبِّه عليها في بحثٍ خاصٍّ، إن شاء الله تعالى.



الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيُّ

(ت ٨٥٢هـ)

أحمدُ بنُ عليِّ بنِ محمدٍ الكِنَانيُّ أبو الفضل، من أئمَّةِ العلمِ والتاريخِ، وحُفَّاظِ الحديثِ الكبارِ، بل هو خاتمتُهم، وَلِعَ بالأدبِ والشعرِ في أولِ أمرِهِ، ثم أقبَلَ على الحديثِ، ورحَلَ إلى اليمنِ والحجازِ والشامِ وغيرِها لسماعِ الشيوخِ، وذاعتْ شُهْرَتُهُ، فقصده الناسُ للأخذِ عنه، وأصبَحَ حافظَ الإسلامِ في عصرِهِ[1].

له المصنَّفاتُ العظيمةُ التي سارت مَسِيرَ الشَّمْسِ، والتي أبدَعَ في تأليفِها غايةَ الإبداعِ، لا سيَّما كتابُهُ الحفيلُ الجليلُ: «فتحُ الباري»، الذي لم يُشْرَحْ «صحيحُ البخاريِّ» بمثلِهِ، وكذا كتابُهُ العُجَابُ: «الإصابة، في تمييزِ أسماءِ الصحابة»، الذي مكَثَ في تصنيفِهِ أربعينَ سنةً!!

قال السَّخَاويُّ: «انتشَرَتْ مصنَّفاتُهُ في حياتِهِ، وتهادَتْها الملوكُ،

---

(١) **طَرِيفةٌ**: كنتُ يومًا ـ بحكم موافقة اسمي لاسم الحافظ، وميلي للأدب أول الأمر مثله، واختصاصي بالحديث بعد ذلك ـ أتشبَّه به في الكُنية واللقب، وأحاول جهدي أخذ مآخذه في العلم والبحث، ولكن هيهات هيهات!! وأين الثرى من الثُّريَّا؟!

وَكَمْ مِنْ سَمِيٍّ لَيْسَ مِثْلَ سَمِيِّهِ ... وَإِنْ كَانَ يُدْعَى بِاسْمِهِ فَيُجِيبُ!!

ولهذا قلتُ:

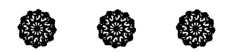
أَشْبَهَنِي الشَّيْخُ وَأَشْبَهْتُهُ ... فِي الإِسْمِ وَالعِلْمِ وَحُبِّ الأَدَبْ

لَكِنَّنِي أَقْصُرُ عَنْ شَأْوِهِ ... لِأَنَّهُ قَدْ حَازَ أَعْلَى الرُّتَبْ!

وكَتَبها الأكابرُ»[١].

ومن هذه المصنَّفاتِ: «الدُّرَرُ الكامنة، في أعيانِ المئةِ الثامنة»، و«لسانُ المِيزَانِ»، و«الكافي الشافْ، في تخريجِ أحاديثِ الكشافْ»، و«تقريبُ التهذيبِ»، و«تهذيبُ التهذيبِ»، و«تعجيلُ المنفعة، بزوائدِ رجالِ الأئمةِ الأربعة»، و«تعريفُ أهلِ التقديسِ»، و«بلوغُ المرامْ، من أدلةِ الأحكامْ»، و«المَجْمَعُ المؤسَّسْ، بالمعجمِ المُفَهْرَسْ»، و«نزهةُ النَّظَرْ، في توضيحِ نخبةِ الفكَرْ»، و«تبصيرُ المُنْتَبِهْ، بتحريرِ المشتَبِهْ»، و«رَفْعُ الإِصْرْ، عن قضاةِ مِصْرْ»، و«إنباءُ الغُمْرْ، بأبناء العُمْرْ»، و«إتحافُ المَهَرَة، بأطرافِ العَشَرة»، و«التلخيصُ الحبيرْ، في تخريجِ أحاديثِ الرافعيِّ الكبيرْ»، وغيرُها من المصنَّفاتِ الجليلةِ.

وقد بلغتْ مؤلَّفاتُهُ كما ذَكَر الدكتورُ شاكر محمود عبد المنعم[٢]: اثنين وثمانين ومئتي مصنَّفٍ!!



---

(١) لتلميذه السخاوي كتاب مطوَّل في ترجمته سماه: «الجواهر والدرر، في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر»؛ فليراجع.

(٢) **انظر**: كتابه «ابن حجر العسقلاني مصنَّفاته ودراسة في منهجه وموارده في كتابه الإصابة» (١/ ١٧٣ ـ ٣٨٦).



الخاتمة

وتتضمن أهم النتائج والتوصيات

في نهايةِ المَطَافِ، أشكُرُ اللهَ ﷻ على ما مَنَّ به عليَّ مِنْ إتمامِ هذا العَمَلِ الشائِكِ المُضْنِي، الذي أخَذَ من عُمْري سنينَ عَدَدًا، ونَزَفَ من وقتي ـ مع شِدَّةِ ضَنِّي به ـ مُدَدًا ومُدَدًا، مذكِّرًا هنا ببعضِ النتائجِ والتوصياتِ التي توصَّلْتُ إليها من خلالِ هذا البحثِ:

١ ـ **أنَّ الإبداعَ العِلْميَّ هو أحدُ الأسبابِ الرئيسةِ للخروجِ بالأمةِ من الذِّلَّةِ والضعفِ والتخلُّفِ** الذي حاق بها منذُ أَمَدٍ، بل إنه مِنْ أعظمِ ألوانِ الجهادِ، وأقوى أسلحتِهِ، وأشَدِّها مَضَاءً في هذا العصرِ.

٢ ـ **أنَّ الإبداعَ في فَنٍّ أو مجالٍ لا يَلْزَمُ منه الإبداعُ في بقيةِ الفنونِ والمجالاتِ الأخرى؛** فينبغي أن يُدْرِكَ الحريصُ على وقتِهِ هذا الأمرَ مبكِّرًا؛ حتى لا يُضيِّعَ وَقْتَهُ في أمرٍ يَعْلَمُ أو يَظُنُّ أنه لن يُفْلِحَ فيه، وقد جَعَل اللهُ لكلِّ شيءٍ قَدْرًا.

٣ ـ **أنَّ الإبداعَ ـ من حيثُ هو ـ أنواعٌ وأقسامٌ ومستوياتٌ كثيرةٌ،** منها النافعُ والضارُّ، والعسيرُ واليسيرُ، والعامُّ والخاصُّ... إلخ.

٤ ـ **أنَّ الإبداعَ لا بدَّ له من أسسٍ يقومُ عليها،** ولا يُتصوَّرُ وجودُ مُبْدِعٍ دونها، وهذه الأُسُسُ هي: القُوَّةُ العقليَّةُ، والقوَّةُ النَّفْسيةُ، والقُوَّةُ الجَسَديَّةُ، وأهمُّها هي الأولى، والبقيةُ تَبَعٌ لها.

٥ ـ **أنَّ مِنْ ركائزِ الإبداعِ المهمَّةِ: الشجاعةَ الأدبيةَ**؛ إذِ الإبداعُ في حَدِّ ذاتِهِ هو لَوْنٌ من ألوانِ الشجاعةِ؛ لأنه شيءٌ جديدٌ على الناسِ، والعُرْفُ السائدُ لا تَأْلَفُهُ النُّفوسُ، ولا تَقْبلُهُ العقولُ، إلا بعدَ جُهْدٍ جهيدٍ، ووقتٍ طويلٍ.

٦ ـ **أهميةُ التخصُّصِ الدقيقِ في عمليةِ الإبداعِ العِلْميِّ**؛ ذلك لأنَّ طولَ الممارسةِ لفنٍّ مَّا، أو مسألةٍ معيّنةٍ، والانكبابَ على دراستِها، واستفراغَ الوسعِ في ذلك كفيلٌ بأنْ يُولِّدَ الإبداعَ، ويُنْتِجَ التفوُّقَ.

٧ ـ **أن الإبداعَ لا بدَّ لتحقُّقِهِ من أمرين: أولُهما**: سعةُ الاطِّلاعِ وكثرةُ البحثِ، **وثانيهما**: دقةُ الملاحظةِ وطُولُ التأمُّلِ.

٨ ـ **أنَّ مِنَ الأمورِ المهمَّةِ المنتجةِ للإبداعِ التصوُّرَ الصحيحَ للفَنِّ والتخطيطَ السليمَ له**؛ لأنَّ العملَ في شيءٍ مّا دُونَ تصوُّرٍ صحيحٍ وتخطيطٍ سليمٍ؛ محكومٌ عليه بالفشلِ في الغالبِ.

٩ ـ **أنَّ الواجبَ على الدولِ الإسلاميةِ أنْ تَعْتَنِيَ أشدَّ العنايةِ بالمُبْدِعِينَ، وتُوفِّرَ لهم الجَوَّ العِلْميَّ الكاملَ**؛ مع توفيرِ الضروريَّاتِ والحاجيَّاتِ والكماليَّاتِ الشخصيةِ لهم؛ حتى يستطيعوا إنجازَ ما لديهم من مشاريعَ وطموحاتٍ؛ وذلك مِنْ أجلِ النهوضِ بِأُمَّتِهم التي ما زالت تَقْبَعُ في مؤخِّرةِ الركبِ الحضاريِّ. . .

وحَسْبُكَ أنْ تَعْلَمَ أنه قد أُجْرِيَتْ دراسةٌ مُؤخّرًا لأفضلِ خمسِ مئةِ جامعةٍ على مستوى العالم، فلم يُذْكَرْ في تلك القائمةِ الطويلةِ أيةُ جامعةٍ عربيةٍ!! على حينَ أنَّ ما تُسمَّى دولةَ إسرائيلَ ـ رُغْمَ حَداثَتِها ـ قد ورَدَ في الدراسةِ ذِكْرُ أسماءِ ثلاثِ جامعاتٍ فيها!!

١٠ ـ **إنشاءُ مراكزَ للإبداعِ العلميِّ في كلِّ مدينةٍ من مُدُنِ العالمِ الإسلاميِّ تكونُ مُنْضَويَةً تحتَ منظَّمةٍ أو مؤسَّسةٍ عامَّةٍ**، بشرطِ أن يُوفَّرَ لها

الدعمُ الكاملُ والسخيُّ؛ من أجلِ تشجيعِ المُبْدِعِينَ والأخذِ بأيديهم، بدلًا مِنْ أنْ تُهَاجِرَ تلك العقولُ الكبيرةُ لبلادِ الكُفْرِ، فيستفيدَ منها الأعداءُ، وقد تُجَنَّدُ ضدَّنا بطريقةٍ أو بأخرى، والمستفيدُ أو الخاسرُ مِنْ ذلك كُلِّهِ - في نهايةِ الأمرِ - هو الأمةُ الإسلاميةُ كلُّها.

١١ - عَقْدُ مُؤْتَمَراتٍ مكثّفةٍ تجمعُ المُبْدِعِينَ من جميعِ أرجاءِ العالمِ، لمناقشةِ قضايا الإبداعِ العلميِّ وكيفيةِ تفعيلِهِ والنهوضِ به في واقعِ الأمةِ.

١٢ - إقامةُ مُسابَقَاتٍ متنوِّعةٍ في جميعِ حقولِ المعرفةِ التي تحتاجُ إليها الأمةُ، ورَصْدُ جوائزَ ضَخْمةٍ لها، وقَصْرُ تلك الجوائزِ على المُبْدِعِينَ من أبناءِ العالمِ الإسلاميِّ فقط.

١٣ - استقطابُ الكوادرِ العلميَّةِ العاليةِ في مُخْتَلِفِ العلومِ والمعارفِ مِنْ جميعِ أرجاءِ المعمورةِ، لا سيَّما أهلُ الخِبْراتِ الدقيقةِ منهم، وإغراؤُهم بالحوافزِ الماديَّةِ؛ مِنْ أجلِ تطويرِ البرامجِ الإبداعيةِ التي تحتاجُ إليها الأمةُ في الوقتِ الراهنِ، ووَضْعُ الإستراتيجياتِ اللازمةِ لذلك على المَدَى البعيدِ.

١٤ - تذليلُ جميعِ العَقَباتِ والعوائقِ أمامَ عمليَّةِ الإبداعِ والمُبْدِعِينَ؛ سواءٌ العامَّةُ منها أو الخاصَّةُ.

وختامًا: فإنَّ هذه المَعَالمَ أَضَعُها بين يديك - يا طالبَ العِلْمِ - تُنيرُ لك الطريقَ، وتُوضِّحُ لك السَّبيلَ، وتُحدِّدُ لك الاتجاهَ في المَسِيرِ، وتكونُ عَوْنًا وسَنَدًا لك على الإبداعِ والتحصيلِ، لم آلُ فيها جُهْدًا، ولم أَدَّخِرْ فيها وُسْعًا.

استَخْلَصْتُ عناصرَها مِنْ مَعِينِ الذاكرهْ؛ فهي عُصَارةُ أفكارْ، وجمَعْتُ مَادَّتَها بالقراءةِ والمُذاكَرهْ؛ فهي خُلاصَةُ نَظَرٍ وقراءةِ أَسْفَارْ،

لم أَقْصِدْ في جَمْعِها تَنَبُّلًا على الخَلْق، ولا تَزَيُّدًا فيما ليسَ بِحَقٌ، وإنما أَردتُّ النُّصْحَ ما استَطَعْتُ، والتمحيصَ ما قَدَرْتُ، والعلمُ أمانةٌ مَنْ حَمَلَها فقد حَمَل إِدًّا، وتَجشَّمَ بَهْرًا، وإنَّ له ذِمَامًا كذِمَامِ النَّسَبِ.

راجيًا أنْ تَلْقَى هذه المَعَالِمُ والرُّؤَى آذانًا صَاغِيَهْ، وقلوبًا واعِيَهْ، ونفوسًا طَامِحَهْ، وعقولًا رَاجِحَهْ، حتى نَلْمَسَ الإبداعَ، ونَحُسَّ التفوقَ، وليس ذلك بعيدَ المَنَالِ لمن واصَلَ السَّيْرَ وأَجَدَّ الرَّكْضَ:

فَمَا هِيَ إِلَّا سَاعَةٌ ثُمَّ تَنْقَضِي ... وَيَحْمَدُ غِبَّ السَّيْرِ مَنْ هُوَ سَائِرُ

فالجِدَّ الجِدَّ، والمُبادَرَةَ المُبادَرَةَ؛ فإنَّ الشمسَ تجري، والساعاتِ تمضي، والأيامَ تَمُرُّ كلمحٍ بالبَصَرِ أو هي أسرعُ!

متمثِّلًا هنا بِبَيْتَيْنِ ذَيَّلَ بهما لَقِيطُ بنُ يَعْمُرَ الإياديُّ قصيدتَهُ المشهورة التي مَطْلَعُها:

يَا دَارَ عَمْرَةَ مِنْ مُحْتَلِّهَا الجَرَعَا ... هَاجَتْ لِيَ الهَمَّ وَالأَحْزَانَ وَالوَجَعَا

والتي أنذَرَ فيها قَوْمَهُ غَزْوَ كِسْرَى ذي الأَكْتَافِ، فكانتْ سببًا في قَطْعِ لِسَانِهِ!

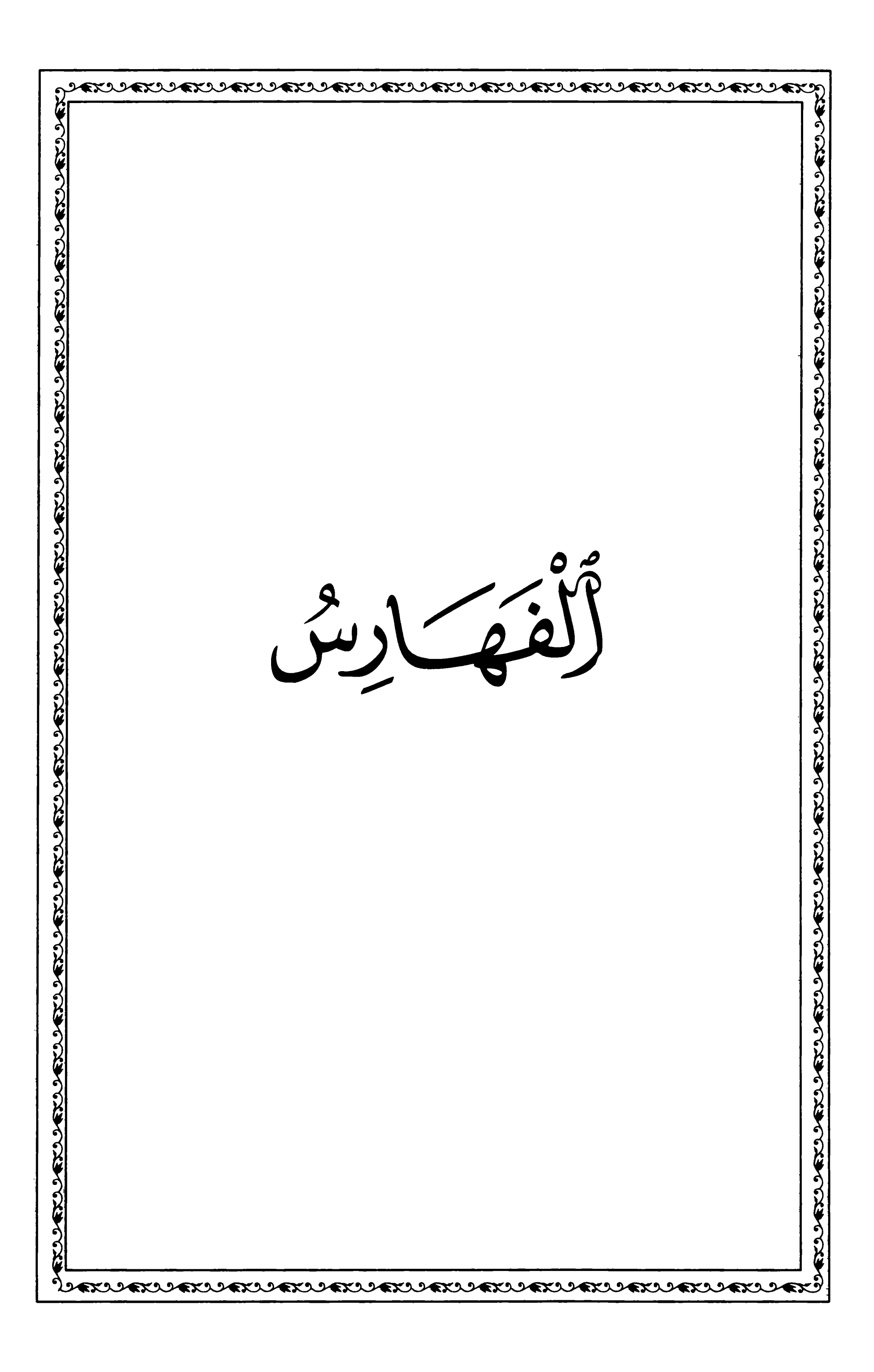
يقولُ لَقِيطٌ:

لَقَدْ بَذَلْتُ لَكُمْ نُصْحِي بِلَا دَخَلٍ ... فَاسْتَيْقِظُوا إِنَّ خَيْرَ العِلْمِ مَا نَفَعَا

هَذَا كِتَابِي إِلَيْكُمْ وَالنَّذِيرُ لَكُمْ ... لِمَنْ رَأَى رَأْيَهُ مِنْكُمْ وَمَنْ سَمِعَا

سائلًا المولى تبارك وتعالى أَنْ يَزِيدَني وإيَّاكُم توفيقًا وهُدًى، وأنْ يَأْخُذَ بأيدينا جميعًا إلى ما فيه رِفْعَةُ الإسلامِ وعِزُّهُ ونَصْرُهُ؛ إنَّه على ذلك قدير، وبالإجابةِ جدير.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصَحْبِهِ وسَلَّمَ.



اَلْفَهَارِسُ



ثبت بأهم المصادر والمراجع(١)

١ - القرآن الكريم.

٢ - آداب الشافعي ومناقبه: للرازي، تحقيق: عبد الغني عبد الخالق، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣ - الآداب الشرعية: لابن مفلح المقدسي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعمر القيام، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٧هـ.

٤ - الإبداع في التربية والتعليم: لآرثر كروبلي، ترجمة: إبراهيم الحارثي، ومحمد مقبل.

٥ - الإبداع في الفن والعلم: لحسن أحمد عيسى، ط. دار المعرفة، الكويت.

٦ - ابن قيِّم الجوزية؛ حياته آثاره موارده: لبكر أبو زيد، دار العاصمة، السعودية، ط١، ١٤١٢هـ.

٧ - ابن حجر العسقلاني مصنَّفاته ودراسة في منهجه وموارده في كتابه الإصابة: لشاكر محمود عبد المنعم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ.

٨ - ابن حزم: لمحمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، بيروت.

٩ - الإحاطة، في أخبار غرناطة: لمحمد بن عبد الله بن سعيد السلماني الشهير بلسان الدين ابن الخطيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ.

١٠ - أحكام القرآن: لابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت.

١١ - إحياء علوم الدين: للغزالي، دار المعرفة، بيروت.

١٢ - الأدب الأندلسي: لمصطفى الشَّكْعة، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨٣م.

---

(١) أثبتُّ فيه ما تكرَّر الرجوع إليه - في الغالب - خشية الطول.

١٣ ـ أدب الدنيا والدين: للماوردي، تحقيق: محمد فتحي أبو بكر، الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٤٠٨هـ.
١٤ ـ أدب الطلب: للشوكاني، تحقيق: يوسف بديوي، وحسن سويدان، دار اليمامة، دمشق ـ بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.
١٥ ـ الأدب الكبير: لعبد الله بن المقفع، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٠هـ.
١٦ ـ أدب الكتاب: للصولي، دار الباز، مكة المكرمة.
* **الأرجوزة في الطب** = من مؤلَّفات ابن سينا الطبية.
١٧ ـ أزهار الرياض، في أخبار القاضي عياض: لشهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى، أبي العباس المَقَّرِيّ التلمساني، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م.
١٨ ـ الاستيعاب، في معرفة الأصحاب: ليوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.
١٩ ـ أسد الغابة: لعلي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ.
٢٠ ـ الأسرار المرفوعة: للملا علي قاري، تحقيق: محمد لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٦هـ.
٢١ ـ أشراط الساعة: ليوسف الوابل، مكتبة ابن الجوزي، الدمام، ط١، ١٤٠٩هـ.
٢٢ ـ الأعلام: للزِّرِكْلِيّ، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٨٤م.
٢٣ ـ إكمال المُعْلِم، بفوائد مسلم: للقاضي عياض اليحصبي، تحقيق: يحيى إسماعيل، دار الوفاء، المنصورة، ط١، ١٤١٩هـ.
٢٤ ـ الإلماع: للقاضي عياض اليحصبي، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط٢، ١٣٩٨هـ.
٢٥ ـ الأمنية، في إدراك النية: للقرافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.
٢٦ ـ إنباه الرواة: للقِفْطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط١، ١٤٠٦هـ.
٢٧ ـ الانتقاء، في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء: لابن عبد البر، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٨ ـ الباعث، على إنكار البدع والحوادث: لأبي شامة المقدسي، تحقيق: مشهور سلمان، دار الراية، الرياض، ط١، ١٤١٠هـ.

٢٩ ـ بدائع البدائه: لعلي بن ظافر بن حسين الأزدي، مصر، سنة ١٨٦١م.

٣٠ ـ البداية والنهاية: لابن كثير، تحقيق: أحمد ملحم وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣١ ـ البدر الطالع: للشوكاني، دار المعرفة، بيروت.

٣٢ ـ البدر المنير، في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير: لسراج الدين ابن الملقِّن، تحقيق: مصطفى أبو الغيط، وعبد الله بن سليمان، وياسر بن كمال، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط١، ١٤٢٥هـ.

٣٣ ـ كتاب بغداد: لأحمد بن أبي طاهر ابن طيفور، تحقيق: السيد عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط٣، ١٤٢٣هـ.

٣٤ ـ بغية الملتمس: للضبي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري واللبناني، القاهرة وبيروت، ط١، ١٤١٠هـ.

٣٥ ـ بغية الوعاة: للسيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت.

٣٦ ـ البلدان: لليعقوبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

٣٧ ـ البلغة، في تراجم أئمة النحو واللغة: لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢١هـ.

٣٨ ـ بيان الوهم والإيهام، في كتاب الأحكام: لأبي الحسن ابن القطان، تحقيق: د. الحسين آيت سعيد، دار طيبة، الرياض، ط١، ١٤١٨هـ.

٣٩ ـ تاريخ ابن الوردي: لعمر بن مظفَّر بن عمر زين الدين ابن الوردي المعري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ.

٤٠ ـ تاريخ الأدب الجغرافي العربي: لكراتشكوفسكي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ.

٤١ ـ تاريخ الإسلام، ووفيات المشاهير والأعلام: لمحمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤١٣هـ.

٤٢ ـ تاريخ افتتاح الأندلس: لابن القوطية، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري واللبناني، القاهرة وبيروت، ط٢، ١٤١٠هـ.

٤٣ ـ **تاريخ بغداد**: للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٤ ـ **تاريخ دمشق**: لعلي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ.

٤٥ ـ **تاريخ علماء الأندلس**: لابن الفرضي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري واللبناني، القاهرة وبيروت، ط٢، ١٤١٠هـ.

٤٦ ـ **تاريخ فنون الحديث النبوي**: لمحمد عبد العزيز الخولي، تحقيق: محمود الأرناؤوط، ومحمد القهوجي، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ.

٤٧ ـ **التبيان، في شرح الديوان**: المنسوب للعكبري، تحقيق: مصطفى السقا وزميليه، دار المعرفة، بيروت.

٤٨ ـ **تحاسد العلماء**: عبد الله بن حسين الموجان، دار المنارة، جدة، ط١، ١٤١٩هـ.

٤٩ ـ **تحت راية القرآن**: للرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٧، ١٣٩٤هـ.

٥٠ ـ **تحرير التحبير، في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن**: لعبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، تحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي.

٥١ ـ **تحفة الأحوذي**: للمباركفوري، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر، ط٣، ١٣٩٩هـ.

٥٢ ـ **تذكرة الحفاظ**: للذهبي، تحقيق: عبد الرحمٰن المعلِّمي، دار إحياء التراث العربي.

٥٣ ـ **التذكرة الحَمْدونية**: لمحمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حَمْدون البغدادي، دار صادر، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ.

٥٤ ـ **تذكرة السامع والمتكلم**: لابن جماعة، تحقيق: محمد هاشم الندوي، رمادي للنشر، ط١، ١٤١٥هـ.

٥٥ ـ **التراتيب الإدارية**: لعبد الحي الكتاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٥٦ ـ **ترتيب المدارك**: للقاضي عياض اليحصبي، وزارة الأوقاف المغربية.

٥٧ ـ **التعالم**: لبكر أبو زيد، دار العاصمة، الرياض، ط٤، ١٤١٨هـ.

٥٨ ـ **التقييد، لمعرفة رواة السنن والمسانيد**: لابن نُقْطة الحنبلي البغدادي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨هـ.

٥٩ ـ **التلقين في الفقه المالكي**: لعبد الوهاب المالكي، تحقيق: محمد ثالث سعيد الغاني، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ.
٦٠ ـ **التنبئة، بمن يبعثه الله على رأس كل مئة**: للسيوطي، دار الثقة، مكة المكرمة، ١٤١٠هـ.
٦١ ـ **التنبيه والإشراف**: لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي، تصحيح: عبد الله إسماعيل الصاوي، دار الصاوي، القاهرة.
٦٢ ـ **التنبيه على حدوث التصحيف**: لحمزة بن الحسن الأصفهاني، تحقيق: محمد أسعد طلس، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٤١٢هـ.
٦٣ ـ **تهذيب الكمال**: للمِزِّيِّ، تحقيق: بَشَّار عَوَّاد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ.
٦٤ ـ **التوقيف، على مهمات التعريف**: للمناوي، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١٠هـ.
٦٥ ـ **جامع بيان العلم**: لابن عبد البر، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الدمام، ط٤، ١٤١٩هـ.
٦٦ ـ **الجامع لشعب الإيمان**: للبيهقي، تحقيق: عبد العلي حامد، الدار السلفية، الهند، ط١، ١٤٠٦هـ.
٦٧ ـ **جذوة المقتبس**: للحميدي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري واللبناني، القاهرة وبيروت، ط٢، ١٤١٠هـ.
٦٨ ـ **الجواهر المضية**: للقرشي، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، دار هجر، ط٢، ١٤١٣هـ.
٦٩ ـ **حاشية لقط الدرر، بشرح متن نخبة الفكر**: للعدوي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط١، ١٣٥٦هـ.
٧٠ ـ **الحاوي للفتاوى**: للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢هـ.
* **الحبل الوثيق، في نصرة الصِّدِّيق** = الحاوي للفتاوي.
٧١ ـ **حسن المحاضرة، في تاريخ مصر والقاهرة**: لعبد الرحمٰن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، ط١، ١٣٨٧هـ.
٧٢ ـ **حكمة الإشراق، إلى كُتَّاب الآفاق**: للزبيدي، تحقيق: محمد طلحة بلال، دار المدني، ط١، ١٤١١هـ.
٧٣ ـ **حلية الأولياء**: للأصبهاني، دار الكتاب العربي، ط٥، ١٤٠٧هـ.

٧٤ ـ **حلية البشر، في تاريخ القرن الثالث عشر**: للبيطار، تحقيق: محمد بهجة البيطار، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٣٨٢هـ.
٧٥ ـ **حلية طالب العلم**: لبكر أبو زيد، دار العاصمة، الرياض، ط٥، ١٤١٥هـ.
٧٦ ـ **الحماسة السَّنِيَّة، الكاملة المَزِيَّة، في الرِّحْلَةِ العلميَّةِ الشَّنْقيطية التُّرْكُزِيَّة**: لمحمد محمود بن التلاميد التُّرْكُزي، الدار العمرية، بدون تاريخ.
٧٧ ـ **الحماسة المغربية**: لأحمد بن عبد السلام الجراوي التادلي، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩١م.
٧٨ ـ **خزانة الأدب، وغاية الأرب**: لعلي بن عبد الله الحَمَوي، تحقيق: عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.
٧٩ ـ **الخصائص**: لعثمان بن جني الموصلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤.
٨٠ ـ **درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة**: لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي، تحقيق: د. محمود الجليلي، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٢٣هـ.
٨١ ـ **الدرر السَّنِيَّة، في الأجوبة النَّجْدِيَّة**: جمع: عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم، ط٦، ١٤١٧هـ.
٨٢ ـ **الدرر الكامنة**: لابن حجر، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٨٣ ـ **دلائل الإعجاز**: لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، ط٢، ١٤١٠هـ.
٨٤ ـ **دليل الإعراب والإملاء**: لأحمد أبو سعد، وحسين شرارة، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٨٣م.
٨٥ ـ **دول العرب وعظماء الإسلام**: لأحمد شوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٧٠م.
٨٦ ـ **الديباج المذهب**: لابن فرحون، دار الكتب العلمية، بيروت.
٨٧ ـ **ديوان أبي تمام، بشرح الخطيب التبريزي**: تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف، مصر، ١٩٦٤م.
٨٨ ـ **ديوان الشافعي**: تحقيق: مجاهد مصطفى بهجت، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٢٠هـ.
٨٩ ـ **الذريعة، إلى مكارم الشريعة**: للراغب الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٠هـ.

٩٠ ـ **الذخيرة، في محاسن أهل الجزيرة**: لعلي بن بسام الشنتريني، تحقيق: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ط١.
٩١ ـ **الذيل على طبقات الحنابلة**: لابن رجب الحنبلي، دار المعرفة، بيروت.
٩٢ ـ **رباعيات مختارة**: لإلياس قنصل، دار الرفاعي، الرياض، ط٢، ١٤٠٢هـ.
٩٣ ـ **ربيع الأبرار ونصوص الأخبار**: لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.
٩٤ ـ **رحلة ابن جبير**: دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٤هـ.
٩٥ ـ **رحلة الشتاء والصيف**: لمحمد بن عبد الله بن محمد الحمزي الحسيني، تحقيق: الأستاذ محمد سعيد الطنطاوي، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٣٨٥هـ.
٩٦ ـ **رسائل ابن حزم الأندلسي**، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢، ١٩٨٧م.
٩٧ ـ **رسائل الجاحظ**: تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.
٩٨ ـ **الرسالة المستطرفة**: للكتاني، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٤، ١٤٠٦هـ.
* **رسالة في فضل الأندلس** = رسائل ابن حزم الأندلسي.
٩٩ ـ **روح المعاني**: للآلوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٠٠ ـ **روض الأخيار، المنتخب من ربيع الأبرار**: لمحمد بن قاسم بن يعقوب الأماسي، دار القلم العربي، حلب، ط١، ١٤٢٣هـ.
١٠١ ـ **الروض المعطار**: للحميري، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.
١٠٢ ـ **زهر الأكَم، في الأمثال والحِكَم**: للحسن بن مسعود بن محمد اليُوسِيّ، تحقيق: د. محمد حجي، د. محمد الأخضر، الشركة الجديدة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ١٤٠١هـ.
١٠٣ ـ **السلسلة الصحيحة**: للألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤١٥هـ.
١٠٤ ـ **سلك الدرر، في أعيان القرن الثاني عشر**: للمرادي، دار ابن حزم، بيروت، ط٣، ١٤٠٨هـ.
١٠٥ ـ **سمط النجوم العوالي، في أنباء الأوائل والتوالي**: لعبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

١٠٦ ـ **سنن ابن ماجه**: تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية، تركيا.
١٠٧ ـ **سنن الترمذي**: تحقيق: أحمد شاكر وآخرين، دار الباز، مكة المكرمة.
١٠٨ ـ **السنن الكبرى**: للبيهقي، دار المعرفة، بيروت.
١٠٩ ـ **سير أعلام النبلاء**: للذهبي، تحقيق: مكتب التحقيق بمؤسسة الرسالة، بيروت.
١١٠ ـ **سير السلف الصالحين**: لإسماعيل بن محمد الأصبهاني الملقَّب بقوام السُّنَّة، تحقيق: د. كرم بن حلمي بن فرحات، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض.
١١١ ـ **شذرات الذهب**: لابن العماد، دار الكتب العلمية، بيروت.
١١٢ ـ **شرح العقيدة الطحاوية**: لابن أبي العز الدمشقي، تحقيق: عبد الله التركي وشعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٨هـ.
١١٣ ـ **شرح الكوكب المنير**: لابن النجار، تحقيق: محمد الزحيلي، ونزيه حماد، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٠هـ.
١١٤ ـ **الشعر والشعراء**: لابن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٥هـ.
١١٥ ـ **شفاء الغرام، بأخبار البلد الحرام**: لمحمد بن أحمد الفاسي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هـ.
١١٦ ـ **الشوقيَّات**: لأحمد شوقي، تعليق: يحيى شامي، دار الفكر العربي، ط١، ١٩٩٦م.
١١٧ ـ **الصارم المسلول**: لابن تيمية، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، ١٤٠٢هـ.
١١٨ ـ **صحيح الأدب المفرد**: للألباني، دار الصديق، الأردن، ط١، ١٤١٤هـ.
١١٩ ـ **صحيح البخاري**: تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير واليمامة، دمشق، ط٤، ١٤١٠هـ.
١٢٠ ـ **صحيح مسلم**: تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، مصر.
١٢١ ـ **صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل**: لعبد الفتاح أبو غُدَّة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٣، ١٤١٣هـ.
١٢٢ ـ **الصلة في تاريخ أئمة الأندلس**: لخلف بن عبد الملك بن بَشْكُوَال، عُنِيَ بنشره وصحَّحه: عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، ط٢، ١٣٧٤هـ.
١٢٣ ـ **صورة الأرض**: لابن حَوْقَل البغدادي، دار صادر، أفست ليدن، بيروت، ١٩٣٨م.

١٢٤ ـ **صيد الخاطر**: لابن الجوزي، تحقيق: عامر علي ياسين، دار ابن خزيمة، ط١، ١٤١٨هـ.
١٢٥ ـ **الضوء اللامع، لأهل القرن التاسع**: للسخاوي، دار مكتبة الحياة، بيروت.
١٢٦ ـ **الطب النبوي**: للذهبي، تحقيق: د. محمد عبد الرحمٰن المرعشلي، دار النفائس، ط١، ١٤٢٥هـ.
١٢٧ ـ **طبقات الحنابلة**: لمحمد بن أبي يعلى، دار المعرفة، بيروت.
١٢٨ ـ **طبقات الشافعية الكبرى**: للسبكي، تحقيق: محمود الطناحي، وعبد الفتاح الحلو، هجر للطباعة والنشر، مصر، ط٢، ١٤١٣هـ.
١٢٩ ـ **طبقات الشعراء**: لابن المعتز، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، ط٤.
١٣٠ ـ **طبقات الفقهاء الشافعية**: لابن الصلاح، تحقيق: محيي الدين علي نجيب، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.
١٣١ ـ **طبقات المفسِّرين**: للداودي، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤١٥هـ.
١٣٢ ـ **طبقات النحويين واللغويين**: للزُّبَيْدي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٢.
١٣٣ ـ **الطِّراز**: للعلوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٠هـ.
١٣٤ ـ **الطريق إلى العبقرية**: لمقداد يالجن، دار الهدى، الرياض، ط١، ١٤٠٧هـ.
١٣٥ ـ **الطيوريات**: انتخاب أبي طاهر السِّلَفي، من أصول المبارك بن عبد الجبار الصيرفي الطيوري، دراسة وتحقيق: دسمان يحيى معالي، عباس صخر الحسن، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ط١، ١٤٢٥هـ.
١٣٦ ـ **العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية**: للشيخ علي بن الحسن الخزرجي، عني بتصحيحه وتنقيحه: الشيخ محمد بسيوني عسل، مطبعة الهلال بالفجالة، مصر، ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٤م.
١٣٧ ـ **العلم وبناء الأمم**: للدكتور راغب السرجاني، مؤسسة اقرأ، ط١، ١٤٢٨هـ.
١٣٨ ـ **علوم الحديث**: لابن الصلاح، تحقيق: نور الدين عتر، دار الفكر، دمشق، ط٣، ١٤٠٤هـ.
١٣٩ ـ **عنوان الشرف الوافي**: لإسماعيل المقري، تحقيق: عبد الله الأنصاري، مكتبة جدة، ط٥، ١٤٠٦هـ.
١٤٠ ـ **غذاء الألباب**: للسفاريني، مؤسسة قرطبة، مصر.

١٤١ ـ **الغنية**: للقاضي عياض اليحصبي، تحقيق: ماهر زهير جرار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٢هـ.

١٤٢ ـ **فتح الباري**: لابن حجر، تحقيق: محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، ط٣، ١٤٠٧هـ.

١٤٣ ـ **فتح المغيث**: للسخاوي، تحقيق: عبد الكريم الخضير، ومحمد آل فهيد، دار المنهاج، الرياض، ط١، ١٤٢٦هـ.

* **فضل الأندلس وذكر رجالها لابن حزم** = رسائل ابن حزم الأندلسي.

١٤٤ ـ **الفوائد المجموعة**: للشوكاني، تحقيق: عبد الرحمٰن المعلمي، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤٠٧هـ.

١٤٥ ـ **في علمي العروض والقافية**: لأمين علي السيد، دار المعارف، مصر، ط٤، ١٩٩٠م.

١٤٦ ـ **فيض القدير**: للمناوي، دار الفكر، بيروت.

١٤٧ ـ **القاموس المحيط**: للفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨، ١٤٢٦هـ.

١٤٨ ـ **القصاص والمذكرين**: لأبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن الجوزي، تحقيق: د. محمد لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، ١٤٠٩هـ.

١٤٩ ـ **قضية التخلُّف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر**: لزغلول راغب النجّار، كتاب الأمة، قطر، ط١، ١٤٠٩هـ.

١٥٠ ـ **قطوف أدبية حول تحقيق التراث**: لعبد السلام هارون، مكتبة السُّنَّة، القاهرة، ط١، ١٤٠٩هـ.

١٥١ ـ **كارثة في العالم الإسلامي**: لمحمد عبد العليم مرسي، دار الصحوة للنشر، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ.

١٥٢ ـ **الكليات**: للكَفَوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.

١٥٣ ـ **كُنَّاشة النوادر**: لعبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤٠٥هـ.

١٥٤ ـ **كنوز الذهب، في تاريخ حلب**: لسبط ابن العجمي، دار القلم، حلب، ط١، ١٤١٧هـ.

١٥٥ ـ **الكواكب النيرات**: لابن الكَيَّال، تحقيق: عبد القيوم عبد رب النبي، دار المأمون، ط١، ١٤٠١هـ.

١٥٦ ـ **لباب الآداب**: للأمير أسامة بن منقذ، تحقيق: أحمد محمد شاكر، منشورات مكتبة السُّنَّة بالقاهرة، ط١، ١٣٥٤هـ.

١٥٧ ـ **لسان العرب**: لابن منظور، دار صادر، بيروت.

١٥٨ ـ **ما تلحن فيه العامة**: للكسائي، تحقيق: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، ط١، ١٤٠٣هـ.

١٥٩ ـ **المتنبي**: لمحمود شاكر، مطبعة المدني، ط١، ١٤٠٧هـ.

١٦٠ ـ **مجاني الأدب، في حدائق العرب**: لرزق الله بن يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب شيخو، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩١٣م.

١٦١ ـ **المجروحين**: لابن حِبَّان، تحقيق: محمود زايد، دار الباز، مكة المكرمة.

١٦٢ ـ **مَجْمَع الحِكَم والأمثال في الشعر العربي**: لأحمد قبش، دار الرشيد، ط٢، ١٤٠٣هـ.

١٦٣ ـ **مجموع الفتاوى**: لابن تيمية، جمع عبد الرحمٰن بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤١٥هـ.

١٦٤ ـ **محاضرات الأدباء، ومحاورات الشعراء والبلغاء**: للحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

١٦٥ ـ **المحدِّث الفاصل**: للرامهرمزي، تحقيق: محمد عجاج الخطيب، دار الفكر، ط٣، ١٤٠٤هـ.

١٦٦ ـ **المحكم والمحيط الأعظم**: لعلي بن إسماعيل بن سِيدَه المرسي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.

١٦٧ ـ **المختار من شعر شعراء الأندلس**: لعلي بن منجب بن سليمان، ابن الصيرفي، تحقيق: الدكتور عبد الرزاق حسين، دار البشير، عمان، ط١، ١٤٠٦هـ.

١٦٨ ـ **المختصر، في أخبار البشر**: لأبي الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود، المطبعة الحسينية المصرية، ط١.

١٦٩ ـ **مدارج السالكين**: لابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٢هـ.

* **مداواة النفوس** = رسائل ابن حزم الأندلسي.

١٧٠ ـ **مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي**: للطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤٠٥هـ.

١٧١ ـ **مرآة الجنان، وعبرة اليقظان، في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**: لعبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٧هـ.

١٧٢ ـ **مراصد الاطلاع، على أسماء الأمكنة والبقاع**: لعبد المؤمن بن عبد الحق القطيعي البغدادي الحنبلي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.

١٧٣ ـ **مرقاة المفاتيح، شرح مشكاة المصابيح**: لعلي بن سلطان محمد الملا الهروي القاري، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ.

١٧٤ ـ **مسالك الأبصار، في ممالك الأمصار**: لأحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط١، ١٤٢٣هـ.

١٧٥ ـ **المستدرك على الصحيحين**: للحاكم، دار المعرفة، بيروت.

١٧٦ ـ **المستطرف**: للأبشيهي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ.

١٧٧ ـ **مسند أحمد بن حنبل**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ.

١٧٨ ـ **معاهد التنصيص، على شواهد التلخيص**: لعبد الرحيم بن عبد الرحمٰن العباسي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت.

١٧٩ ـ **معتقد أهل السُّنَّة والجماعة في أسماء الله الحسنى**: لمحمد التميمي، أضواء السلف، ط١، ١٤١٩هـ.

١٨٠ ـ **المعتمد في الأدوية المفردة**: ليوسف بن عمر التركماني، دار القلم، بيروت.

١٨١ ـ **معجم الأدباء**: لياقوت الحموي، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

١٨٢ ـ **المعجم الأوسط**: للطبراني، تحقيق: محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤٠٧هـ.

١٨٣ ـ **معجم البلاغة العربية**: لبدوي طبانة، دار المنارة، جدة، ط٣، ١٤٠٨هـ.

١٨٤ ـ **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**: لعبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٤٠٣هـ.

١٨٥ ـ **معجم المؤلفين**: لعمر رضا كَحَّالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٨٦ ـ **المعجم الوسيط**: مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ١٤٢٦هـ.

١٨٧ ـ **معجم مقاييس اللُّغة**: لأحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٩٠هـ.

١٨٨ ـ **معرفة القُرَّاء الكِبَار**: للذهبي، تحقيق: بَشَّار عَوَّاد معروف وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ.

١٨٩ ـ **المعيد، في أدب المفيد والمستفيد**: لعبد الباسط بن موسى العلموي، تحقيق: الدكتور مروان العطية، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ١٤٢٤هـ.

١٩٠ ـ **المُغْرِب، في حُلَى المَغْرِب**: لعلي بن موسى بن سعيد المغربي، تحقيق: د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٣.

١٩١ ـ **مفتاح دار السعادة**: لابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن حسن الحلبي، دار ابن عفان، الخبر، ط١، ١٤١٦هـ.

١٩٢ ـ **مقامات الحريري**: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٥هـ.

١٩٣ ـ **مقدمة لتاريخ التفكير العلمي في الإسلام**: لأحمد سليم سعيدان، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٤٠٩هـ.

١٩٤ ـ **من مؤلفات ابن سينا الطبية**: تحقيق: محمد زهير البابا، منشورات جامعة حلب، ١٤٠٤هـ.

١٩٥ ـ **المنار المنيف**: لابن القيم، تحقيق: عبد الفتاح أبو غُدَّة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢، ١٤٠٣هـ.

١٩٦ ـ **مناقب الإمام أحمد بن حنبل**: لابن الجوزي، الناشر: خانجي وحمدان، بيروت، ط٢.

١٩٧ ـ **مناقب الشافعي**: للبيهقي، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط١، ١٣٩٠هـ.

١٩٨ ـ **المنتخب من معجم شيوخ السمعاني**: لعبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني، تحقيق: موفق بن عبد الله بن عبد القادر، دار عالم الكتب، الرياض، ط١، ١٤١٧هـ.

١٩٩ ـ **المنثور في القواعد الفقهية**: لبدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، وزارة الأوقاف الكويتية، ط٢، ١٤٠٥هـ.

٢٠٠ ـ **المنهاج، شرح صحيح مسلم بن الحجاج**: للنووي، تحقيق: خليل شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط٧، ١٤٢١هـ.

٢٠١ ـ **منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد**: لعثمان علي حسن، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤١٢هـ.

٢٠٢ ـ **منهج التربية الإسلامية**: لمحمد قطب، دار الشروق، بيروت، ط٤، ١٤٠٠هـ.

٢٠٣ ـ **المنهل الروي، في الطب النبوي**: لابن طولون، تحقيق: حافظ عزيز بيك، دار عالم الكتب، الرياض، ط١، ١٤١٦هـ.

٢٠٤ ـ **المؤتلف والمختلف**: لمحمد بن طاهر المعروف بابن القيسراني، تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.
٢٠٥ ـ **الموافقات**: للشاطبي، تحقيق: مشهور حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الخبر، ط١، ١٤١٧هـ.
٢٠٦ ـ **موسوعة العلماء والمخترعين**: لإبراهيم بدران، ومحمد فارس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٣، ١٩٨٧م.
٢٠٧ ـ **موسوعة أهل السُّنَّة**: لعبد الرحمٰن دمشقية، دار المسلم، الرياض، ط٢، ١٤٢٢هـ.
٢٠٨ ـ **موسوعة المستشرقين**: لعبد الرحمٰن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٨٩م.
٢٠٩ ـ **ميزان الاعتدال**: للذهبي، تحقيق: علي البجاوي، دار المعرفة، بيروت.
٢١٠ ـ **ميزان الذهب، في صناعة شعر العرب**: لأحمد الهاشمي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ.
٢١١ ـ **النجوم الزاهرة، في ملوك مصر والقاهرة**: ليوسف بن تَغْرِي بَرْدِي بن عبد الله الظاهري الحنفي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.
٢١٢ ـ **النحو والصرف في مناظرات العلماء ومحاوراتهم**: لمحمد آدم الزاكي، الفيصلية، مكة المكرمة، ١٤٠٤هـ.
٢١٣ ـ **ندوة الإمام مالك**: دورة القاضي عياض، المغرب، مراكش، وزارة الأوقاف المغربية، ١٤٠١هـ.
٢١٤ ـ **نزهة المجالس، ومنتخب النفائس**: لعبد الرحمٰن بن عبد السلام الصفوري، المطبعة الكاستلية، مصر، ١٢٨٣هـ.
٢١٥ ـ **نَفْح الطِّيب**: للمَقَّرِيِّ، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٤٠٨هـ.
٢١٦ ـ **هجرة العلماء من العالم الإسلامي**: لمحمد عبد العليم مرسي، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤١١هـ.
٢١٧ ـ **هكذا علمني وردز ورث**: لأبي عبد الرحمٰن بن عقيل الظاهري، تهامة، جدة، ط١، ١٤٠٤هـ.
٢١٨ ـ **الوافي بالوفيات**: لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ.
٢١٩ ـ **وَفَيَات الأعيان**: لابن خَلِّكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ.
٢٢٠ ـ **يتيمة الدهر**: للثعالبي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٣٩٩هـ.

فِهْرِسُ مَوْضُوعَاتِ ٱلْكِتَابِ

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الفصل الخامس
أسس الإبداع العلمي

الفصل السادس
مقومات الإبداع العلمي

الصَّفحَة | المَوضُوعُ

الفَصْلُ السَّابِعُ

حَوَافِزُ الإِبْدَاعِ العِلْمِيِّ

الفَصْلُ الثَّامِنُ

عَوَائِقُ الإِبْدَاعِ العِلْمِيِّ

الموضوع الصفحة

المَوضُوعُ	الصَّفحَة